علي الزين

للأديب الكبير الأستاذ وصف بارودي
مع التحية والاحترام من المؤلف
علي الزين
١٩٥٤/٢/١٢

مع التاريخ العاملي

الجامعة اللبنانية
كلية الآداب
رقم ١٠٦٦ ورد في ٢٠٠٤/٧/٢٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة العرفان – صيدا

فهرس الكتاب

(٧) خطة الكتاب – التاريخ أمانة وصراحة وصدق .

-٢-

(٩) مصادر التاريخ العاملي (١٠) الأقوال الشائعة (١٤) وثيقة الركبي (١٦) الجوهر المجرد في شرح قصيدة علي بك الأسعد (٢٥) مقدمة ديوان شبيب باشا (٣٢) بقية المصادر .

-٣-

(٣٤) الوطن العاملي (٣٤) بنو عاملة (٣٦) جبل عاملة (٣٦) حدوده (٣٨) مساحته (٣٨) مقاطعاته (٤٠) بلاد المتاولة

-٤-

(٤٢) عناصر المتاولة في جبل عامل (٥٠) القديم والحديث من الطوائف العاملية (٥٢) الجنسية المصطنعة (٥٥) لهجة العامليين اقرب اللهجات السوريه إلى الفصحى (٥٦) التشيع في جبل عامل يمت إلى عهد معاوية وابي ذر الغفاري في الشام (٥٧) الاستدلال المنقوض (٥٨) اللبنانيون أجمع لا يمثلون أمة كاملة فضلا عن ان يكونوا أمة كبيرة (٥٨) قدم العروبة واستطالتها في لبنان .

٥

(٦٠) في سبيل التاريخ العاملي (٦٠) تاريخنا السياسي العام لا ينفصل عن

تاريخ سورية : تاريخنا الخاص هو (٦١) تاريخ المدن والقرى العاملية ، تاريخ الشخصيات النابهة : تاريخ الحوادث والأحوال الطارئة (٦٤) ما هي اسباب تهرب مؤلفينا من التاريخ السياسي (٦٥) ما هي اسباب مهالأة المؤرخين منهم لارباب القوة والجاه ؟ ؟ (٦٦) ما الذي يقوله الناس عن التاريخ والأدب العاملي ؟ ! (٦٩) الترتيب والاستقراء والتمحيص لايزال مفقوداً في أبحاثنا التاريخية .

-٦-

(٧٣) تتمة وجواب – أو مثل من سيرة كامل بك الاسعد

-٧-

(٧٨) بنو بشارة العامليون – أو الحلقة المفقودة من تاريخنا بين سنة ٧٠٠ و ٩٠٩ هـ

-٨-

(٨٢) مظاهر السياسة العاملية في عهد المعنيين وآل شكر (٨٩) مواضع الشك والاحتمال (٩٤) قصة علي صغير مع الشكريه (٩٥) القصة كما يرويها آل الصغير (١٠٥) ما يلاحظه الباحثون (١٠٨) القصة كما يرويها العلامة الامين (١٠٩) ما يلاحظه الباحثون (١١٣) المقدر على ضوء القرائن والنصوص (١١٨) أثر هذا الحادث في السياسة العاملية «١٢٠» هل جار الشكريون في حكمهم ؟

-٩-

«١٢٩» بقية النصوص التي تنم عن تاريخنا في العهد المعني «١٣٤» همسة لا بد منها «١٣٥» ما يلاحظه الباحثون

-١٠-

«١٣٨» العادات والأنظمة في العهود الاقطاعية «١٣٩» الايالات في سوريا (٣٩) مجالس الشورى والقضاء «١٤٠» اركان الحكومة في إيالة صيدا «١٤٢» التنظيم العسكري في إيالة صيدا «١٤٣» صلاحية الاقطاعيين في لبنان «١٤٤» صلاحية مشايخ جبل عامل (١٤٤) مظاهر الاستبداد واثره في البلاد «١٤٥» موقف الدولة من الفتن الداخلية «١٤٦» مصدر الفساد في الايالات «١٤٧» الضرائب «١٤٩» الفوضى في انشائها وتحصيلها (١٥٣) عائدات إيالة صيدا «١٥٤» الأحوال العاملية في عهد آل الصغير «١٥٧» عائدات الاقطاعيين في جبل عامل (١٥٧) الضرائب التقليدية (١٥٧) الضريبة باسم عادة «١٥٨» الضريبة باسم حلاوة (١٥٨) الضريبة باسم عيدية «١٥٩» الضريبة باسم هدية :

«١٥٩» المراتب الرسمية «١٦٠» السمية والعهدة «١٦١» طريقتهم في تعيين الحكام «١٦٣» امتيازات الاقطاعيين (١٦٣) اصطلاحاتهم في المكاتبة «١٦٥» عاداتهم في المقابلة «١٦٦» ادب الضيافة عند العموم «١٦٦» مآدبهم «١٦٧» من عاداتهم في النوائب «١٦٧» من عاداتهم في الامراض .

-١١-

«١٧١» مظاهر الأدب العاملي في العهد المعني

-١٢-

«١٩٠» التحريف آفة الوثائق التاريخية

-١٣-

«١٩٦» المكابرة آفة العلم والتاريخ

التاريخ
أمانة وصراحة وصدق

إننا حين نحاول درس تاريخنا الاقطاعي على وهج العواطف القبلية أو الاقليمية أو الطائفية .. نجني على الوحدة الوطنية ونقضي على مفعولها القومي في بلد كلبنان تضاربت فيه النعرات القبلية والاقليمية والطائفية حتى أوشكت أن تجعل منه برجاً من أبراج بابل ؛ وان تحول برلمانه إلى جمعية أمم :

لهذا كان على المؤرخ الطامح إلى وحدة أمته ومصلحة بلاده أن يكتب التاريخ بروح علمية بريئة تبعث فينا هزة الاكبار لكل مخلص أمين على واجبه القومي والانساني والوطني .. أو تعزز ثورة المقت والغضب والاحتقار لكل خائن أو جائر أو مستهتر بواجب المروءة وواجب الايمان والتضحية في سبيل المثل العليا – على ما تفرضها الحياة في كل زمن وفي كل محل – وإلا كان التاريخ من عوامل الرجعية والانتكاس والجمود :

وسيرى القارىء الكريم حين يمعن في درس هذا الحديث مبلغ الصدق والاخلاص وحسن النية . ويعلم أنني لم أفكر – حين سجلت ما دار عليه من أفكار وملاحظات ووساوس – في أن أرضي الناس أو اسخطهم ، ولا في أن اضرهم أو أنفعهم ، ولا في أن أتقرب اليهم أو أنفر منهم . وانما فكرت في ان أرضي الحق والواقع وسمو القصد من التاريخ في موقفي من هذه الآثار العلمية والتاريخية التي رأيتها تضطرب بين الوضوح

والخفاء ، بين الصواب والخطأ ، بين الاخلاص والملق ، وتوشك ـ لا يشيع في جملتها من تهافت وغلو وأباطيل ـ ان تكون مجاملة فارغة ، او مغالطة كاذبة ، أو صدى خافتاً لا يجد فيه القارىء اللبيب ما يبل أوامه أو يرضي طموحه أو يعزز إيمانه بالاهداف والنتائج السامية .

وانني حين حاولت ـ أن أقف بموسي وغروري ـ موقف الناقد الثائر على ما في تاريخنا من أساطير وعلى ما في خيالنا من تهاويل وعلى ما في تفكيرنا من اضطراب وفتور ، وعلى ما في أهدافنا من أنانية وخور .. لم أحاول أن امحو واثبت وأقيم دنيا جديدة تنسخ بروعتها وجلالها كل ما شاده الاولون والآخرون من آثار خالدة وأبنية محكمة خلابة .. كلا !

وإنما حاولت أن آخذ بيد القارىء المخلص لحكم الوجدان والضمير إلى مكان الضعف والخلل من قصصنا وتاريخنا وتفكيرنا ، وأدعوه للوقوف منها موقف الجد والحذر حين يقرأ وحين يفكر وحين يحكم ، على في هذا الحذر ما يقربه إلى الصواب أو يشعره بما يشعر به الطامحون إلى مثل أعلى في الحق والخير والجمال ، وعلّ في هذا الشك ما يحفز الملكات والهمم إلى تقويم ما اعوج واصلاح ما فسد وإيضاح ما خفي :

علي الزين

سنة ١٩٥٤م

مصادر التاريخ العاملي

يوشك تاريخنا السياسي قبل عهد ناصيف النصار أن يكون أشد غموضاً وتوغلاً في الأساطير من تاريخ طسم وجديس ، وانه من عهد ناصيف حتى اليوم يكاد ان يخلو من تصوير الأخطاء والعثرات السياسية على وجهها الصحيح ومن ذكر المعارضين ووجهات نظرهم في السياسة التي كانت تتحداهم ويتحدونها في بعض الأحيان ، دع عنك هذا الاقتضاب وهذا التشويش فيما وصلنا من وثائق واخبار وملاحظات .

أترى ان جبل عامل والعامليين ـ قبلا ـ كانوا تابعين لغيرهم من الحكام والمقاطعات ، ليس له ولا لهم شأن يذكر في سياسة البلاد وأحداثها الجسام ؟؟

ام أن سجلاته التاريخية تلاشت فيما تلاشى من الكتب في عهد الجزار ؟ مع انه لم يفقد شيء من شعر العامليين في مدح هؤلاء الزعماء الذين كانوا هدفاً لانتقام الجزار وموضعاً لتنكيله كشعر الشيخ ابراهيم الحاريصي والشيخ ابراهيم يحيى ؟؟

ام من الجائز أن يكون الذين يملكون شيئاً من النصوص التاريخية ما انفكوا خائفين من مغبة نشرها ؟ او حريصين على احتكار ما يختصون بمعرفته منها ؟ او ضنينين بكشف أوراقهم على من يحاول تحرير التاريخ من الأساطير وكتابته بروح علمية ؟؟

أو من الجائز ان يكون علماؤنا وادباؤنا ومؤلفونا قد تهاونوا بهذه الناحية من تاريخ جبلهم مع انك تجد ان ابرع الآثار العلمية والأدبية التي

شع منها اسم هذا الجبل في سائر الاقطار انما أزهرت ونمت وتحدرت اليها من هذه القرون السابقة لعهد ناصيف ؟ ؟

اومن المحتمل ان يكون ما كتب من تاريخنا السياسي لم يكتب بروح علمية تحرك اهتمام القراء او تدعو إلى اطمئنان الباحثين او تستوجب الاحتفاظ بما قد كتب منه ؟ ؟

ام ترى ان ابطال السياسة الاقطاعية في هذا العهد قد جرى كل منهم على طمس الأخبار التي تمس مفاخره من قريب أو بعيد أو تعزز دعوى اخصامه ومنافسيه أوتتصادم مع اغراضه واحلامه الشخصية في هذه الناحية الحساسة التي تضطرب لها النفوس وتستعر الاضانيات وتتمادى الاحقاد في عملها الهدام ؟ ؟ لا أدري إذ ليس في تاريخنا سؤال أو جواب او اشارة تنم عن هذا كله او بعضه ؟

وإذا جاز لنا أن نتوسع في الاحتمال اكثر من ذلك فإن الشك قد يغلو بنا ويذهب كل مذهب في السؤال عما بقي وعما ضاع من نصوص التاريخ . وفي الاستفهام عن مصدر هذا الباقي أو عن حقيقته ومدى صدقه ودلالته .

فلننظر الآن فيما يرجع اليه الباحثون من مصادر عاملية او فيما يعتمدونه من الكتب والأقوال .. وهي تكاد أن تنحصر فيما يلي :

الاقوال الشائعة

١

إن الرأي العام في كل مجتمع – ولو كان الاعم الاغلب من افراده علماء مثقفين – تسيطر عليه روح السذاجة والبله وتشيع فيه الاقوال الكاذبة كما تشيع فيه الأقوال الصادقة وربما كانت الكلمات المموهة

والاحاديث الملفقة اشد توغلا في النفوس واكثر انسجاماً مع داعي الهوى من الحقائق المرة ، لما يكون فيها من دقة وغرابة او طرافة صاغها .. وابدعها خيال الرواة والقصاص على خير ما يتمناه المعجبون والناقمون والطامعون في أحلام اليقظة . ولولا هذا لما أثرت محطات الاذاعة وصحف الدعاية وتصريحات الرؤساء اثرها السيء في تضليل الرأي العام الاوروبي أيام الحرب الكونية أو في تضليل الرأي العام العربي في محنة فلسطين ومأساتها الدامية .

فكيف بهذا الرأي العام إذا كان افراده من الغفلة والغرور بحيث يروج فيهم مثل هذه الأقوال والروايات التي يروجها الناس إلى يومنا هذا .

كقولهم بأن آل شكر – في أيام حكمهم – مروا بعين (بوسودون) فانتهرت احدى الغسالات بعض كلاب الصيد فغضبوا لذلك وتركوا كلابهم تأكل طفلها وتمزقه أمام عينيها !!

وقولهم : إن بعض مقدمي جزين ركب فرساً جموحاً واطلق له العنان في قرية جرجوع فانطلق به الفرس بين اشجار التين حتى خيف على المقدم من جراء ذلك فما كان منه إلا ان قبض على فرع من الشجرة فلم يستطع الفرس بعد ان يتحرك بينما كان في منتهى السرعة والنشاط ولم ينزل عنه المقدم حتى مات تحته من شدة الضغط ! ولم يكن الفرس له فاعتذر لصاحبه بأنه فرس هجين لا ينبغي أن يفتق !!

* * *

وقولهم عن كامل بك الاسعد يوم عاد من اسطنبول ومعه عربة ممتازة وان بنت الخليفة العثماني السلطان محمد رشاد قد أهدت له هذه العربة مع خيلها قالوا ذلك وصدقوه ، على استحالة ان يتصل مثله بمثلها يومئذ لما يفصل

بينهما من تقاليد الخلافة وعنجهية الملك والسلطان ، واختلاف السن والجنس وتباين الطبع والنشأة والمحيط ؟؟ »

* * *

وقولهم: (بأن جيش العامليين في عهد ناصيف وظاهر العمر كان يبلغ زهاء العشرة آلاف فارس من الابطال المجربين !)

مع ان فرسانهم في وقعة البحرة والحولة لم تزد على ٣٠٠ فارس كما نص على ذلك الشيخ حيدر رضا الركيني في مذكراته وكذلك لم تزد فرسانهم في وقعة كفر رمان على ٥٠٠ فارس على رواية الامير حيدر وغيره من المعاصرين .. وهبها بلغت الالف والالفين فأين هذا من العشرة آلاف؟ وهاتان الوقعتان من أكبر وأشهر وقائع العامليين في عهد ناصيف وظاهر العمر .

ثم انك لو احصيت الخيل في الوقائع الكبرى التي خاضها كل من الأمير فخر الدين المعني والأمير بشير الشهابي في عنفوان عظمتهما وقوتهما لرأيتها لم تبلغ عشرة آلاف فارس بما فيهم فرسان العامليين ؟ !

وعلى فرض أن يكون فرسان العامليين عشرة آلاف فكم ينبغي أن يكون عدد المجموع من حملة السلاح ممن لا يستطيعون ان يقوموا بنفقات الخيل ولوازمها وهم لا يكونون عادة – في كل عصر ومصر – دون التسعين بالمائة ؟؟ (١)

* * *

ثم بعد كيف بهذه الشائعات والاقوال إذا أصبحت مورداً للتنافس

١ – راجع ص ١٧١ من مجلة الكلية البيروتية م ١٠ عدد شباط سنة ١٩٢٤

الذاتي ومصدراً للأماني الجامحة ومظهراً للتعصب الحزبي كهذه الأقوال والشائعات المتناقضة التي يتراشق بها اليوم كل من زعماء الحزبين المتعارضين في الجنوب فيدعيها فريق وينكرها فريق ويتأولها آخر ؟

أم كيف بهذه الأقوال إذا عصف بها تراوح النفوذ بين زعيم وزعيم وتطور الصداقة بين يوم ويوم كهذه الاقوال والنسب المختلفة بين ما كان يقصه ويقوله اعضاء القوائم الانتخابية سنة ١٩٤٧ عن بعضهم البعض وما اصبحوا يقصونه ويقولونه اليوم وقد تبدلت الاحوال واصبح الاخصام اصدقاء والاصدقاء اخصام الداء يستبيحون كل شيء يرضي نقمتهم حتى انكار ما كانوا يتحدثون بـــه في المجالس العامة وما كانوا يقولونه إزاء مكبرات الصوت وما ملأوا به صحف ذلك العهد من صور الاحتفالات ونصوص الخطب والتصريحات المغالية .

فهل تظن ان السياسة كانت في الماضي اروع وأرصن منها في هذه الأيام ؟؟ وهل تتصور ان ساسة الامس وزعماءه كانوا ابعد نظراً وأصح منطقاً من ساسة اليوم وزعمائه ؟؟ ام هل تعتقد ان أفراد الرأي العام كانوا قبلاً أوفر علماً واكثر فهماً وأصدق لهجة منهم في هذا العصر ؟؟ ليكون لهم ولهذه الشائعات التي تداولتها أغراض السياسة الحزبية وعصف بهـــا تراوح النفوذ وتطور الصداقة واضطراب المتقاعدين من رواتنا بين عصف الذاكرة وتقادي الخيال ليكون لهم ولها هذا المنطق العلمي في وضع تاريخنا وتحرير قضاياه على ما تقره اصول البحث ، إذا نحن أخذنا هذه الاخبار الشائعة على علاتها ولم نوسعها شكا وبحثاً وتمحيصاً ؟؟

وثيقة الركيني

٢

لعل هذه الوثيقة أو المذكرة تمتاز عن غيرها من مصادر التاريخ العاملي بشيئين هامين ، أولهما سذاجة واضعها .. سذاجة تباعد بينه وبين احتمال الحوادث او تلون الحقائق والاحتيال في توجيهها وترتيبها على اشكال توصله إلى النتيجة التي يصل اليهـــا الحاذقون المتطرفون في أغراضهم ومآربهم الشخصية ، وثانياً معاصرته لأكثر الحوادث وملابسيها ومدبريها .

فهي لذلك أقرب إلى الصحة وحسن الظن وصدق الدلالة من هـــذه المصادر المجهولة النسب ، ومن هذه الوثائق التي جاءت متأخرة عن زمن الحوادث ولم تسلم من المبالغة والتأويل والاذعان لحكم الظروف المحرجة والعواطف الجامحة .

فما يرد في هذه الوثيقة موافقاً لما ورد في غيرها نستطيع أن نعتبره مؤكداً له او موضحاً لمجمله ، وما يرد مخالفاً له أو مصوراً لاشياء وخصائص تؤدي إلى نتائج غير النتائج التي ادت اليها بقية المصادر المعروفة نستطيع أن نتخذه حجة على ضعف الدلالة وخطأ الاستنتاج من فحوى النصوص المغايرة ، أو نعده برهانا على ان هناك روايات وملاحظات لم تزل في طي الكتمان لم تصل اليها يد المؤرخين او لم يجرأوا على اظهارها او اعتبارها ، أما لأنهم لم يؤمنوا بهـــا كل الايمان او لأن ظروفهم وأجواءهم وتقاليدهم لا تتسع للحرية والصراحة إلا بقدر معلوم يرضي ارتياح الناس لروعة الماضي وعصمة الآباء والأجداد من خطل الرأي واتباع الهوى .

ولكن موطن الضعف ومحل الشك في وثيقة الركيني هذه هو في أن

عبارتها لا تشعرك بأن المؤلف قد لابس الحوادث أو شاهدها عن كثب أو استقى اخبارها من الموارد الأصيلة الصافية او تابع مجراها واستقصى اجزاءها وفصولها ، وانما تشعرك بانه سجل ما وصله من الاخبار عن أي طريق اتفق ولو انهـا كانت مشبوهة ، وهناك موضع الخطر في السذاجة وحسن الظن وسرعة التصديق ، اضف إلى هذا ان نصوصه في أغلب الاحيان تأتي قاصرة أو مبتورة منقطعة لا تفهم منها مـــا يجب ان يفهم من منشأ الحوادث او تسلسل صورها وفصولها ونتائجها ، وكم تراه يجمل في أشياء ويسكت عن اشياء هي اجدر بالتوضيح والتعليل وبالحكم القاطع من هذا الاستطراد إلى ما يشبه السخف احيانا كأنما هو قد كتب هذه المذكرات لنفسه او لأبناء جيله من الذين يكتفون منها بالاشارة لعلمهم بالأسباب والظروف وتفاصيل الحوادث ونتائجها .

فإذا جاز للباحث أن يطمئن إلى سذاجة المؤلف وصدق لهجته وبساطة تعبيره ، فلا يجوز أن يطمئن إلى صحة فهمه للحوادث بعللها وظروفها وتفاصيلها ولا إلى صدق معرفته لهوية المتحدثين اليه ومقدار علمهم بالحوادث ومدى احتياطهم لحقيقة مايروونه ويقصونه ولا يصح ان نعتقد بأن ماأهمله اودق عن فهمه وتعبيره من الحوادث والحالات والملاحظات كأن لم يكن له حقيقة ولا وجود .

إذن فأهمية هذه الوثيقة تدور مدار الدقة في وزن نصوصها وتفحص اخبارها واستلهام اسرارها ومزاياها والاحتياط لمـــا فيها وفي غيرها من تفاوت الدلالة وتعارض السياق . وهذا امر شاق عسير بالنسبة لمن تتحكم به الأغراض والأهواء وتحول بينه وبين الاخلاص لما توحيه الأدلة والقرائن من نتائج طريفة وأحكام مغايرة لما تنضح به الشائعات والاخبار المرسلة .

الجوهر المجرد في شرح قصيدة على بك الاسعد

٣

لاشك بأن الذين ادركوا عصر الاديب الفاضل الشيخ علي السبيتي أو اتصلوا به من علمائنا وادبائنا قد اطلعوا على كتابه – الجوهر المجرد [١] – او على قسم منه أو سمعوا الكثير من اخباره ونصوصه وتناقلوها جيلا عن جيل – على اختلاف في الوعي والذاكرة والأمانة في النقل – حتى وصلت الى كتاب عصرنا وادبائه الذين حاولوا أن يسجلوا تاريخ بلادهم على ضوء العقل والواقع.

فكتاب السبيتي إذن من الكتب التي تستوجب العناية، والبحث عنها كمصدر للمؤرخين له أثره في تبرير احكامهم وتقويم أبحاثهم، وإذا لم يتهيأ لنا الوقوف على أصل الكتاب ولم نستطع ان نعرفه معرفة صحيحة تامة فحسبنا – لتقويمه كمصدر علمي – ان نعرف منه قصد المؤلف وغايته من وضع الكتاب ثم الجو الذي سيطر عليه أثناء التأليف وهل كان تأليفه لغاية علمية صرف ؟ ام لضرورة سياسية وحاجة في نفس يعقوب ؟؟ وهل كانت ظروفه اثناء العمل حرة مساعدة على الصراحة في القول والاخلاص في العمل والتجرد لرسم الحقائق بجميع فروعها وعللها والوانها ؟ ؟ أم أن الظروف والاعتبارات قد احرجته وارهقت قلمه وخياله بمحاولات ومجاملات لا قبل للعلم والتاريخ الصريح بها ؟

---

١ – هناك ثلة من علمائنا وادبائنا الثقاة تذهب الى ان هذا الكتاب كان موجودا لدى خليل باشا ثم اختلى أثره بعد ان نشر مقدمة ديوانه التاريخية وان اسم هذا الكتاب الحقيقي [العقد المنضد] ولكن الباشا انحل هذا الاسم لكتابه ثم سماه باسم [الجوهر المجرد].

وليس معرفة هذا الجو وهذه الغاية من الصعوبة بحيث تتصور فإنه إذا لاحظنا هذه الآثار الادبية التي تصدى العلماء والادباء لشرحها وتفسيرها، وادركنا انهم انما تصدوا لشرح ما اغلقت معانيه وكثرت الغرابة والوحشية في الفاظه كالمعلقات السبع، والعلويات السبع، او لما اشتمل – مع ذلك – على حكم غالية وامثال مجهولة المورد هي بحاجة إلى التوضيح والتقرير كلامية العرب، ومقصورة ابن دريد، أو لما تضمن الاشارة الى كثير من الحوادث الهامة وانطوى على مبلغ من الأحكام والنظريات كرسالة ابن زيدون لولادة بنت المستكفي، أو لمادق معناه وسما فنه حتى صار بحاجة إلى من يكشف للقارىء العادي عن اسرار البلاغة فيه ويجعل منه انموذجاً للفن الرفيع كما ترى في تفسير آية القرآن او ماقاربها فصاحة وبلاغة من خطب النهج ومختارات الشعر والنثر. فإنه إذا لاحظنا ذلك كله ثم رجعنا إلى هذه القصيدة التي تصدى لها هذا الأديب الكبير بالشرح والتفسير، ولاحظنا انها لا تعدو أن تكون عادية بصيغها والفاظها ومعانيها ليس فيها من هذه الخصائص والامتيازات ما يستوجب شرحاً او يدعو إلى تفسير وتعليق، فلا الفاظها وحشية ولا معانيها مغلقة ولا فيها من الامثال والحكم ولا من شبح الحوادث التاريخية وصورها الهامة ما يعز على القارىء فهمه وتصوره ولاهي من دقة البلاغة وتناهي الخيال وتوغل الفكر بحيث تعجز عن ادراك اسرارها وتذوق فنها وجمالها إلا بتوجيه عالم وتأويل خبير او افتراض شاعر ألم بهذا المختار من ابياتها.

خليلي ما هذا الجفا والتقاطع ... وماذا التنائي والدموع هوامع
وعيث سوام اللحظ في زهرة الدجى ... فما بان لي للنيرين مطالع
ولم أر غير الفرقدين وأختها ... العميصا تعاطيها الرضى فتنامع

سلوا مهجتي الحرى ودمع تذيبه ... بعين واخرى للديار تطالع
فانا مـا يرنو الى ربواتكم ... كأن له في الرقمتين ودائع
اقلب فكري بالتداني فلم اجد ... سبيلا وداعي البين بالبعد صادع
كوى الدهر احشائي من الهجر وانثنى ... علي بسهم اوترته النوازع
متى نلتقي يوماً بتبنين عـامل ... وتبصر هاتيك الليـالي رواجع
أأنسى ليبلات اديرت كؤوسها ... علينا واقداح السرور فواقع
نعمت صباحاً ربع تبنين واغتدت ... بك العين والآرام وهي رواتع
يقولون عذالي اما آن ان يرى ... فؤادك من بين الاخلاء هاجع
تذكرت هل يجدي العواذل عذلهم ... وهل يصنع المحبوب ما انا صانع
إلى الله كم عهد رعيت وذمة ... حفظت ورود اخبئته الاضـالع
وكم ليلة احييتها وجفونكم ... فريقة نوم اهنئتها المضاجع
خليلي اني كلما ذر شارق ... شرقت بماء اسبلته المدامع

* * *

فما انا عن عهد الاقارب معرض ... ولا انا عن وصل الاخلاء راجع
سموت بآباء كرام شعارهم ... بناء المعالي حيث كيوان ساطع
لهم شرف يسموا على هامة السهى ... ومجدهم فوق المجرة طـالع
هم القوم من عليا نزار وطفلهم ... قمائمه البيض الرقـاق القواطع
هم مهدوا من عامل كل صعبة ... وهم شيدوها والرماح شوارع
وهم ورثوها بالصوارم والقنـا ... وفي همم تندك منها القوارع
وهم لذوي الآمال كعبة آمل ... وعند لقا الاعدا رياح زعازع
وهم في الوغى آساد كل كريهة ... وفي السلم بالجدوى غيوث هوامع
وايامهم من عهد عاد شهيرة ... وفي كل عصر هم بدور طوالع

مناقب لا تحصى لهم ومآثر ... شذا عرفها في الهند والصين ضايع
دعوا ذمم العليـا بالهمم التي ... اليها جميع العـالمين خواضع
وكم شامخ العرنين اضحى مذللا ... لدينا وكاس الذل والحتف جارع
نروي القنا في يوم معترك اللقا ... وبتارنا في هامـة الضد راكع
وان طلب المعروف والفضل طالب ... اشارت الينا بالاكف الاصابع
ورب امرء اودى الغرور بنفسه ... فسيق لما قد سادنا وهو جازع
وجر عنان الغي منه تبخترا ... ورام التي منها تطير القنازع
فكان عثورا قد كبا بفيه به ... وضاق به رحب الفضاء وهو واسع
الم تعلم الاقوام اني فتى الوغى ... وبدر اذا ما اظلم الخطب طالع
واني من القوم الكرام ذوي العلى ... ليوث قراع ما لهم من يقارع
وان دافعتهم من زمان صروفه ... يعـاضدهم عون من الله دافع
وفي جبهة الايام خطت مآثر ... لنا سطرتها في الدهور الوقائع
وان نحن فاخرنا بآثار مجدنا ... فليس لنا عنـد الفخار منازع

ومهما قيل في وصف هذه القصيدة فهي لا تدل على معنى يصح الاطمئنان اليه سوى ان الناظم — وهو بحكم الجاه والمال والنسب وهتاف المحدقين يلاعب صباه من أولئك الواثقين بأنفسهم والمعجبين بماضي آبائهم واجدادهم — رأى قصيدة الفرزدق العينية فأعجبته وتأثر بها او بهذا البيت من أبياتها .

اولئك آبائي فجئني بمثلهم ... اذا جمعتنا ياجرير المجامع

فأوحى له هذا الاعجاب المثلث ان يعارضها او ان يقلدها وينظم على الوزن والقافية قصيدة يفتخر بها هـذا الفخر الاجمالي الساذج الذي اعتاد المتأخرون من شعرائنا ان يقلدوا به المتقدمين من شعراء الجاهلية كالسموأل وابن كلثوم وعنترة ، او من شعراء الاسـلام كالفرزدق وأبي فراس ،

والرضي ، تقليداً لمحض التقليد لا يقصدون به إلى حقيقة مدركة ولا إلى واقع مرموق .

فإنا إذا امعنا في هذه الملاحظات وتدبرنا نتائجها نستطيع ان نعرف ان المؤلف — وإن غالى في مقدمة الكتاب بما يشمرك ان القصيدة تمتاز بجميع هذه الخصائص التي تستوجب الشرح (١) — لم يؤلف كتابه لغاية علمية أوأدبية صرف مهما يكن من توسعه في استعراض الحوادث والحالات والسير ، وانما الفه لغاية أخرى وفي جوخاص وضمن دائرة معينة لا يستطيع الخروج عنها إلى ما يسخط حاكم المقاطعة ، وزعيمها المطلق ، وشاعرهـا الحماسي . مما لا يتناسب مع فحوى الحماسة من وقائع وسير وملاحظات قد تكون جديرة بأن لاتسقط من حساب المؤرخين الاحرار ، ولا يسعه كذلك التهاون ضمن هذه الدائرة بما يرضي الميول والطباع والتقاليد الاقطاعية من احاديث المهرجين وزخارف المداهنين ومبالغات المتزلفين ، ولو انه اعتقد — في صميم نفسه — بأن معظمها من تلوين الخيال الجامح .

ويكفي للدلالة على صحة هـــذه الاحتمالات ان تقرأ ص (٧٩٦ من العرفان م ١٠) هـذا النص للعلامة الشيخ محمد علي عز الدين وهو من المعاصرين للحوادث الذين اجمعت الكلمة على نزاهة رأيهم وصدق معرفتهم :

ثم تقابله بمـــا رواه شبيب باشا الأسعد ص ٣٩ و ٤٠ من ديوانه عن كتاب (الجوهر المجرد) هذا :

رواية عز الدين

قال العلامة عزالدين ص ٦١ من كتابه[٢] سوق المعادن ، وفي سنة ١٢٨٦هـ

١ — ديوان شبيب باشا ص ٧٠

٢ — نسخة الشيخ احمد رضا بخط المؤلف

خرجت حوران واللجا وجملة من طائفة الدروز واجتمعوا في اللجا وتوجه رئيس العساكر الشامية إلى حربهم وانفذ امراً إلى رئيس عشائر بلادنا حمد البك بن محمد النصار في ملاقاتهم ، فوجه الأوامر إلى البلاد في تجهيز العساكر وامتنع عليه جملة من اولاد العشائر خوفاً على بلادهم من انهم إذا خرجوا منها يأتيها العدو وفي اثناء ذلك دخلت سنة تسع وستين وكان ابتداؤها يوم الجمعة فإنه كان اول المحرم ومامضت منه أيام حتى غزا جملة من العرب البلاد فجاؤا إلى قرية الحيام وساقوا جملة من الغنم ووقعت الغلبة على اهل الحيام واتصل ذلك (١) بتامر بك فلم يقدر على اللحاق بهم : وفي اليوم الثامن من المحرم غزا جماعة من العرب طرف البلاد من جهة مقام نبي الله يوشع فاستاقوا جملة من الغنم التي لزبيد طائفة من العرب وكانوا قد نزلوا مرج قدس واخذوا ثلاثه حمير لأهـــل قدس فجاءهم أهل عترون وبعض المغاربة النازلون بديشوم واهل قدس ووقع بينهم وبين الغزاة حرب فقتل ستة من الغزاة ورجل فارس ، وجرح من أهل البلاد اثنان ومن المغاربة اثنان وجاء الخبر إلى حمد البيك وكان قد عسكر في سهل الخان من ارض تبنين فأمر بنقل المعسكر إلى عين قدس ثم مضى بعد ذلك إلى ارض الحيط وخيم على جسر المجامع وانتهب جملة من خيل عرب الاوبس : ولما انقادوا له ردها اليهم وبقي على الجسر اياماً ثم كر راجعاً إلى قدس : وجاء الخبر من رئيس العساكر بوقوع الصلح بينه وبين اهل اللجا بعد أن وقع بينهم حرب في بلدة تسمى ازرع .

(١) وفي نسخة رضا وجاء الصوت إلى تامر بك .

رواية السبيني

وروى شبيب باشا الأسعد (٣٩ - ٤٠) من ديوانه عن كتاب الفاضل السبيني مانصه : وقد كانت شفت عصى الطاعة في جبل حوران بالديار الشامية ولجأ اليها كثير من مردة ذئبان العربان : قال العلامة الشيخ السبيني في كتابه الجوهر المجرد في شرح القصيدة العينية للوالد رحمه الله : فصممت الدولة العلية ايد الله شوكتها ضربه وارضاخه الاطاعة فاستنهض رئيس عساكر عربستان في الشام همة هذا الشهم الهمام ودعاه لهذا المهم لعلمه بزيادة المامه وسعة خبرته بالحروب ورأيه وتدبيره وقدم عهده بالرئاسة وحسن معرفته في كبراء الطوائف وميل عظمائهم اليه واقتداره على استجلاب دانيهم وقاصيهم ومتمردهم وعاصيهم ، إن كان بالحرب اوبأساليبه ولطف مسالكه وذلاقة لسانه وخطابته ، والقى له زمام هذا الأمر وندبه للسرعة المبادرة بتجهيز جيوشه ومسيره لتلك الأطراف على ظن من رئيس العساكر المشار اليه ان والي الايالة في بيروت لا يخالف هذا الرأي لأنه جهاد في طاعة الدولة وعلى مقتضى ارادتها العالية اما هذا الهمام المقدام فإنه قام بجموعه وعسكره وعسكر على الاردن وعبر الجسر وخيم حيث الطريق إلى ناعران وكان بأثناء ذلك قد استاقت عربان الجولان ماشية لعرب الجيط من اعمال صفد فلجأ هؤلاء إلى بلاد بشارة بما عندهم من المواشي فراراً من اولئك ونزلوا سهل قادس في جنوب مقام نبي الله يوشع فاجتمع اولئك العربان وغزوهم بغتة فأصابوا سائر ماشيتهم فبلغ الخبر جيرة ذلك الموقع وهم قرى عثرون والمالكية وقدس فلحقوهم ولكنهم لم يدركوا آثارهم وعندما وافى البك الخبر استرجع من العربان ما غنموه وسلمه لأربابه وبث

في تلك الاطراف الأمن وامسكت جميع عربان تلك الجهات وأرباب الشكاوات عن الاتيان بحركة ما من الحركات المخلة بالامن وما زال هو بعدة اقامته يبعث بمجموع من طرفه تحت قيادة معتمديه فيجتمعوا مع العسكر السلطاني المعسكر بانتظار حركته لهاتيك الجهات ليتجسسوا الامور ويرسل الجواسيس لتلك الأنحاء وبقي ينتظر حتى فهم بذلك الاثني مخالفة رأي الوالي في بيروت لرئيس العساكر في الشام (١) وجعل مخابراته متصلة مع الجانبين ليأخذ النتيجة بالصورة المرضية لدي اولياء الامور فما كان إلا باثنتا احدث حرب القارص فصدر امر الدولة العلية برفع الحرب على اللجا ورجعت العساكر الشاهانية إلى دمشق الشام والبك بجموعه إلى تبنين انتهى كلام صاحب الجوهر المجرد .

الفرق بين روايتي عز الدين والسبيني

(١) ان رواية عز الدين تنفرد بأخبارها عما اهمل ذكره السبيني من غزوة العرب لقرية الحيام وعجز تامر بك عن تدارك الخطر وارجاع المنهوب منها لأهله .

• • •

(٢) ثم بهذا النص على امتناع جملة من حكام المقاطعات العاملية عن الامتثال لأوامر احمد البك في الذهاب إلى حرب اللجا ، مما يشعرك بأن صفة شيخ المشايخ كانت أشبه بالألقاب من الصفات الشرفية والاعتبارية في جيل عامل ليس لها اي أثر عملي عند اللزوم إلا إذا أوجبت الضرورات وحكمت الظروف الخارجية على كل فرد منهم ان يشترك بما دعي اليه

---

(١) واذا اصبحت بيروت ولاية مستقلة عن دمشق سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٧ م

داعي شيخ المشايخ : كما تكون الحال في الحروب التي تهاجم بها البلاد من الخارج ، أو كما تكون حين تغزى الطائفة في عقر دارها وفيما يشبه ذلك من حالات وعوامل يتجاوب بها حافز السياسة مع حافز الدين وحافز الدفاع عن العرض والنفس والمال ، كما اتفقت هذه العوامل جميعها في حادث الحيام مع الدروز يوم انقادت الطائفة على اختلاف احزابها وطبقاتها وزعمائها للاشتراك مع آل عبدالله في دفع الخطر عن قريتهم وما يليها من حدود الجبل مع انه لم يكن في آل عبدالله شيخ اقطاعي ولا شيخ مشايخ ؟

• • •

(٣) ثم تختلف رواية عز الدين عن رواية السبيتي بنصها على وقوع معركة في — سهل قدس — بين الغزاة من العرب وأهل قدس وديشوم وعثرون ، ثم بنصها على وقوع اربعة جرحى من العامليين وسبع قتلى من الغزاة في هذه الوقعة ثم لا تشعرك بعد بأن الغزاة استطاعوا ان ينفذوا بشيء مما سلبوه بينما رواية السبيتي لا تشعرك بوقوع معركة ما بين العامليين والغزاة وانما تشعرك بأن الغزاة سلبوا ونفذوا بما سلبوه من قدس إلى ان استرده حمد البك من الاردن .

• • •

(٤) وكذلك تختلف رواية السبيتي عن رواية عز الدين بنصها على ان حمد البك عسكر على الاردن قبل حدوث غزوة قدس وانه قد بلغه خبر هذه الغزوة هناك فاسترجع ما نهبه الغزاة لاهله وبقي على الاردن إلى ان صدر امر الدولة برفع الحرب عن اللجا ، بينما تنص رواية عز الدين على ان حمد البك تحرك برجاله من تبنين بعد وقعة قدس وانه إنما قصد الاردن لتأديب الغزاة فلما انقادوا لارادته رد لهم ما نهبه منهم وبقي اياماً قليلة ثم عاد إلى

تبنين قبل ان يأتي خبر الصلح بين الدروز والدولة ؟ !

• • •

(٥) اما الذي تفردت به رواية السبيتي فهو بنصها على ان حمد البك قد فهم ان رأي والي بيروت كان مخالفاً لرئيس العساكر الشامية في حرب اللجا ، وانه لهذا بقي يتربص في معسكره على الاردن ويرسل الجواسيس ويواصل مخابراته مع الجانبين إلى ان صدر امر الدولة برفع الحرب عن اللجا ورجعت العساكر فرجع هو من الاردن إلى تبنين ؟ !

واما عز الدين فإنه لم يقل بشيء من هذا ويؤيد سكوته ومعارضته لما رواه السبيتي : ان بيروت كانت في هذا العهد متصرفية تابعة لولاية دمشق فلا يعقل ان يكون حاكمها الاداري مخالفاً لسياسة دمشق في حادث يهدد كيان الدولة ويزعزع نفوذها كهذا الحادث ؟

اضف إلى هذا كله .. اختلاف الروايتين في العبائر والصور البيانية باختلاف أثر العاطفة واثر المنطق في نفس الراوي ، فرواية السبيتي تمتاز بهذا الاندفاع العاطفي المتكلف كما ان رواية عز الدين تمتاز بهذا الهدوء الرصين الذي يفرضه الاسلوب العلمي على المتحررين من قيود السياسة ومغرياتها .

(٦) وحسب الباحثين اليوم ان يلاحظوا هذا الفرق بين النصين ليدركوا مدى تقيد المؤلف بواجبات المؤرخين الاحرار ومدى تهاونه بها ، ثم لعرفوا واجباتهم من القصد والاحتياط والحذر في الاخذ منه والاعتماد على ماينسب له من أقوال واحتمالات تتراوح بها الظنون والأوهام والعقائد :

مقدمة ديوان شبيب باشا الدبس

(٧) ومهما تختلف الآراء والأقوال بشأن هذه المقدمة وبحلها من الآثار العلمية والادبية التي يتداولها القراء والباحثون ، فهي لا تعدو ان تكون

كما يقول المؤلف « ص ١٥ من الديوان » نبذة تاريخية تحتوي ما امكن جمعه من تاريخ نسب بيته مع ترجمة بعض اسلافه » اي ترجمة الفرع الذي اختص به المؤلف من ابيه وعمه :

وان من يحيط علماً بهذه الظروف التي احاطت بالكاتب ويتصور الجو الذي كان يسيطر على افكاره اثناء كتابته لهذه النبذة وتأليفه لهذه المقدمة ثم يقرؤها بتروٍ وإمعان ، ... يدرك أي اثر للعاطفة والخيال فيما كتبه وفيما قدمه للناس من تاريخ :

فان المؤلف — كما يعلم جل معاصريه — انما كتب ما كتبه في عنفوان خصومته مع كامل بك الأسعد وفي الوقت الذي تكتلت فيه اسرته آل الصغير ، مع اكثر الامر العاملية حول خصمه ومعارض سياسته كامل بك فهو — بما يترجمه من حياة عمه وابيه وبما يصوره من تاريخ آبائه واجداده كمن يحاول ان يفند سلوك القوم معه ، وعقوق العشيرة له ، وتخاذل الطائفة عن نصرته وتأييده ، او كمن يحاول ان يبين مبلغ الاثم والخطأ في تألبهم عليه وتجاهلهم لمكان بيته ونسبه ، ومدى علمه وأدبه وما امتاز به من خصائص لم تتهيأ لغيره من منافسيه على الرياسة وجاحدي فضله ومعروفه جهلا ومكابرة وحسداً .

ولكي نتأكد من صحة هذه المزاعم التي أزعمها فأقرأ ما يقوله صفحة ٢٩٢

لخالق أوجد الاشياء من عدم ... اشكو خيانتكم لي يا ذوي رحمي
اخفيتم الغدر منكم في صدوركم ... فكان أشهر من نار على علم
فكم وفيت وبي ختم وكنت لكم ... أمين عهد بغير الحفظ لم يهم
وكم زجوت صلاحاً من سرائركم ... فكنت كالمرتجي نوراً من الظلم
فإذ قد تعودتم الغدر القبيح بلا ... داع وما الغدر من شأني ومن شيمي

كأنكم حسداً منكم على حنق ... مني طوالب ثار غير ودم
وما علي إذا لم اكترث بكم ... وعن علي ورثت الحلم من قدم
لولا شقائي بتشييدي لمجدكم ... لما ارقت بليل فيه لم انم
فكم لقيت بكم من شدة ولكم ... ألم من أجلكم بالقلب من ألم
وكم بعثت سهاداً من تخبطكم ... كخبط عشواء لي في أليل بهم

ثم انظر صفحة ٣٢٦ إلى هذا الأسلوب (العشائري) من قوله في الافتخار بنفسه وبمآثر أبيه وفي التخلص من ذلك إلى التعريض بمن يتحدى جاهه ومنزلته .. تعريضا يصور مدى الخصومة العنيفة ومدى الملاحات الشديدة فيما بينهما :

قد جرتم بعذابي عند صولتكم (١) ... كأنكم ما علمتم انني ابن جلا
وانني الأسد الضرغام والرجل الذ ... ي إذا عد كان الاصيد البطلا
وانني ابن أب كانت مآثره ... فوق الثريا وعنها قط ما نزلا
وانني ابن أب كانت مكانته ... من أجلها كان بالجوزاء منتعلا ..
وانني ابن أب كانت مناقبه ... تعدادها لو يعد الرمل ما اكتملا
وانني ابن أب نال العلى ورقي ... على الأثير بآثار له وعلا
وانني ابن أب في الدهر كان له ... أيد طوال بها كم ابرئت عللا
وانني ابن أب نجم الفخار به ... عند الكرام ليوم الحشر ما افلا
ابو السعود الذي كم عاد قاصده ... على السعادة من جدواه مشتملا
فسؤدد المرء والمجد الأثيل كذا ... وهكذا فليكن او لا يكون فلا
انا ابنه المقتفي نهجاً عليه مضى ... وغير أوصافه الغراء ما انتحلا
فيا له مفخراً ان عد في ملاء ... لم تلق فيه اخا شك به جهلا

(١) الخطاب لأحد اصدقائه

فقل لمن رام يعزو : لي معائبه ... لا برد الله من احشائك الغللا
فمت بغيظك كم من حاسد حنق ... اعاب قبلك شهماً معرقاً وقلى
وهل يلام بعيب الشمس ذو رمد ... وطيب الورد يؤذي عرفه الجعلا

اما تحديه لكامل بك أو تفنيده لمزاعمه ومقاصده فلا يمكن ان نحصيها بقصيدة او قصيدتين من شعره ، ولكنا نستطيع ان نزعم ان جل نقده له يرتكز على ما تراه – صفحة ٢٩٨ في القصيدة الميمية : وصفحة ٢١٥ في القصيدة الرائية – من معان واوصاف ومرام كان لها اثرها في الهدم والبناء السياسي يومئذ فانظر إلى قوله في الميمية :

عجبت ولست اعجب من ... على خبث السريرة مستقيم
حكى الدجال بالتزويق منه ... لخلق الواحد الأحد العليم
تراه يبث كالخناس شراً ... وكم في الناس من عقل سقيم
فويل ثم ويل ثم ويل ... بيوم غد لأفاك اثيم
ولما خال من ذا الدهر ميلا ... لمرعى منبت الاصل الوخيم
تزوا في رداه قد تبدت ... علائمه على الوجه ...
وصير نفسه علماً واضحى ... بها لاولي المساوي كالزعيم
وفي ضرر العباد له ولوع ... فيشتم الفساد من النسيم
يرى ذكر الاذى لذوي المعالي ... كنغمة عود اسحاق الندیم
يخيل للعقول تخيلات ... يخال بها كابليس الرجيم
إذا سر النهار بغير قال ... وقيل بات في ليل السليم
يطالب – للفساد – في حقوق ... بالحاح مطالبة الغريم
ويزعم انه في الجد امسى ... كحاجب اوزارة في تميم
يكلف نفسه مالیس فیها ... ويحملها على الخطب الجسيم

ويظهر ان كل الميل فيه ... لأهل المجد والخير العميم
وهل ترجى المكارم في صفات ... واخلاق من ....
وذا ما لا يكون : ومثل هذا ... طلوع الشمس في الليل البهيم

* * *

يخاصمني بلا سبب وداع ... ولست له بضد أو خصيم
ولكن حيث طينته فساد ... فليس على خصامي بالمليم
تمسك أن يمسك واستعذ من ... اذاه بسم رحمن رحيم

ثم ابحث بعد هذا شاكل هذه الاقوال والآثار ، من حياة المؤلف نفسه ومن تصريحاته السياسية وبقية منشوراته الادبية ، فانك حين تبحث ذلك وتتصور حقيقته وتقرأ ما أورده في المقدمة على ضوء هذه الحقيقة والواقع المعلوم .. لا تستطيع – مهما جهدت أو بالغت في تأويل المقاصد وتوجيه الروايات – ان تساير المؤلف في كل ما ذهب اليه من اقوال وآراء طغت على معظمها العواطف الفردية والقبلية أو ما شئت ان تعتبره من هذه العوامل التي اثرت على منطقه وتفكيره واذهلته عما يتخال بيانه من مأخذ جمة .

فانظر إلى ما يقوله العلامة الشيخ محمد علي عز الدين ص ٦٦و١٥٣ من كتابه سوق المعادن عن اختلاف علي بك الأسعد مع تامر بك الحسين ، وعن اعتقال الاول مع ابن عمه محمد بك ووفاتهما بدمشق حيث قال(١) مانصه :

وفيها – اي سنة ١٢٧٣ – رجع تامر بك إلى محله حاكماً على عادته بعد أن عزل وذهب إلى مصر ثم إلى القسطنطينية ، ولما رجع لاقاه اخوه وابناء عمه محاربين له مجردين كثيراً من أهل البلاد وجرى بينهم حرب في

(١) وقد نشر في العرفان م ١٠ ص ٧٩٩و٩٠٦و١٠٠٨

ارض الحيام ، وابل السقي ، ووقعة اخرى في تبنين ، ثم جرى الصلح ،

ثم يقول في حوادث سنة ١٢٨١هـ وفيها جاء خورشيد باشا والي بيروت إلى صيدا واعتقل رئيسي بلادنا علي بك الأسعد وابن عمه محمد بك الأسعد وأخذهما إلى بيروت ووضعهما في القشلة واغرى اهل البلاد بهما فاقاموا عليهما دعاوي كثيرة ، وبقوا في اعتقاله إلى ان عزل نحو سبعة أشهر » .

ثم يقول في حوادث سنة ١٢٨٢ : ثم فشا الوباء في الشام وبيروت وغالب البلاد وبه مات علي بك وابن عمه المذكوران بالشام وكانا قد نقلا من بيروت بعد عزل خورشيد باشا ومجيء رشدي باشا حكمداراً على بلاد الشام كلها من اللاذقية إلى غزة فأخذهما معه إلى الشام فاقاما اشهراً فحصل الوباء وكانا من أول من مات به عفا الله عنهما بمنه وكرمه ، فلعمري لقد انهد بموتهما ركن عظيم طالما كان المجد باكنافه يقيم ،

انظر هذا ثم قس عليه ما قاله الباشا في ذلك بين صفحة ١١٠ وصفحة ١١٥ من ديوانه مما لم استصوب نقله ولا اختصاره .

. . . .

الفرق بين روايتي عز الدين والاسعد

فإن بين الروايتين – كما يبدو للطالع – بوناً شاسعاً واختلافاً كبيراً لا يمكن معه ان نصدق كلا منها بكل ما اجملته او فصلته من حوادث أو بكل ما نضحت به من صور أو ذهبت اليه من اغراض . اذ لا بد أن يكون في احداهما بعض الاغراق في الحذف أو التحريف وتكبير الصور أو ان يكون في الثانية بعض المبالغة في القصد والاحتيـــاط والتحديد لمجرى الحوادث :

(١) فرواية شبيب باشا مثلا لا تعترف بأن تامر بك الحسين عاد بأمر الدولة إلى مباشرة عمله في مقاطعة هونين ، مع اصرار علي بك الأسعد على مقاومته لذلك ؟

(٢) ورواية شبيب باشا لا تشير إلى أن علي بك مع ابن عمه محمد بك ومع اخي تامر بك سلمان الحسين قد حاربوا تامر بـك الحسين في مواقع متعددة إلى ن جرى الصلح فيما بينهم ، ؟

(٣) ورواية شبيب باشا لاتشعرك بأن علي بك قد تضعضعت هيبته في النفوس عندما اعتقل حتى اقام عليه أهل البلاد دعاوي كثيرة وهو معتقل كما يستفاد من رواية عز الدين .

(٤) ثم اذا حين نرجع لتاريخ سوريا العام نرى أن الزمن الذي اعتقل به علي بك الأسعد هو عين الزمن الذي قضت فيه الدولة على النظام الاقطاعي في عموم البلاد ، مما يدل على ان اعتقال علي بك لم يكن لمساعي تامر بك ومن جاراه من المعارضين لسيامة علي بك . كما يستفاد من رواية شبيب باشا ومن جاراه في ذلك من المؤرخين

وانما كان اعتقاله لاستئصال الحكم الاقطاعي من البلاد وتوطيد النظام والاصلاح الذي حاوله العثمانيون سنة ١٨٤٢ م يوم انهى مصطفى باشا عهد الحكم الشهابي ورأى الفرصة ملائمة لتحقيق آمال الاصلاحيين بالغاء أمارة لبنان الوراثية وسد الطرق على الأوروبيين ومنع تدخلاتهم في شؤونه بواسطة امرائه وحكامه الاقطاعيين (١) : أو يوم صدر فرمان سلطاني سنة ١٨٥٦ يقضي بالغاء امتيازات الاقطاعيين وتساوي الناس جميعاً أمام القانون

تأمل هذا وأمثال هذا ثم حدث بعد عما يمكن أن تطمئن اليه أنت من

(١) تاريخ لبنان العام لأدمون بليل ص ١٧٧ – ١٨٥ :

هذه الأقوال والروايات التي حلت من هذه النبذة محل القاعدة من التمثال لتطمئن – نحن – اليهـــا ونأخذ عنها بدون تحفظ وبدون احتياط لأثر العاطفة والخيال في صياغتها وتأليفها وتداولها بين الرواة ؟ ؟

بقية المصادر

أما غير هؤلاء من المؤرخين والرواة العامليين الذين اطمأن اليهم صاحب (جبل عامل في التاريخ) فاحسب ان الكلام في جل ما رووه لا يختلف عن الكلام في هذه الشائعات من الاقوال والقصص التي عبثت بها الأيام حتى جعلتها مادة للهو والتندر إذ لا اراهم تحدثوا بما تحدثوا به الا وهم يرسفون في اغلال التقاليـد والعادات ويستوحون اعنف المؤثرات الحزبية أو القبلية أو الطائفية في تصوير ما صوروه من الحوادث والوقائع حتى التبست الحقيقة بالخيـال ولم يبق للباحثين من التاريخ سوى رموز واشارات لا تشعرك بأي احترام للواجب العلمي ولا بأي أحتياط للحقيقة والواقع وانما تشعر بأن هناك كلفاً بالاغراب أو طمعاً بالحظوة أو تهرباً من المسؤولية أو مسايرة للاجواء والظروف التي حسنت لهم ما حسنته من تلاعب بالالفاظ وتسامح في الحديث واسراف في التلوين والمغالاة :

ولو أن هؤلاء الرواة والمؤرخين حافظوا على عناصر القصة والرواية فيما حكوه وصوروه في كتابتهم ثم سموا ذلك بالاسماء التي ترضيهم أو ترضي القراء كما فعلت السيدة زينب فواز حين وضعت قصتها – حسن العواقب – لأراحوا ضميرهم واستراحوا من فضول النقاد وأنصفوا العلم والأدب بوقوفهم عند حد معلوم من كلا الطرفين ..

اما ان يبيحوا لاقلامهم والسنتهم ما يستبيحه القصاصون من التمادي في الخيال والافتراض ومن الاغراق في صوغ التاريخ على ما يرضيهم أو

يرضي فئة من الناس ثم يتنكروا جهدهم لمظاهر القصص وواجباته ؟ . . فذلك شيء لا يقره منطق العلم ولا منطق التاريخ السياسي والأدبي .

فإن المرحومة زينب فواز عندمـا اذكت الغربة في نفسها عواطف القومية والوطنية وأرادت أن تعبر عن هذه العواطف وتتغنى بمجد قومها ومحاسن وطنها لم تحاول ان تصوغ تاريخاً يرضي هذه العواطف وانما الفت قصتها الآنفة الذكر وصورت فيها الحياة السياسية – فيما مضى من تاريخ عاملة – مقترنة بانبل مظاهر المروءة والشمم والنخوة العربية، فلم تجازف بحق التاريخ كواقع وعلم ولا بحق الأدب كعاطفة وخيال ، فأدت لقومها ولوطنها بذلـك اكبر خدمة . وقدمت للأدب والفن ابرع آية على سبق الفتاة العاملية وتقدمها في عالم القصص .

هذا وما يقال في نقد المصادر العاملية يمكن أن يقال في بقية المصادر اللبنانية كتاريخ الصفدي والشهابي والدويهي والتنوخي وان تكن هذه المؤلفات في ابحاثها وتفاصيلها اقرب إلى التاريخ والابحـــاث العلمية من المصادر والمؤلفات العاملية :

(الوطن العاملي)

اقتطفنا جل هذا الفصل بتصرف كبير من مقال « بنو عاملة » المنشور في العرفان م ٣١ ص ٢١٨ ومقال « المتاولة او الشيعة في جبل عامل » المنشور في العرفان م ٢ ص ٢٣٧ : وكلا المقالين والبحثين لشهيد الواجب الوطني العلامة الامام الشيخ أحمد رضا :

بنو عاملة

قال الأمير شكيب أرسلان ان مؤرخي العرب اتفقوا على كون حمير، وكهلان، وأشعر، وعمرو، وعاملة، هم من ولد قحطان، وان أباهم هو يشجب بن يعرب بن قحطان: وان من حمير التبابعة، وبني شعبان، وقضاعة ومن كهلان، الازد، وطيء، ومذحج، وهمدان، وكندة، ومراد، وانمار، ومن كل هؤلاء بطون وأفخاذ كثيرة، وأما أشعر فهي القبيلة التي ينسب اليها ابو موسى الأشعري: وأما عمرو فمنهم لخم، وجذام، وأما عاملة، فانهم خرجوا إلى الشام ونزلوا بالقرب من دمشق بجبل عرف بجبل عاملة، ومنهم عدي بن رقاع الشاعر، وعلى هذا يكون أصل سكان هذا الجبل من عرب اليمن، وربما يكونوا نزل فيه أيضاً قوم من السكاسك، وهما قبيلتان على ما حققه ابن الجواني النسابة، الاولى من كنده والثانية من حمير وهم بنو زيد بن وائلة بن حمير ويلقب يزيد السكاسك، وكلاهما باليمن: والذي يحملني على هذا الظن وجود ارض (بل قرية) يقال لها السكسكية إلى الجنوب من الصرفند على سيف البحر:

وقد ورد ذكر جبل عامل في مواضع كثيرة، وقال البعقوبي في اعلاقه

وجبل الجليل (بالجيم) وأهلها قوم من عاملة: وقال ياقوت في معجم البلدان عند ذكر هونين بلدة في جبال عاملة، وقال عند ذكر تبنين بلدة في جبال بني عامل المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور، وورد في تاريخ ابن الأثير عند ذكر حصر الافرنج تبنين: أن الملك العزيز خرج من مصر لنجدة المسلمين في الشام. ورحل هو والعساكر إلى جبل الجيل (بالجاء) ويعرف: بجبل عاملة (١)

وقال أبو الفداء صاحب حماه في تاريخه المختصر في أخبار البشر: واما بنو عاملة فهم ايضاً من القبائل اليمانية التي خرجت إلى الشام عند سيل العرم ونزلوا بالقرب من دمشق في جبل هناك يعرف بجبل عاملة فمن عاملة عدي ابن الرقاع العاملي الشاعر، ونقل في صبح الأعشى عن الهمداني، ان بجبال عاملة من بلاد الشام منهم الجم الغفير، وفي مجمع الأمثال للميداني عن فروة بن مسيك المرادي عن رسول الله (ص) لما سأله عن سبأ أرجل أم امرأة، فقال له (ص) هو رجل ولد عشرة تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة وهم عاملة، وغسان، ولخم، وجذام اخوة عاملة: فهذا الحديث الشريف يدل على أن عاملة تشاءمت أي هاجرت إلى الشام

وقال ابن خلدون: وأما عاملة فاسمه الحرث بن عدي، وهم اخوة لخم وجذام، وانما سمي عاملة باسمه القضاعية وهم بطن متسع ومواطنهم برية الشام، وقال عند كلامه عن ملوك غسان، وكان العاشر أبو كرب النعمان بن الحارث الذي رثاه النابغة وكان منزله بالجولان من جهة دمشق ثم ملك الايهم بن جبلة بن الحارث وكان له رأي في الافساد بين القبائل حتى يفني بعضهم بعضاً كما فعل ببني جسر، وعاملة وغيرهم

(١) العرفان م ٢ ص ٤٤٧ :

ولا يخفى أن الجولان متصلة بجبال بني عاملة لايفصله عنها غير عرض مرج الحولة وهو حوالي الميل الواحد:

ويقول الهمداني في صفة جزيرة العرب « ديار عاملة مجاورة للاردن ، وجبل عامله مشرف على عكا من قبل البحر ويطل على الاردن ، ويقول أيضاً وأما عاملة فجبلها مشرف على طبريا إلى نحو البحر :

وفي هجاء بعضهم لعدي بن الرقاع العاملي ما يدل على جهة ديار عاملة في ارض الشام إذ يقول :

ولسنا نبـــالي نأي عاملة التي أجدّ بها عن أرض بصرى انحدارها

أي التي أسرع انحدارها عن أرض بصرى وجبال عاملة منحدرة عن ارض بصرى إلى الغرب حتى شاطىء البحر :

﴿ جبل عاملة ﴾

تعرف الناحية التي تدعوها بنوها عاملة من أرض الشام باسم جبل عاملة وجبل عامل : وترخيم التاء أكثر في العصور المتأخرة ، وهو اسم شائع في الأقطار الشرقية عند الشيعة الامامية في الهند وايران والعراق وبعض الحجاز ، وذلك بما كان لأهل هذا الجبل من التقدم العلمي وبما أخرج من العلماء والفقهاء على مذهب الامامية الجعفرية حتى كانت مؤلفاتهم تدرس في كل مدارس الشيعة في سائر الأقطار إلى اليوم واصبح اسم جبل عامل في سائر الأقطار رمزا عندهم للعلم والتقى

﴿ حدوده ﴾

والمستفاد من تحقيقات علماء هذه البلاد ومن توجيه نسبة العاملي عند متقدميهم لمن خرج من قرى هذه الناحية من العلماء .. أن حدود هذه

الناحية أو هـذا الجبل تبتدىء من الشمال بمصب نهر الأولي شمالي صيدا فتدخل مدينة صيدا فيه ، ثم يذهب صعداً إلى الشرق شمالي قرية البرامية ويتجاوز في خطه قرية روم من جهة الشمال إلى أن يصل إلى جزين فيضم اليها واديها وشالوفها ويقطع جبل التومات منحدراً إلى مشغرة(١) ويتصل بنهر الليطاني من شمالي سحمر ، ثم يذهب إلى أن يهبط على ينبوع النهر الحاصباني ، ويتجه عند اذن جنوبا على مجرى النهر المذكور ، فيدخل فيه جبل الظهر ومشغرة ، وعين التينة ، وميذون ، وسحمر ، وبحمر وقلية وزلايا (ولبايا) ولوسه ، من قرى البقاع الجنوبي وتدخل فيه قرى كوكبة ، وبرغز ، وسوق الخان من ناحية حاصبيا ، ثم ينتهي هذا الخط على ضفة بحيرة الحولة الغربية ، وينعطف غربا جنوبي مقام يوشع وشمالي الهراوي ، ويمتد غربا فيتبع مجرى وادي فارة وينتهي عند مصب وادي القرن جنوبي قرية البصة والزيب فتدخل فيه قرية الخالصة ، من أرض الحولة وهونين وقدس ويوشع ثم آبل القمح وصلحة ، والمالكية ، وتربيخا ، من القرى التي الحقت بفلسطين ، وتدخل فيه قرية البصة التي كانت مثار النزاع بين العامليين وحكام عكا(٢)

(١) ومما يجعل لهذا التحديد طابعه العلمي ، هو ما نقله الأب لامنس – ص ٦٣٤ من المشرق م ٣٠ عن كتاب (البلدان) ص ٣٢٧ – من قول اليعقوبي في سنة ٢٨٧هـ « كبني عاملة في جبال صيدا »

فعلى قول اليعقوبي هذا تكون اضافة البراميه : وروم ، وجزين ، ومشغره ، الى جبل عامل ادعى لتحقيق مصداقه العلمي من اضافة الحارة والمالكية ، ومارون : وشمع وامثالها من القرى العاملية إلى حدود هذا الجبل ، لأن جبال البراميه وروم وجزين حتى مشغره اقرب إلى صيدا والصق بها من تلك القرى التي لا يشك بانها من صميم جبل عامل

(٢) ومن الناس من يحدد جبل عامل ، غربا بساحل البحر بين مصب نهر الاولي ومصب نهر القرن ، وشرقاً بغرب وادي الاردن أو الحولة الشمراء مع غرب وادي التيم والغرب الجنوبي من بقـــاع العزيز ، وجنوبا بفلسطين أو نهر القرن في جنوبي البصة :

❋ مساحته ❋

يبلغ متوسط طول هذا القطر من الجنوب إلى الشمال نحو من ثمانين كيلا (كيلو متر) ومتوسط عرضه (إذا جعل منتهاه من الشرق الجنوبي ضفة بحيرة الحولة ومن الشرق الشمالي منتهى جبل الظهر) إلى ساحل البحر نحواً من أربعين كيلا، فيكون مربع المساحة نحواً من ثلاثة آلاف كيل مربع

❋ مقاطعاته ❋

وعرفت هذه البلاد في الزمن الأخير باسم بلاد بشارة منذ دخلت بلاد الشام في حوزة الترك العثمانيين ، هـــذا رأي العلامة رضا ، ولكن من يستقرىء تاريخ العامليين في القرن الثامن والتاسع للهجرة يشعر بأن هذا الاسم اطلق على هذه المنطقة من بـلاد الشام منذ سادها بنو بشارة العامليين في القرن الثامن والتاسع للهجرة كما يتضح من الكلام على بني بشارة فيما يلي من هذا الكتاب ،

وبلاد بشارة هذه تقسم إلى قسمين بلاد بشارة الجنوبية وهي لاتزال تحمل هذا الاسم ويفصلها عن الشمالية مجرى نهر الليطاني الذي يصب شمالي صور ، وكانت مقاطعاتها زمن الحكومات الاقطاعية اربع ، مقاطعة تبنين ومقاطعة هونين ، ومقاطعة قانا ، ومقاطعة معركة .

وتربيخة ، وصلحة ، وشمالا باقليم الشوفين مع اقليم الخروب والضفة الشمالية من نهر الفراديس (نهر الاولي) ومما يؤكد هذا التحديد قول العلامة ظاهر ص ٧٥٥ من العرفان م ١٣ في الحنين إلى جبل عامل وهو بعيد عنه .

لبحر الاردن القرني أصبوا ... وتجذبني لشرق البحر عنب
ومن نهر الفراديس المصفى ... لنهر القرن لي رهط وصحب
هنالك من يد الابداع يلقى ... جمـال كل قلب فيه صب

وبلاد بشارة الشمالية وهي لا تعرف اليوم بهذا الاسم ، وانما تعرف كل مقاطعة من مقاطعاتها الثلاث باسمها الخاص وهي الشقيف ، والشومر ، والتفاح ، وهنـــاك مقاطعة ثامنة تدخل في الصميم من حدود جبل عامل وتاريخه ، وهي مقاطعة جزين ، وكان حكامها من المقدمين المعروفين بمقدمي جزين الخزرجيين :

هذا عدد المقاطعات العاملية حسب الشائع عند مؤرخينا ، ولكن من يتصفح تاريخ (الحركات في لبنان) يشعر بأن هناك مقاطعة عاملية تاسعة هي مقاطعة جبل الريحان وكانت قاعدتها قرية (كفرحونة) وكان حكامها من (آل برّو) عـلى ما يتضح من مفاد هذه العبارة ، ص ١٥٠ من تاريخ الحركات « لمـــا استوطنت عشائر الدروز في بلاد الشوف واستولت عـــلى مقاطعاته ، كانت عشائر المتاولة مستوطنة اقليم جزين ومستولية عليه مع ما يتبعه من ناحيتي جبل الريحان ، واقليم التفاح ، وكانت تلك الأنحاء برمتها مأهولة بالمتاولة ، أما العشائر المتوالية فكان أعظمهـــا المقدمون الخزرجيون ، وكانت جزين قصبة لهم يملكونها ويملكون ما يجاورهـــا من القرى والضياع ، ثم المشايخ آل برّو أصحاب كفرحونة وجبل الريحان ، وهؤلاء كانوا ذوي وفر جزيـل وثروة عظيمة » ويؤيد هذا القول الأخير ما جـاء ص ٦٢ من تاريخ الصفدي عند الكلام عن مقتل حسين اليازجي سنة ١٠٢٧ هـ ، ومع التقادير صادف حسين اليازجي حين انهزامه شقيفاً كبيراً عارضه قدامة فما أمكن أن تسلكه الفرس فنزل عنها واختبى في سرية وجلس ، وجماعة الشيخ هاشم ابن برو من كفرحونة ، دايرون في الوعر على المكاسب فصدفوه فقام على حيله وركض على الشيخ هاشم فكان الشيخ هاشم اقدر منه وأقوى فقتله وقطع رأسه في نهار الجمعة ثاني شهر جماد

الأول وأخذه إلى صيدا ، ومن يلاحظ قول الصفدي «وجماعة الشيخ برّو» يشعر – على ضوء ما تقدم من رواية صاحب الحركات – أن الشيخ هاشم برو كان من قواد المعركة التي دارت بين المعنيين وبين حسين اليازجي حاكم سنجقية صفد ، وبأنه كان شيخ كفرحونة وما يليها :

بلاد المتاولة

وكما عرف جبل عامل ببلاد بشارة عرف كذلك ببلاد المتاولة منذ اطلاق هذا اللقب على شيعة هذه الديار ، وهو لقب حديث لا يتجاوز القرن الثاني عشر للهجرة ، ذلك على قول العلامة رضا ولكن من يراجع تاريخ الأزمنة للدويهي ، وتاريخ الامير فخر الدين للصفدي يبدو له أن هذا اللقب كان يطلق على العامليين منذ اوائل القرن الحادي عشر ، غير أن اللبنانيين في الشمال كانوا يقولون (متاولة) كما في تاريخ الدويهي والشهابي ، والفلسطينيين في الجنوب كانوا يقولون « بني متوالي» كما في تاريخ الصفدي ، وأما شعراء الزجل فكانوا يرددون قول (بني متوال) كما في زجلية شناعه شاعر الزيادنه: ثم يقول الجميع للمفرد من المتاولة (متوالي) :

وهذا اللقب وهذه اللفظة (متاولة) هي جمع متوالي مشتق – على غير قياس – من تولى اي اتخذ ولياً ومتبوعاً من ولائهم لأهل البيت النبوي الطاهر الذي هو الركن الركين في مذهب الشيعة ، او مشتق « على القياس» من توالى أي تتابع من تتابعهم واستوسالهم خلفاً عن سلف في موالاة آل البيت عليهم السلام

كان يطلق عليهم بعد اسم الشيعة في جبل عامل اسم العلويين منذ غشات فرقتا العلوية والعثمانية في أواخر عصر الخلفاء الراشدين واختص

اشياع علي القائلون بتفضيله باسم العلويين واشياع عثمان القائلون بتفضيله وتفضيل من تقدمه باسم العثمانيين كما انقسم المعتزلة إلى هاتين الفرقتين من بدء العصر الثاني إلى نهاية العصر السابع للهجرة

وما زال اسم العلويين في هذه الديار يرادف الشيعة حتى نسخ الأول لقب متاولة ، وحل محله :

وأول اطلاق لفظ متاولة عليهم واشتهارهم به لم يكن قبل اواخر القرن الحادي عشر حيث كانت الفوضى ضاربة اطنابها في بلاد الشام وكان كل فريق يعتمد على قوته بحيث انتشرت الحماسة الوطنية والمدحة القومية « وعلى الاصح المدحة الطائفية » فكان أبناء هذه البلاد من الشيعة يلقبون انفسهم (ببني متوال) بحيث جعلوه لقباً خاصاً لهم لما فيه من الاشارة إلى مذهبهم وكانوا في ذلك العصر يفتخرون بهذا اللقب : وشاعرهم الزجلي « أو شاعر حلفائهم الفلسطينيين » يقول من قصيدة طويلة :

لا بني متوال ظهر العاديات من ظهور الخيل يمضون الصقال
ما يفوت المير ديرتنا حرام ولو نبت من فوق طربوشو نخل

على أننا لم نجد هذا اللقب قد انتشر إلا بين الذين غامروا في لهوات الحروب في ذلك العصر وانغمسوا في تلك الفتن مثل بلاد بشارة وبلاد بعلبك وكسروان ، أما الذين لم يندمجوا في هذا السلك الأحمر كسكان دمشق منهم وأرباض حلب فلم يكن لهم من اطلاق لفظ متاولة عليهم نصيب ولا يزال إلى الآن سكان محلة الخراب والجورة منهم في دمشق يعرفون باسم الشيعة أو الرافضة كما يريد مطلق الاسم ويهديه اليه رشده وسكان محلة الصالحية منهم يعرفون بالمتاولة لأنهم من مهاجرة بعلبك وهذا برهان جلي يؤيد ما قلناه في حداثة اطلاق هذا اللقب وبيان سببه ،

عناصر المتاولة في جبل عامل

بقلم الأب لامنس اليسوعي

نقل هذا الفصل بلفظه من مقال للاب لامنس اليسوعي نشرته مجلة المشرق البيروتية (ص ٦٣٣ – ٧٧٢ م ٣٠ السنة ١٩٣٠) بعنوان العناصر الفارسية في لبنان : ثم نشرته هنا بهذا العنوان (عناصر المتاولة في جبل عامل) واضفت اليه ما ستقرأه من الملاحظات في آخر المقال(١)

هناك مشكل يعترض الباحث في الشعوب اللبنانية، وهو أصل المتاولة المستوطنين في هذه البلاد ، فإن المستشرقين لا يزالون يتجادلون في اصلهم ومصدرهم وتجادلهم في شرح اسمهم واشتقاقه . فيزعم فون اوبنهيم Von Oppenheim انهم من بقايا جماعات القرامطة الأقدمين الذين نزلوا سورية فتركوا احفادهم فيها [١] . اما كازانوفا Pol Casanova فينسبهم إلى الاسماعيليين[٢] . وهما رأيان مرجوحان نتأكد ضعفهما إذا ما انتبهنا لما اختص به القرامطة والاسماعيليون من انهم ينتسبون إلى بدع تكتنف معتقداتها الاسرار والغوامض فلا يمكن الوصول اليها إلا بالترقي في درجات متتابعة، وانهم يقفون في سلسلة ائمتهم عند الامام السابع ، بينما يرى الشيعيون الاماميين ، أو المتاولة ، يصلون إلى الامام الثاني عشر . ولهذا يدعوهم

(١) Von Oppenheim, Von Mittelmeer zum Persischen Golf, I, 132, note 2.

(٢) Revue d' Egypte, I, 443

الناس أيضاً « بالاثني عشرية » .

وقد لا حظ البعض ما يوجد بين معتقدات المتاولة ، ومعتقدات الشيعيين الفرس من الاتفاق التام، فظنوا ان أصل الشعبين واحد جارين على أثر الرحالة سيتزن Seetzen الذي جعل المتاولة يأتون من بلاد فارس[١] وانا نرى شيئاً من ذلك في كتاب تاريخ الأعيان لطنوس الشدياق فإنه في ترجمته لمشايخ الحمادية يزعم انهم جاؤوا البلاد مع قومهم من ناحية بخارى[٢] وكذلك زعم الدكتور لورته Dr. Lortet ، فإنه اكتشف مشابهات مهمة بين المتاولة والأكراد الساكنين مناطق العراق العليا، فرأى أنه «يمكن التأكيد بجرأة ان المتاولة أكراد أتوا من نواحي الحدود الفارسية في هجرة مهمة قد تكون حدثت في القرن الثالث عشر .»[٣]

على انني أخال لورته مستقياً رأيه في هذا الامر من اوانست رينان ، متوسعاً أكثر من الممكن في فكرة سحت لمؤلف «البعثة الفينيقية» فذكرها عرضاً . وذلك أن رينان ، في ذكرياته عن بلاد بشارة او الجليل الاعلى ، يؤكد انه صادف «عائلة أو عائلتين عرف فيهما ذاك العنصر الايراني (الكردي) المجيد الذي نقله صلاح الدين .»[٤] وقد تحققت أنا أيضاً وجود تقليد مشابه لهذا تتداوله بعض الاسر المتوالية الكبيرة في بلاد الجليل . فيكون رينان قد تناوله من هذا المحيط على الغالب . ومما يشير

(١) المجلد الاول من رحلته ، ص٢٤٣

(٢) طنوس الشدياق : اخبار الاعيان ، بيروت ١٨٥٩ ص ١٦٦

(٣) Dr. Loriet, la Syrie d'aujourd'hui, p. 116

(٤) Renan, Mission de Phénicie, 633, n. I

إلى هذا الزعم ايضا نص نشره كريستي[1] Christie وهو باللغة العربية العامية الجارية في بلاد الجليل العليا . ومقالة نشرها « البشير » بتاريخ ١٧ تشرين الأول ١٩٠٤ ، في وصف مأتم أحد بكرات النبطية ، يقول فيها المكاتب ان البك المذكور من سلالة صلاح الدين (٢)

وكنت أنا ذاتي قد رأيت هذا الرأي فيما مضى[2] . على انني اقر اليوم انه يظهر مرجوحاً لكونه لايعتبر الوثائق السابقة عصر الصليبيين ، كنصوص ناصري خسرو[3] والمقدسي[4] ، الناتج عنها انه كان من الشيعيين من يسكنون إذ ذاك منطقة طرابلس ، وناحية الجليل الشمالية . فضلا عن أن من ينسبون إلى صلاح الدين اسكان المتاولة في سوريه ينسون ان القائد الكردي المذكور ، الذي لاشى الخلافة الفاطمية ، ظهر في حياته وأعماله كاها عدو الشيعيين اللدود ومجدد مجد السنة . بيد ان كريستي من غير ان ينسب ادخالهم سورية إلى صلاح الدين ، يميل إلى الاعتقاد بان « أصلهم من الشرق »[5] مستنداً إلى ما يبدو في كلام متاولة الجليل من آثار اللفظ الفارسي . ولكن هذه الخصائص اللفظية يمكن شرحها على طريق ابسط . وذلك انه لا يخفى أن علماء المتاولة او مجتهديهم عمادوا

---

١) *Cf. ZDPV, XXIV, 69, 109*

– ويتبع من بعض المعلومات المأخوذة عن مشايخ المتاولة في الهبوة ، ناحية بعلبك ان المتاولة عربيو الاصل ، ما عدا متاولة بلاد بشارة فانهم من اصل كردي

٢) راجع *Lammens, Sur la frontière nord de la Terre Promise, pp.6 et 40 [extrait de la revue Les Etudes, 20 fevr. et 5 Mars 1899]*

٣) اطلب *Rolation du voyage de Nassiri Khosrau, trade. Schefer Paris 1881 P. 42,47*

٤) إطلب جغرافية المقدسي طبعة *de Goeje* ١٧٩

٥) راجع *ZDPV, XXIV, 109*

كثيراً ، في عهد الدولة الصفوية ، على استدراج الفرس الى المعتقدات الشيعية[1] . فكان لهم مع تلك البلاد المداخلات الكثيرة . ولا يزال علماؤهم حتى اليوم يذهبون من سورية إلى العراق وبلاد العجم حيث يكملون علومهم العالية وينالون شهاداتهم من المدارس الشيعية العليا في تلك البلاد . وكذلك لا يندو أن يجري عقود زواجية بين الاسر المتوالية الكبيرة والاسر الفارسية والعراقية . وعليه يكون من السهل أن نشرح آثار اللفظ الفارسي في كلام المتاولة بهذه المواصلات الدائمة . (٣)

ولكن الايمكن الأخذ بنظرية الاصل الفارسي او العراقي بأن تنسب المتاولة إلى الجماعات الفارسية التي جلاها معاوية إلى لبنان ، كما قدمنا في القسم الاول؟

لقد حللنا هذا الأمر فيما مضى[2] إذ تحققنا وجود الشيعيين في المناطق التي ذكر المقدسي اقامة « الفرس » فيها . ثم ان ناصري خسرو يؤكد أن سكان طرابلس ، كانوا في زمانه ، من الشيعيين[3] . وكذلك يدلنا التاريخ على انه قبيل الحملات الصليبية ، كان امراء طرابلس من بني عمار يؤمنون بعقائد الامامية . وحتى القرن الثالث عشر كان المشايخ الحمادية المتاولة يبطون

---

١) راجع *Strothmoun, Sl'a [Encyclop. de l'Islam, p. 369]* – وقد ذكر فيها محمداً العاملي الجزيني والصواب الجزيني . نسبة إلى جزين وهي القرية المعروفة في لبنان الجنوبي شرقي صيدا ، التي كانت في القرن الثامن الهجرة مركزاً متوالياً مهماً فكان فيها مدرسة اخرجت عدداً من العلماء (راجع في ذلك مجلة المجمع العلمي العربي ، سنة ١٩٢٩ ، ص ٢٨٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٣٠٤) اما اليوم فان سكانها جميعهم من الشيعيين

٢) راجع تشريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار ، الطبعة الأولى ، ٢ : ٤٥ و ٤٦ – واطلب ايضا : *Les Nosairis dans le Liban (extrait de la revue l'Orient chrétien, VII, 1902), p. 26*

٣) *Relation du voyage de Nassiri Khosrau, p. 42.*

حكمهم على منطقة جبيل، حيث لايزال أهل شيعتهم يسكنون إلى اليوم بعض المناطق الجبلية مع ناحية الهرمل. وهناك مدينة بعلبك وضواحيها ولايزال المتاولة فيها مراكز مهمة. وكذلك نرى جماعات من المتاولة في ضواحي بيروت، حيث كان عددهم كبيراً فيما مضى كما يذكر صالح بن يحيى (١)، وكما يستدل من انهم على عهد المماليك نالوا اعترافا رسمياً بإقامتهم في بيروت. أما ما خص منطقة صيدا المعروفة اليوم بجبل عامل (وفي الماضي بجبل عاملة) مع ما يتصل بها ضمن الحدود الفلسطينية، فإنها كانت منذ عهد المقدسي (٢) ولاتزال في عصرنا، أهم مركز للمتاولة في البلاد السورية.

على أن هناك أسبابا وجيهة تدفعنا اليوم إلى التردد في اقرار الرأي الأول، فتمنعنا عن نسبة الشيعيين المنتشرين في سورية إلى الطوارئ الفارسية القديمة التي أقامها معاوية في هذه البلاد. من ذلك انه في زمن معاوية لم تكن الشيعة قد كونت بدعة دينية مستقلة كما نراها بعد ذلك. بل كانت حزبا سياسياً يجمع رجال علي وآله من المطالبين بحق الخلافة ضد الامويين (٤). ثم ان انشاء هذا الحزب العلوي وقيادته يعود إلى العرب لاالى الفرس كما يزعم بعض المستشرقين. فإن العرب، إذ ذاك، لم يكونوا يعتبرون الفرس حتى المسلمين منهم، الا موالي ليس غيره، عليهم ان يسمعوا للعرب فيعملوا بمقرراتهم دون ان يتدخلوا بشؤونهم السياسية. يؤيد ذلك اننا إذا ما عرضنا جميع الزعماء والقواد من المدافعين عن «آل البيت» والمتفانين في خدمتهم، في تلك الحقبة لا نرى إلا العرب الخلص كالمقداد، والاشتر، وأبي ذر، وعمار، ومن على شاكلتهم ممن

١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت (طبعة الأب شيخو) الطبعة الاولى ص ٢٣١
٢) المقدسي: الكتاب المذكور، ص ١٧٩

يكثر ورود اسمائهم في الاساطير العلوية. أما إذا شئنا أن نضيف اليهم زميلا فارسياً، مهما كلف الامر، فإننا لانرى إلا المدعو سلمان الفارسي (١). وهو عبد معتق لا نعرف عنه شيئاً يستحق الذكر، هذا إن لم يكن قد اخترعه رجال الشيعة من العراقيين. وانني لأوافق في هذا الأمر، الاستاذ يوسف هوروفيتز Horovitz على حكمه البصير إذ قال: «هل وجد عبد يسمى سلمان دان بالاسلام في المدينة؟ إننا لا نستطيع أن نبرهن عن ذلك ولكننا لا نرى شيئاً يعاكس هذا الزعم.» (٢) ثم لا يخفى ان شعراء الحزب العلوي، في المئة والخمسين السنة الاولى للاسلام، أمثال كثيّر، والكميت، والسيد الحميري وكانوا جميعهم من العرب الأقحاح المتعصبين لأصلهم العربي السامي المعاكسين للشعوبية وخاصة للفرس منهم.

ومن المعلوم ان «الحمراء» الذين جلاهم معاوية إلى سورية، كانوا قد اشترطوا قبل اسلامهم (٣) الا يدخلوا في الحروب والمنازعات السياسية بين الأعراب. فكانوا لا يهتمون بهذه الانقسامات الأهلية، حتى انهم، قبل تركهم العراق، لم يميلوا لاإلى علي ولا إلى اعدائه. وإلا افترى معاوية وهو من عرفناه بالدهاء السياسي، ينقل الالوف من رجال علي، وكلهم متمرنون على الحروب إذ كانوا سابقاً من العساكر المأجورة، فيفتح لهم ابواب سورية التي عمل فيها بكل مأوتيه من مقدرة ادارية ودهاء سياسي حتى وحد النزعات حول الخلافة الاموية وأوجد الاخلاص الفعلي للاسرة المالكة؟

---

١) راجع *Lammens, La Mecque à la veille de l'hégire, p. 293-294.*
٢) *Der Islam, XII, 182*
٣) البلاذري: الكتاب المذكور، ١٦٢ و ٢٨٠ و ٣٧٦

ولنذكر الآن حادثاً ، يدل إذا ثبت ، عن انه كان في سورية رجال من « الحمراء » أو الفرس قبل أن جلاهم معاوية اليها . وتفصيل الحادث انه في السنة ٣٦ للهجرة ، أثناء الحروب بين معاوية وعلي ، كان في أحد سجون معاوية في سورية عربي منهم بالاشتراك في مقتل الخليفة عثمان ، فكان إذا من الليل العلوي . فاتفق أن هرب هذا الأسير ، فلحقه أحد حراسه وهو رجل من الفرس ، على قول الكندي [1] . ولما كان على مقربة منه أخذ الأسير يستعطفه مردداً أنه حالف النبي تحت شجرة الحديبية . فما كان من الفارسي إلا ان أجابه بأن الأشجار كثيرة في البرية ، ثم هجم عليه فقتله . فينتج ان هذا الفارسي لم يكن يمت بشيء إلى الشيعة ، بل هناك مجال للشك بانتمائه إلى الاسلام ، وهو لا يتردد في قتل رجل من أصحاب النبي .

وفضلا عن كل ما تقدم فإن سورية ظلت حتى أواخر القرن الثالث للهجرة تميل إلى الامويين وتبغض الشيعيين كل البغض حتى ان من كانت يأتيها من المحدثين كانوا يؤربون بالخسارة والفشل وبالاهانة أحيانا ، إذا أخذوا في سرد الأحاديث الشيعية . من ذلك ماجرى سنة ٩١٥ للنسائي المشهور ، مؤلف السنن ، في جامع دمشق ، إذ هجم عليه اهل المدينة ، وكادوا يقتلونه . وما كان له من ذنب إلا أنه ألف كتابا في « فضائل علي » ، ورفض الاشادة بفضائل معاوية [2] في عاصمته القديمة . (٥) وكثيراً ما كانت تبلغ الحماسة من أهل سورية فيتجيشون ويحملون اسلحتهم مستعدين لاعادة الخلافة الى العلويين ، بل لتمهيد السبيل « لقحطاني » بطلهم الوطني ،

---

١) الكندي : ولاة مصر (طبعة Guest) ص ١٩ ، السطر الاخير . اما ابن الاثير : اسد الغابة ٣ : ٣١ ، السطر ٣ فذكر : « فارس منهم »

٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ ٢ : ٢٦٧-٢٦٩

المزمع ان يعيد العرش الاموي ويرجع ذاك العصر الذهبي [1]

اما منذ القرن الرابع ، بعد أن جاهرت الشيعة بانفصالها عن السنة ، فإننا نتحقق في سورية وجود عدد كبير من البدع المنشقة عن الشيعة حتى أشدها تطرفاً كالنصيرية ، والاسماعيلية ، والدروز ، والامامية ، ولا يمكننا هنا ان نبحث عن أسباب هذه الحركة الشيعية التي تظهر اشبه برد الفعل . على اننا نرى انه كان من اللازم ان تسبق هذا العصر فتوافق ، على الاقل ، سقوط الخلافة الاموية ، لو كان في سورية ما يعززها من الجماعات الفارسية الناقلين على عهد معاوية . ولما لم يكن شيء من هذا ، وجب ، في نظرنا ، الالتجاء الى غير هذه الأسباب في تعليل وجود الشيعيين في لبنان .

وبينما نحن ننتظر نتيجة أبحاث جديدة ، لا نرى بأساً في الموافقة على ماقاله ايبرس Ebers وكوطه Guthe في الموضوع وهو : «من الممكن أن يكون المتاولة انعزلوا عن سائر سكان لبنان وانتيلبنان بسبب معتقداتهم الخاصة (٦) وانهم لا يمثلون قطعاً بقايا أمة كبيرة » [2] أما رينان فيقول : « أن لبنان قبر عالم قديم قائم بذاته تلاشى برجاله وأملاكه ... وما المتاولة والعرب ... فيه إلا من عهد حديث (٧) » [3] ولا بأس أيضاً في قبول رأي رينان بشرط أن لا نميز بين المتاولة والعرب . فإن جبل عاملة (٤) ، المدعو اليوم جبل عامل ، والقائم بين صيدا وصور حيث مركز المتاولة المهم ، يأتي

---

١) راجع *Lammens, Le Sofiani, heros national des Arabes Syriens* (*Bull. Instit. français d'orcheol. orientale, XXI, 131-144*)

٢) *Palaestina im Bild und Wort, II,35.*

٣) *Renan, Mission de Phénicie 217*

٤) المقدسي : الكتاب المذكور ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٤

اسمه من بني عاملة (١ ، وهم قبيلة من جذام . فيكون أن عقائد الشيعة الامامية أخذت ، بعد القرن الثالث الهجري ، تنتشر بين أفراد بني عاملة الذين كانوا يسكنون بلاد الجليل على قول اليعقوبي (٢ . وبكلمة أخرى يجب ان نعد بني عاملة من سلفاء متاولة لبنان .

مايلاحظه الباحثون

قبل المضي في بسط هذه الملاحظات وشرحها ارجو الانتباه إلى ان ماتضمن بحث الاب لامنس من الأرقام الموضوعة ازاء قوس واحد هو علامة لهوامش الأب لامنس واشاراته ، ثم الى ان ماوضع من الأرقام بين قوسين ... هو علامة لهذه الملاحظات التالية

(١)

.. إنني لم أنشر هذا الفصل لأميز طائفة عن طائفة في هذا الجبل ، وإنما نشرته لما يبدو للباحث من أن سكان هذه البقعة الواقعة (بين الشوف وفلسطين ووادي النيم) لم يكونوا – في عهد المعنيين ومن تقدمهم من الأمراء – إلا من صفوة المتاولة كما يتضح من قول مؤرخي الدروز ص ١٥٠ من تاريخ الحركات في لبنان « لما استوطنت عشائر الدروز في بلاد الشوف واستولت على مقاطعاتها كانت عشائر المتاولة مستوطنة إقليم جزين ومستولية

١) راجع Lammens, Califat de Yazid, 273

٢) اليعقوبي : الكتاب المذكور ، ٣٢٧ ، السطر ٢

عليه مع ما يتبعه من ناحيتي جبل الريحان وإقليم التفاح وكانت تلك الأنحاء برمتها مأهولة بالمتاولة »

أو من قول البحاثة محمد جميل بيهم ص٥٢ من كتاب الحلقة المفقودة « وفي خلال النكبة التي أصابت علي باشا جنبلاط عند لقاء السلطان فر ولده – ربع جنبلاط – واحتمى بالأمير فخر الدين بن معن صديق أبيه فأنزله الأمير (في المختارة) بلبنان ، وهذه القرية وما يليها إلى جبل عامل كانت كهذا الجبل آهلة بالطائفة الشيعية »

وقول العلامة عيسى اسكندر المعلوف ص ١٩٠ من كتاب الدواني « ان الأمير فخر الدين المعني لما حدثت الفتنة (سنة ١٦٠٩م و١٠١٨هـ) بين سكان قرية مجدل معوش ، الذين كانوا من طائفته الإسلامية وأفضى ذلك إلى بيعهم قريتهم وتركها ، اشتراها منهم ولده الأمير علي باثنين وعشرين ألف غرش وأسكن فيها النصارى فأقام فيها البطريرك يوحنا مخلوف الاهدني الماروني وبنى فيها داراً وكنيسة السيدة ، وهذا أول عهد إقليم جزين بالنصارى لأن سكانه كانوا قبل ذلك من المتاولة وغيرهم »

ولدى التفكير في قول المعلوف (وغيرهم) نرجح بأنه لم يقل هذا القول إلا على اعتبار مجدل معوش وما حولها من القرى داخلة في إقليم جزين لا في إقليم الشوف كما هو الواقع الجغرافي وكما يتضح من قول البطريرك اسطفان الدويهي ص٣٠١ من تاريخ الأزمنة « ومن كثرة المظالم التي كانت صايرة من القشلق (١) ومن الشدياق خاطر ، اضطر – البطريرك مخلوف – ان يتوجه إلى ناحية بلاد الشوف ليكون تحت حماية الأمير فخر الدين وعندما حضر على الأمير فخر الدين قبله بكل احترام ، وصدف أن قبل ذلك

« ١ » المراد هنا من القشلق الضريبة أو جبايتها

الزمان وقعت الفتنة بين المسلمين سكان قرية مجدل معوش ، وكثرت القتلى بين الجانبين حتى انهم اتفقوا على بيع القرية والخروج منها فاشتراها منهم الأمير علي بن الأمير فخر الدين باثني عشر ألف ، ودفعها للنصارى فنزل البطرك في مجدل معوش وعمر له فيها كنيسة ودار ، واستمر فيها حتى قصد زيارة القدس الشريف »

وإذا ثبت – من ذلك – أن هذه المقاطعات الثلاث (جزين وجبل الريحان والتفاح) الملابسة لحدود الشوف ، كانت برمتها مأهولة بالمتاولة وانه لم يسكنها النصارى حتى عهد الأمير فخر الدين وربع جنبلاط .. فما أحرى بقية المقاطعات العاملية بأن تكون كذلك لأن التاريخ على اختلاف ميوله – لا يشعرنا بوجود النصارى بين قرى العامليين حتى عهد الأمير يوسف شهاب ، إذ يشير الركبي إلى انتقال النصارى إلى ارميش[1] واستيطانهم فيها (سنة ١١٨١ه)

وأما بقية الطوائف اللبنانية فإنه حتى اليوم لا يوجد داخل المقاطعات العاملية قرية من الدروز أو من أهل السنة أو اليهود ما عدا بارين وما جاورها من المزارع – إلى الغرب من حدود فلسطين – فإن جل سكانها من أهل السنة ، وما خلا برغز في الحدود الشرقية من هذا الجبل فإن جل سكانها من الدروز على ما يقال ، وما سوى المطلة والمنارة وقدس وما إلى هذه من القرى التي انتقلت مؤخراً إلى أيدي اليهود بالوسائل المعلومة لدى الجميع

(٢)

لعل مبعث شك المستشرقين والسواح في عناصر متاولة جبل عامل هو

[1] الركبي ص ٢٣٦ من العرفان م ٢٧ وديوان الغطوف

ما يضطرب من أقوال الناس حول نسب العائلتين النابهتين في الأوساط العاملية واللبنانية ، عائلة عسيران ، وعائلة الصعبية

أما الاولى منهما فمن المعلوم لدى المطلعين على أخبارها منذ مئة سنة تقريباً ، انها لم تتجنس بالجنسية الايرانية لشك بأصلها العاملي ، وإنما أقدمت على ذلك طمعاً بما كان ينعم به الأجانب – في المملكة العثمانية – من امتيازات خيرة توفر لهم سبل الراحة والأمن واحترام الحقوق والمصالح والمعتقدات

وأول من فكر بهذا المرحوم الحاج حسين عسيران والد الحاج علي عسيران

...

وأما العائلة الصعبية فلا أدري من قصة انتمائها إلى الاكراد شيئاً سوى ما يروى عن بعض أبنائها وهو أشبه بالأساطير ، وقد يكون انتماء آل صعب إلى الأكراد كانتماء آل عسيران إلى الفرس إنما كان بدافع المصالح الوقتية لا بدافع الحقيقة والواقع ، وإن من يلاحظ انتقال قادة آل صعب إلى صيدا سنة ١٩٢٠ على أثر حوادث الثورة العربية في جبل عامل ضد الافرنسيين ثم يلاحظ إنكار انتسابهم آن اذن إلى الشيعة وتصريحهم أمام رجال السلطة الافرنسية وأمام غيرهم من أهل الحل والعقد بما خلاصته « انهم من السنة لا من الشيعة وانهم من الاكراد لا من العرب »

ان من يلاحظ فحوى ذلك يشك كثيراً بصحة انتمائهم إلى الاكراد ويعتبره مظهراً من مظاهر الخوف والملق لأنهم إذا كانوا في عصر النهضة والحرية قد ساغ لهم أن ينكروا طائفتهم وقومهم تهرباً من أن يناله شيء

من الضريبة الباهظة التي فرضها الافرنسيون على متاولة جبل عامل[1] فكيف كان حـــالهم في عهد الطغيان التركي يوم كانت تتوالى الضرائب والنكبات الجسام على (المتاولة) وكان التحامل على العرب عامة وعلى الشيعة منهم خاصه من أظهر مميزات العثمانيين في العسف والجور والتنكيل؟

وان من يراجع تاريخ الحوادث العامليـــة لسنة ١١٤٤هـ يرى — من تحالف الشيخ سليمان الصعبي حاكم الشقيف مع الأمير ملحم شهاب ووالي صيدا وتضامنه معهما ضد أبناء طائفته من العامليين ما يقرب ذلك الاحتمال إلى عالم الحقيقة والواقع (٢)

ومـــا يقوي الشك بنسبة الصعبية إلى الاكراد : انهم لا ينتمون إلى الاكراد العاديين وإنما ينتمون إلى صلاح الدين الأيوبي الذي عرف بمقاومته للشيعة :

وعندما نتصور أن بعض أحفـاد صلاح الدين ترك دمشق مقر امرته وطائفته ومقر الجاه والرفاهية والأمل الحلو ، وانتقل إلى أحدى المزارع العاملية النائية (كدير عجلون) ليغير لقبه ومذهبه ويعيش عيشة الشظف والقلق والاستسلام للمقادير التي هيأت لبعض أحفاده في نهاية القرن الحادي عشر للهجرة أن يلتزم مقاطعة الشقيف ويشرف على مقدراتها . . عندما نتصور هذا كله . . . ترى في هذه الأخبار والتطورات والصدف من الغرابة ما يدعو إلى الريب والشك بانسجامها مع الواقع : على أن هذه التطورات والصدف ليست من الحوادث العادية التي يسوغ للمؤرخين أن يستخفوا بها

---

(١) والى هذا يرمز شاعر النبطية الأستاذ ابراهيم فران بقوله :
في القتم م اصحابه وحاتـــه ولدى الشدائد هم من الأغبار

(٢) تاريخ الأمير حيدر شهاب ص ٢٩ وطبع مصر ص ٧٦٨

ويهملوا الاشارة إلى بعض مظاهرها : فكيف اهملت ولم يتعرض لها أحد منهم لا في دمشق ولا في جبل عامل وغيرها من البلدان السورية ؛ أو ما هو الموجب والحادث الخطير الذي قضى بتبديل لقب العائلة ونسبتها إلى الأيوبيين؟ مع أن نسبتها للأيوبيين مبعثاً للفخر وسبباً للاحترام بين الناس ووسيلة للتعاطف والتواصل والتناصر بين أبناء الاسرة الكبيرة ؟؟ في حين أن النسبة إلى صعب لا توجب شيئاً من هذا وقد تدعو إلى انكار الصلة وتجاهل الروابط الرحمية ، وخاصة ممن يطمئنون إلى جاههم وغناهم وصراحة نسبهم وصدقه كآل الأيوبي في دمشق بالنسبة لغيرهم من الأكراد الذين يدعون مثل هذه النسبة إلى صلاح الدين بدون مبرر وبدون موجب سوى استغلالها في بعض المناسبات والمآزق كما استغلها قادة الصعبية في حوادث سنة ١٩٢٠ ،

٣

من الغريب أن يزعم (كربستي) أن في كلام متاولة جبل عامل اثراً من اللفظ الفارسي مع أن لهجات العـامليين توشك أن تكون أقرب اللهجات السورية إلى الفصحى كما يتضح لكل من يخالطهم من ادباء الفصحى ولكل من يطالع كتاب (رد العامي إلى الفصيح) للعلامة رضا ، وتكاد لغة التخاطب عند علمائهم وادبائهم أن لا تختلف عن الفصحى بشيء اللهم إلا لغة من رحل منهم صغير السن إلى النجف وكربلا ثم رجع بعد أن اكتهل إلى جبل عامل متأثراً باللهجة العراقية التي تحمل في طياتها جملة من الالفاظ المحرفة عن الفارسية (١)

---

(١) راجع مقال (اللغة العربية في العراق) للاستاذ صالح الجعفري ص ٥١ من العرفان م ١٩ ،

٤

ان الميل إلى العلويين والتشيع لهم – في جبل عامل – قديم يمت إلى عهد معاوية بن ابي سفيان باقرب الأسباب كما يتضح من قول العالم البحاثة الشيخ أحمد رضا (أن أبا ذر الغفاري وهو المعروف بميله الشديد إلى الهاشميين عامة وإلى علي خاصة وقد كان ممن تخلف مع علي عن البيعة يوم السقيفة على ما رواه أبو الفداء وغيره انه – لما سير منفياً إلى الشام بأمر الخليفة عثمان بن عفان لمقالة بلغته عنه – أقام في دمشق مدة يبث دعوته لا يرهب في أمره صولة ولا يخشى قوة ولم يكن نفيه هذا ليلين من شكيمته شيئاً فكان ينشر مذهبه في العلوية وآراءه الاشتراكية من حيث عدم استئثار الاغنياء باموالهم دون الفقراء حتى استجاب له قوم في نفس الشام لايزالون ثابتي المعتقد في التشيع إلى اليوم ثم كان يخرج إلى الساحل فكان له مقام في قرية الصرفند القريبة من صيدا ومقام آخر في قرية ميس المشرفة على غور الاردن وكلتاهما من قرى جبل عامل والمقامان إلى الآن معروفان وقد اتخذا مسجدين فكان له حينئذ في هذه الديار من استجاب دعوته وهم كثيرون ، وعرفت العلوية في جبل عامل منذ ذلك الحين ، أما معاوية فقد استغاث بعثمان رضي الله عنه من ابي ذر وكتب اليه : ان أبا ذر أفسد علينا الشام فأمره يرده إلى المدينة فأرسله اليها مهانا على بعير ضالع بلاوطاء ولاغطاء بعد أن شتمه ونال منه ما اشتهى ، على ما ذكره ابن الأثير في كامله والطبري في تاريخه ، وان كرهنا أن يذكرا أسباب نفيه ، وما نسباه إلى المعتذرين من رأي أبي ذر الاشتراكي .. لايمكن التسليم به ولا هو رأيه هذا وحده بل هو أمر أهم من هذا وأعظم ، الا وهو الدعوة إلى

العلوية التي كانت تقضي على آمال معاوية كلها ويكاد يغص لذكرها بالماء الفرات (١)

٥

هل يصح للعالم الحصيف الاستدلال بمثل هذه الملاحظات والحوادث الطائشة مع أن جل المظاهر العامة في دمشق لا يمكن أن تمثل – في كل وقت – جميع النزعات المذهبية – وخاصة نزعات من كانوا يضطرون للتكتم في مذهبهم – وإلا فما زال جمهور العامة في دمشق حتى اليوم يتأثرون بما كان يتأثر به جمهور الدمشقيين في العهد الاموي مع نظاهر خمسة آلاف شيعي بين طبقاتهم المختلفة لهم مميزاتهم ومدارسهم وكتبهم وشعائرهم الخاصة ؟؟ فهل يسوغ لنا أن نجعل من اغراق الدمشقيين اليوم في التحمس القومي للأمويين .. دليلا على عدم وجود الشيعة في مدينة الشام وفي أريافها البعيدة؟؟ لمجرد العلم بأن هذا التحمس لاينسجم مع نزعاتهم المذهبية ؟؟

٦

وقريب من هذا الذي أشار اليه أبيرس ، وقوطه ، قول الأمير شكيب أرسلان ص ٤٤٩ من العرفان م (٢ ، لا جدال في كون الشيعة موجودين في الشام منذ أوائل الفتح الاسلامي ومع هذا فالمؤرخون لايذكرون هذا الأمر إلا عرضاً وربما لايذكرونه أصلا ، وربما يدل على قدمهم وتكتمهم (واعتصامهم بالتقية) كون الاسماعيلية والدروز قد خرجوا من الشيعة ، ويقال إنهم (أي الدروز) قد خرجوا من الشيعة السبعية أي القائلين بالأئمة السبعة ، وقع ذلك في أواخر القرن الرابع للهجرة واوائل القرن الخامس في أيام الدولة الفاطمية الغالية في التشيع فالشيعة كانوا في هذه الجبال

(١) العرفان م ٢ : ص ٢٣٩–٢٤٠ ،

قبل هذه الطوائف التي خرجت منهم ومنازل الفريقين لم تزل متناوحة بما يستدل به على وحدة الجرثومة فضلا عما بين كثير من عشائر الفريقين من القرابات والكلالات والانساب المتحدة في الأصل متواتراً ذلك خلفاً عن سلف يؤكد كون هذه الطوائف كلها راجعة في أصلها إلى العرب »

اماقول (قوطه) أن المتاولة لا يمثلون بقايا امة كبيرة » فلا أدري ماذا يقصد به أو بالأمة الكبيرة ؟ إذ لا ندري ان اللبنانيين كانوا في وقت من الأوقات يمثلون أمة كاملة فضلا عن أن يكونوا أمة كبيرة ؟ وتاريخ لبنان القديم والحديث لا يدلنا على شيء سوى أن اللبنانيين كانوا وما زالوا جزءاً من الامم أو الأمة التي عبرته وأقامت فيه : وحسب المتاولة في جبل عامل – فخراً أن يكونوا – بشهادة التاريخ) من الامة العربية الخالدة :

٧

لا أدري كيف غاب عن فكر (رينان) أن العروبة في لبنان الكبير بعيدة في القدم وأنها ما زالت بخصائصها الروحية ترف على ذراه وشواطئه منذ أن استوطنه عرب الفينيقيين الذين عرف العالم حضارتهم وآثارهم فيه: ذلك على ما أثبته المؤرخون والأثريون من يونان ، وانكليز ، وعرب ويرهن عليه الرحالة الفيلسوف أمين الريحاني ص ١٨٩ – ١٩٣ من كتاب ملوك العرب م ٢ الطبعة الثانية ، ثم ص ٤٦٤ من كتاب قلب لبنان :

وكذلك لا أدري كيف ساغ لفيلسوف فرنسا الكبير أن يشك بأن العرب تغلغلوا في ربوع لبنان منذ القرن الثاني قبل الميلاد يوم استطال

العرب الايطوريون في شرقه وشماله وأسسوا لهم دولة في مجدل عنجر ، وأخرى في طرابلس الشام ، ثم وقفوا لدى الغزو الروماني يدافعون عن كرامة وطنهم العربي بثمانية آلاف من صناديد فرسانهم (١)

ثم لا أدري كيف تجاهل حضرته تدفق العرب بعد الفتح الاسلامي وانسياح القبائل من عدنانية وقحطانية إلى سفوح لبنان وسروجه حتى قيل البقاع .. بقاع كلب نسبة للقبيلة المعروفة بتنصرها واتجاهاتها السياسية في عهد الامويين ، وحتى تسمت جل أراضيه وجباله ووهاده وعدد غير قليل من قراه وينابيعه وانهاره بأسماء عربية ناصعة العروبة: كما انطبعت سياسته وتقاليده بطابع العصبية القيسية واليمنية وأصبح جل اماراته وحكوماته الاقطاعية وقفاً على الاسر العربية العريقة في انتمائها إلى قحطان وعدنان كالتنوخيين والمعنيين والشهابيين والحرافشة وما إلى هؤلاء من الاسر العربية حتى في عهد المماليك وبني عثمان وما إلى هؤلاء من طغاة الأتراك الذين كان جل همهم خضد شوكة العرب والغض من قيمتهم في هذه البلاد ،

(١) أطلب خطط الشام ص ٩٥ – ٩١ م ١ : ولبنان ١٩٦ ودواني القطوف ص ٥٠ :

في سبيل التاريخ العاملي

ليس في التاريخ مكان للمجاملة ولا محل للرحمة فهو كمدسة الصور يسجل الظلال ويخلد الصور وينقل للأجيال حقيقة واقعية ومثالا محسوسا

الشاذلي : عطاء الله

قد يكون من التعصب الاقليمي – ونحن نقدر إمكانيات العامليين وظروفهم – أن نزعم أنه كان بوسعهم في أي عهد من العهود أن يشكلوا دولة مستقلة أو امارة لها سياستها وأنظمتها ومراسيمها الخاصة ، ليكون لهم من ذلك تاريخ سياسي مستقل خاص ، وإنما كل ما بوسعنا أن ندعيه ونثبته ، وهو انهم استطاعوا في بعض المناسبات ان يحتفظوا بمقاطعتهم مستقلة او شبه مستقلة لها ما للمقاطعات التابعة للايالة من التقاليد والأنظمة والخطط السياسية وعليها ما عليها من الواجبات والتبعات وامتثال الاوامر الشاهانية ؛ فسياستهم العامة إذن لم تكن تختلف عن سياسة غيرهم من ابناء المقاطعات السورية ، وتاريخهم السياسي العام انما يتمثل في تاريخ السوريين أجمع .

اما تاريخ جبل عامل الداخلي الخاص فقد يلتمس في تاريخ مدنه وقراه على هذا النمط الذي اتبعه الاستاذ الشيخ سليمان ظاهر في كتابه « معجم قرى جبل عامل » والاستاذ صاحب العرفان في كتابه (تاريخ صيدا)

ثم في ترجمة هذه الشخصيات السياسية التي كان لها شأنها وأثرها في نباهة امسه وتصريف أموره وتكييف حياته علواً وانخفاضا ترجمة علمية وافية تصور نشأة كل منهم وما قد تأثر به من ظروف وبيئات أو من احداث وتقاليد واهداف أو توضح مميزاته الذاتية وتشخص حياته الاجتماعية

والسياسية مرحلة بعد مرحلة ولا تتسامح في شيء من حسناته وسيئاته وصوابه أو خطئه ومواقفه الايجابية والسلبية وبخاصة ما يترتب عليه أثر في توجيه الرأي العام .

ثم في أن نرتب هذه الحوادث الهامة التي ألمت في البلاد وغيرت أحوالها ونفصل دقائقها ونعلل أسبابها ونصور ظروفها ونحدد ما ترتب عليها من آثار اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو أدبية صالحة كانت أو طالحة .

على أن نتحرى ذلك – مع الاطمئنان إلى كفائتنا الشخصية وإلى جهودنا في البحث والاستقصاء والتمحيص – وغارسه بدقة ولباقة وحذر من كل أثر للخوف والطمع وكل وسواس للبغض أو الحب بأي معنى من معانيه حتى حب الظهور والملق ؟

فعندما نحاول أن نبني تاريخنا على هذا الأساس ونحرر قضاياه على هذا النحو نرجو واثقين أن يكون لنا تاريخ صحيح صادق يصور ماضينا ويقوم حاضرنا ويضيء لنا الطريق بحيث نصبح كما أصبح الناس نشعر بالواجب ونقدر المسؤولية ونحسب حساب المستقبل .

* * *

وعليه فلننظر الآن في أي مرحلة نحن من هذه المراحل ؟ أما المرحلة الأولى – مرحلة تاريخ المدن والقرى – فقد قام الأستاذ العلامة الشيخ سليمان ظاهر بواجبه نحوها وبذل أقصى ما يستطاع في سبيلها من جهد وعناء فهل وجد حتى اليوم من شجع أو ساعد أو عمل على إخراج ذلك السفر القيم وطبعه ؟؟

* * *

وأما المرحلة الثانية – مرحلة ترجمة الشخصيات السياسية – فتوشك

أن تكون معدومة الوجود والأثر ، ولولا هذه الحوادث الجسام التي اتصلت بحياة بعض القادة أو شيء من المراثي والمدائح الشعرية التي لا تسمن ولا تغني في بيان الحقائق وتصويرها لأوشكنا أن نجهل أسماءهم وفي أي عصر عاشوا وماتوا كما جهلنا أسماء غيرهم من الزعماء المعارضين ، وخاصة من كان ينتمي منهم لأسر منقرضة أو غريبة أو معادية للأسرة الحاكمة ، أو ليس من المؤسف أن شخصيات لها شأنها في تاريخنا السياسي كشخصية الحاج علي منكر أحد أخصام المعنيين ، والسيد أحمد شكر المقتول في حادثة سنة ١٠٥٩ هـ والشيخ أحمد من آل الصغير المتوفى سنة ١٠٩٠هـ... لا تستطيع – إذا استقصيت ما نشره مؤرخونا – أن تعرف عن نشأتهم ومميزاتهم وحياتهم العامة والخاصة شيئاً يذكر ؟ !

وهذا كامل بك الاسعد ، وتوبته لم تكد تجف ، وتاريخه يوشك أن يكون تاريخاً لعهد حافل خطير في سياسة البلاد وتنقلها من حال إلى حال وحياته كانت نموذجاً لحياة الارستقراطية والترف في أروع مظاهرها العاملية ، هل في مؤرخينا وكتابنا من حاول أن يرسم لنا صورة صحيحة كاملة عن حياته بجميع مراحلها وأشكالها وأهدافها وأساليبها ؟؟

وهل في المطلعين على تفاصيلها والمحيطين بأسرارها من فكر بأن يصور للتاريخ فخامة مظاهره الاجتماعيـــة في الاحتفالات الشعبية وفي الميدان ومواكب الخيل العراب ، وفي رحلات الصيد والقنص ، مع بيان مبلغ دخله السنوي ونفقاته ومعدل ثروته وطرق غناه ويسره أكانت عادلة أم جائرة ؟

أو فيهم من حاول أن يحدثنا بصراحة تامة عن هذه الوسائل التي أحلته هذا المحل المرموق من نفوس العامة ، هل كانت وسائل معنوية ؟ أم نفعية ؟ أم إرهابية ؟ أم كانت مختلفة بين ذلك ؟؟ وعن هذه الأساليب التي كانت

تعزز نفوذه لدى الحكومة هل كانت إيجابية تساير الواقع وتتطور مع ظروف الحكام وأميالهم ؟ أم كانت سلبية تدور حول هدف خاص ومبادئ ثابتة ؟

ثم عن مدى اهتمامه بنشر العلم والثقافة ومبلغ اعتداده بالعلماء والادباء من أبناء طائفته وعن نسبة كرمه الانساني على المشاريع العمرانية والثقافية وما أشبه ذلك من صلة الارحام وبر المنكوبين من جيرانه وأبناء منطقته ، إلى كرمه السياسي على المـــآدب وصلات المجاملين من الحكام والمؤيدين لسياسته من العلماء ، والمقرضين لأمواله من الشعراء ، وما إلى هؤلاء وهؤلاء من حملة المباخر ، وضاربي الطبول وملاعبي القردة ؟

ثم عن سياسته الداخلية بين المعارضين والانصار مع شيء من مظاهر خصومته مع منافسيه من أعيان البلاد ، كشبيب باشا الأسعد ، ورضا بك الصلح ، وعبد الكريم الخليل ، وعن مدى هـــذه الخصومة ودواعيها ، ألاختلاف المبادئ والاهداف العليا ؟ أم لتزاحم النفوذ واختلاف المآرب الذاتية ؟ ؟

ثم عن مظاهر صداقته ومدى إخلاصه لاصحابه في الازمات والظروف العصيبة ، وعن مدار هذه الصداقة ومنشئها ، ألتناسب الاذواق والافكار والمبادئ ؟ أم لتبادل المصالح والمجاملات ، وتقارب الاهواء والاغراض الشخصية ؟ كما هو حال الخصومة والصداقة اليوم بين ساسة الجنوب وزعمائه ؟؟

ثم بعد عن حقيقة أهدافه وسياسته العامة ، وحقيقة موقفه من حزب الحرية والائتلاف ، وعن سياسته في عهد جمـــال باشا وجمعية الاتحاد والترقي ، وسياسته في عهد فيصل الاول وموقفه من الثورة العامليه ضد الافرنسيين ، مع تصوير شيء من دواعي التجائه إلى فلسطين يومئذ ، أو من مبررات هذا الالتجاء ، ثم أثره على نفسه وتفكيره السياسي ، ثم عن

وسائل عودته إلى وطنه بعد أن ساء ظن الافرنسيين به ، وعن سياسته بعد ذلك في عهد فورو ، وتوابو وفيغان ؟

وكذلك هل في الباحثين اليوم من تساءل عن الآثار التي تركها بعد موته من إصلاحية ، واجتماعية وسياسية ، أو من تمادى فمحص وعدد ما قد حمد عليه ، أو أخذ به من أقوال وأعمال ومواقف سلبية كانت أو إيجابية؟ أم اكتفوا عن هذا كله بشيء من المراثي والمدائح أو ما أشبه ذلك من التراجم التي يألفها السمع ويستسيغها العرف ولا يطمئن إليها الفكر الوثاب والمنطق الحرحين يحاول أن يجعل من التاريخ علماً له مقاييسه وأدلته لا قصيدة تعبث بها الاخيلة والعواطف ، وحين يرجو ان يجد في هذه المراثي والتراجم صورة صحيحة واضحة لحياة المترجم وحياة عصره الحافل بالاحداث والمفاجآت ، والمفارقات العنيفة .

* * *

وإذا كانت هذه حالنا من تراجم الموتى فكيف بنا إذا حاولنا أن نترجم الأحياء من الزعماء وان نقص من أخبارهم ما يرضي ويعجب وما لا يرضي ولا يعجب ، أو إذا اقتضانا الواجب ان نهبط إلى مواضع الاسرار من مواقفهم المريبة حقاً بين السياسة العربية والافرنسية والانكليزية في عهدي الانتداب والاستقلال ، أو نتخطى مكان الريب — من تناقض سياستهم في عهد أميل اده وعهد الشيخ بشاره — إلى اضطراب حالهم ، ومقالهم ، واعمالهم اليوم بين داعي الاصلاح والوطنية ودواعي الانانيه والنفعية وذر الرماد في عيون الحاسدين والمشككين بنزاهتهم وكفاءتهم وتضحياتهم الكبرى؟؟

اترانا عندئذ نصطنع الجد والوقار ونقول كل ما نعتقد انه حق وانه واقع ارضاءً للتاريخ وارضاءً للواجب العلمي ، أم ترانا نسترسل في عبثنا

ونقول شيئاً ونتأول شيئاً ، أو نزيد في أشياء وأشياء ونسكت عن اشياء واشياء كما كان يحلو لبعض القراء وبعض المؤرخين وبعض من يتحمسون لطائفتهم ولاقليمهم تحمساً ، يسيء إلى التاريخ كعلم لا يتأثر بالعاطفة وكواقع لا يعبث به الخيال ويجني على القومية والوطنية كوحدة وائتلاف واخلاص في العقيدة والعمل لمصلحة الجميع دون تفريق بين اقليم واقليم وبين طائفة وطائفة أو عشيرة وعشيرة .

فما السر في هذا الاضطراب يا سادتي ؟؟ أشك في مصادرنا التاريخية ؟ أو شك في امكانياتنا الادبية ؟ ام شك في قيمة الموضوع واثر التوسع في بحثه على هذا النحو من الدقة والصراحة ؟ ام تحرج من الكتاب وخوف من غفلة المجتمع ويأس من تقديره لحرية الفكر حين تفرض على المؤرخ ان يكون نزيهاً مخلصاً لوجدانه ولموضوعه ولواجبه في ابراز كل ما يصادفه من حقائق واباطيل وفي تسجيل كل ما يراه من حسنات وسيئات بأدق ما يكون من صورها واصدق ما يكون من مظاهرها مهما ترتب على ذلك من نتائج ومهما انتهى اليه من قسوة الحكم ومرارة الواقع ؟؟ .

ثم ألا يكون ابلغ في الدلالة على اعتدادنا بأنفسنا ، واعتزازنا بماضينا ان يحرر تاريخنا بكل ما يقتضيه التحرر من صراحة وامانة ودقة . . الا يكون خيراً لنا ولأدبنا ان يصور ماضينا بكل ما ينطوي عليه من حسنات وسيئات وبكل ما يشوبه من اخطاء وهنات . . . من ان نتراثى في ادبنا وننحرف بالتاريخ إلى ما يرضي ميولنا الخاصة او ميول فئة من الناس ؟ ثم تكون النتيجة بعد ذلك ان يقال عنا وعن ادبنا ما يقوله مؤلفو كتاب (ولاية بيروت) بين صفحة ٣١٥ وصفحة ٣١٧ من الكتاب اذ يقولون تحت عنوان « ادبيات المناولة » ما نصه : « لا يخفى ان منطقة

صيدا وصور ومرجعيون جبلية على قدر الإمكان ويسكن فيها خاصة نحو من مئة الف (متوالي) ولا شبهة ان الوصف المعتبر لهذه المنطقة التي تسمى (جبل عامل) هو الشيعية ومن الحقائق الواضحة ان هذه الكتلة البشرية المحاطة من جميع اطرافها بالسنيين والموسويين وبالمسيحيين قد بذلت غاية جهدها واهتمامها سنين طويلة منذ عصور بعيدة حتى حافظت على كيانها بأي صورة ،

ومع هذا فإن جميع هذه المساعي والأعمال مترتبة على رجال الدين لأن الغاية المتبعة بين سكان جبل عامل هي « المحافظة على كيان الدين » ولا يمكن الحصول على ذلك طبعا إلا بإرشاد رجال الدين وتعليمهم ، ومن الجهة الأخرى فإن بكوات المتاولة وأرباب النفوذ فيهم لا يحبون التجاوز عن سلطتهم ونفوذهم الذي ورثوه عن أسلافهم . إذن كيف يمكن تشتت هذه الكتلة البشرية المجتمعة تحت عنوان (متوالي)؟ وماذا يجب عليهم ان يعملوا حينئذ؟ وكيف يعيشون بل كيف يُفهمون للخلق نفوذهم ؟ ولهذا فقد اصبح من البديهي التفاف هؤلاء البكوات قبل كل شيء حول العلماء وإظهارهم لهم حرمة ورعاية أكثر من اللزوم وإدلائهم اليهم بالعطايا حتى استجلبوهم نحوهم ، وهم لا يزالون يعملون كذلك وهذا هو السر والحكمة بإحراز المجتهدين بين المتاولة هذا النفوذ والاعتبار ، ولا ريب أن لهذه القيافات العلمية التي ينحني أمامها المتاولة حتى البكوات ويقبلون أيديها ويقدسونها — منزلة عالية — وهكذا يضطر الأهلون للاعتقاد كذلك

يخضع البكوات والرؤساء للعلماء والمجتهدين ويركعون امامهم احتراماً وتعظيما ، ولكن لا تنسى أن الحرمة بالمقابلة ، ومادام سيد (بك) مائة الف من البشر يجبرهم ويعظمهم هذا القدر فقد وجب على العلماء أن يؤدوا

فائض الشكر لما أدانهم اياه البكوات ، ولهذا لا تنفك تسمع من أفواه العلماء نغمات التثبيت والتأييد لنفوذ العظماء منتهزين فرصة القاء التعاليم الشيعية على الأهلين حتى أصبح العلماء مداحين سيارين ذوي نفوذ لبكوات الشيعة . ويعرف من هذا مزية الدروس التي تلقى في المدارس وماذا تكون ؟ ومهما تكن فلا تتجاوز حدود تعاليم القواعد الشيعية .

إن البكوات يسرون من هذه الحطط والأصول ، نعم إن رؤساء المتاولة منحطون في مواقعهم الاجتماعية من حيث العلم ، ولكن لا أهمية لذلك مطلقاً فإن الكتلة البشرية التي يحكمون عليها هي أحط منهم وأكثر ظلاماً بمئات من الدرجات ، وبناء على هذا فإنهم لا يخشون هذه الجهة ، وباعتبار العلم فإن العلماء هم أتباع لهؤلاء أيضاً نوعاً ما .

وإذا عرفنا أن الرؤساء يستفيدون من طبقة العلماء على هذا الوجه بكل معنى الكلمة عوضاً عن ان يخشوا منهم ، لا يبقى عندنا شك بأن الحبائل التي تنصب لهذه الكتلة من العوام البالغة نحو مائة الف تتم وتظهر حيز الوجود بدون شريك ولا رقيب

ويعرف بسهولة جداً الأشياء التي تنتفع لهـا قلوب هذه الطبقة من الأهالي القائمة بين انحصار علمي شديد من جهة ونفوذ شديد من جهة أخرى فهم يحبون أن تكون لهم مؤلفات تصف ببلاغة عظمة الحق تعالى وقداسة الأئمة الاثني عشر وترحب بقدوم المهدي المنتظر ، وتتغنى بمدائح بكواتهم ، وتعلي قدر الشرع وخصوصاً شريعتهم ولا يقوم بهذه الأعمال من بينهم سوى طبقة العلماء ، وهذه هي الغاية التي يسعى اليها علماء الشيعة بل ليس لهم صنعة سواها فإذا كسدت هذه الصناعة لا يمكنهم أن يجدوا حينئذ شيئاً من النفوذ الذي نالوه لدى البكوات بل انهم يفقدون أيضاً

مقامهم العالي بين الامة ، وبناء على هـذا فإن ما يكتبه هؤلاء لا يتعدى حدود هذه الدائرة على أنه لا يوجد غيرهم من يقدر على الكتابة .

وهل يجد البكوات مؤلفات وآثاراتضرب لهم على وتر النقطه الحساسة من غايتهم أفضل من هذه الآثار؟ ولا ريب أن العلماء الذين يضعون أمثال هذه المؤلفات النفيسة وهم يقصدون المنفعه العامة لايضيع عليهم شيء من عواطف البكوات واحساناتهم التي تملأ الأكف ولا ريب أن أولئك يثابرون على هذه الخطة غير ناظرين إلى مزية التأليف وقدرها

ولهذه الأسباب فان أدبيات جبل عامل المحكومة بهذه العوامل والمؤثرات هي عبارة عن أدبيات (شيخ) وعن أدبيات شريعة .

وبعد أن يعدد المؤلفون أدوار الأدب العاملي ويسمون العلماء والادباء النابهين من العامليين بأسمائهم يقولون ص ٣٢٠ من الكتاب .

ولما كانت هذه الآثار – العاملية – مبنية على مقاصد خصوصية وقد جعلت خطابا لأشخاص مخصوصين كما أشرنا إلى ذلك قبلا ، فقد أصبح تأثيرها على طول الأزمان في منزلة الصفر ، ولهذا يقضي الواجب الأدبي بعدم الاهتمام بهذه الآثار التي يلهج بها المتاولة في محيط جبل عامل ويدعون انها الأدبيات الشيعية والأدبيات المتوالية ، بل يقتضي بأن تقابل باستهزاء أدبي .

* * *

وأما المرحلة الثالثة – مرحلة تأويخ الحوادث – فما زالت البقية الباقية من موادها الخام موزعة بين هـذه الأقوال والحكايات التي يلهج بها المتقاعدون من أبناء الذوات قتلا للوقت وتعزية للنفس وبعثاً للأحلام والاماني الاوستقراطية ، وبين هذه النصوص والوثائق الغامضة المشوشة كمذكرات الركيني ، وكتاب السبيتي ، ومقدمة ديوان شبيب باشا ، او

هذه الابحاث الجديدة التي نشرها الاساتذة رضا وظاهر وجابر في العرفان ، ثم جاء مؤلف كتاب – جبل عامل في التاريخ – وحاول أن يتوسع بهذه الآثار كلها ، ويحرر منها أو من بعضها على الأصح تاريخاً جامعاً يرضي ويغني ويفيد ، فخطا بالتاريخ العاملي خطوة طريفة ممتعة يهتز لها القلب سروراً وتبتهج النفس إكباراً ، ولكنها على طرافتها ومتعتها لاتزال بحاجة إلى مايرضي العلم ويسدد المنطق ويغني الباحث الطموح من ترتيب وتمحيص وجهد بالغ في البحث عن الحقيقة والواقع أو عن هذه الحلقات المفقودة في تاريخنا .

فالترتيب ما زال متأثراً بأسلوب هؤلاء الذين يشوشون سلسلة الحوادث بالتعليقات الحماسية ويقطعون سياق الحديث بالاستطراد إلى ذكر أشياء خارجة عما تقتضيه مجاري الكلام واهداف البحث الرئيسية .

فانظر مثلا إلى قول المؤلف بين ص ١٧ و١٩ في تطور السياسة الأموية والعباسية ومآلها ثم إلى ما أشبه ذلك من الاستطرادات القلقه وإلى مايقرره بين ص ١١٦ و١١٨ في تحليل زجلية شناعة وتجسيم معانيها كأنها هي نص علمي لا يجوز الشك فيه ؟ فانظر أي مقتض لذلك وما عسى أن تكون نسبته إلى منطق التاريخ وواقع الحوادث العاملية ؟ والنقد التاريخي الحديث لا يقبل روايات الشعراء المعاصرين إلا إذا توافر معها من شهادات غيرهم ما يزكيها فيعزز ما انطرت عليه من حقيقة ويزيل عنها صبغتها الشعرية الخيالية من حيث التطرف في المدح والافراط في الاطناب والاقتصار على ذلك في غالب الأحيان (١) فكيف بهذا الشعر إذا كان زجلا يزوح بتقاليد الزجالين وإسرافهم في تكبير الصور أو افتراضها لكل ممدوح ولكل مذموم مهما كان واقع أمره .

(١) تاريخ الأمير حيدر صفحة (ب) من مقدمة رستم والبستاني

وأما التمحيص فأخاله لم يجر فيـــه على ما تفرضه – أصول الأبحاث التاريخية – من تعديد المصادر والوثائق وتمييز أنواعها ونقدها نقداً علمياً يصور القيم الذاتية لكل مصدر ويعرب عن مدى الاطمئنان إلى مفاده وصحته وتجرده من المبالغة والامعان في تلوين الحوادث وتأويل الحقائق وتوجيه النصوص والأقوال إلى نتيجة غير نتيجتها الطبيعية .. وعندما نرجع إلى ما يقوله المؤلف بين ص ٥٩ و٦١ نضطر إلى الشك كثيراً في هذه التمحيصات وهذه الافتراضات والأحكام المرسلة التي لا تنسجم بحال مع الواقع ، والتي يتورط المؤلف كثيراً في أمثالها حتى أوشكت أن تستغرق قسماً كبيراً من الكتاب .

وأما الجهد في البحث عن الحقيقة فأحسب ان المؤلف لم يستقص بجهده من المصادر التاريخية التي لها أثرها في توضيح الحوادث السياسية والوقائع العاملية ما يسد حاجة الباحث إلى قدر من الظن والقطع واليقين فإنه أهمل كثيراً مما هياه له تراوح الاقامة بين حاضرتين علميتين تضم مكاتبهما الكبرى من المصادر التاريخية جل ما يحتاج إليه الباحثون في تاريخ سورية وملحقاتها من المدن والاقاليم ، فلا تراه درس عهد ناصيف النصار على ضوء تاريخ عثمان باشا الصادق وتاريخ فلسطين الاقطاعي وتاريخ ظاهر العمر وامثاله من الحكام الذين عاصروا ناصيف

ولا عهد (الطواح) بعد ناصيف على قبس من تاريخ احمد باشا الجزار وتاريخ ولاية سليمان باشا :

ولا عهد حمد البك على هدى من تاريخ ابراهيم باشا كما وصفه سليمان بك أبي عز الدين ، واسد رستم ، ونوفل نوفل في كتبهم وتواريخهم لهذا العهد

ولا عهد علي بك ومحمد بك الاسعد وقامر بك الحسين على ضوء : الوثائق

البطريركيه المارونيه في بكركي: وتاريخ الحركات في لبنان : لابي شقراء والمحررات السياسية والمفاوضات الدوليـــة : تعريب الخازنيين ، ونوادر الزمان في وقائع جبل لبنان لاسكندر ابكاريوس ،

ولا تراه محص رواية الأمير حيدر شهاب ، على قبس من تاريخ الجبرتي ، واخبار الأعيان في لبنان: لطنوس يوسف الشدياق ، ومشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، لميخائيل مشاقه ، والساق على الساق : لاحمد فارس الشدياق ، وامثالها من التواريخ والكتب التي استقلت بروايتها عن تاريخ الشهابي وعارضته ،

ولا تأثر في ابحاثه واساليبه العلمية بمقدمة الاصول العربيـة في تاريخ سورية : ولا بكتاب الاسلوب العلمي في التاريخ لمؤلفها الاستاذ اسدرستم :

أو استرشد بمرجع من هذه المراجع والكتب التي حرص مؤلفوها على تسجيل كل ما ألموا به من تاريخ سورية ولبنان في العهد التركي: كتواريخ: جودت باشا : وميخائيل بريك ، ورفائيل كرامة ، وميخائيل الدمشقي ، والمطران الدبس ، وجرجي بني : وحنا نيا المنبر : وانطنيوس العنطوري وقسطنطين طرابلسي ، والأب لامرتين اليسوعي ، والاب يوسف المعلوف ، إلى غير ذلك من التواريخ والمذكرات والابحاث التي لا يتهيأ لمثلي – من المنكوبين باحلامهم الصحية والاقتصادية والاجتماعية ، والمحرومين من مجاورة المكاتب الكبرى – أن يصل إلى شيء منها وهو في غياهب القرية يقاسي ما يقاسي من الم الوحشة والم اليأس والم التمني :

كما ان المؤلف – مع علمه بان المؤرخين حين يكونون بصدد تاريخ ما تقدم عصورهم ونشأتهم من الحوادث والحالات والشخصيات . لا يجوز لهم ان يعتمدوا على مجرد ما اعتمدوا عليه في تاريخ عصرهم ونشأتهم من

وحي الاحساس والعقل والضمير : بل لا بد لهم مع ذلك من مصادر واقية ومراجع موثوقة تحيطهم علماً بكل ما يحاولون تسجيله من ماضي الحوادث والحالات والأشخاص، ومع تقديره لكل هذا لم يستنر بشيء من الموسوعات التاريخية الحديثة « كخطط الشام » للاستاذ محمد كرد علي : و (لبنان) لنخبة من أدبائه ومؤرخيه ، ولا بشيء من الابحاث النفسية والاخلاقية والاجتماعية يعزز بهـــا حكمه ويدعم حجته ويذكي بيانه عن اثر العادات والانظمة والتقاليد الاقطاعية في تاريخنا السياسي والاقتصادي والأدبي : ولا استوحى شيئا من تراجم قادة الفكر وساسة العرب في العهد التركي كالريحانة للخفاجي : وتراجم الأعيان للبوريني : وخلاصة الأثر للمحبي ، وسلك الدرر للمرادي يفصح به عن .. أساليب السياسة في لبنان وما يليه من المقاطعات ، أو يستشف أسرار الحوادث والفتن الكبرى التي حاول المؤلف أن يحصيها ويجلوها بكتابه .

فلو أن المؤلف أدى بكتابه الموضوع حقه من الترتيب ، والتمحيص والجهد في البحث عن مصادر أحكامه وأقواله . لما وقع فيما وقع فيه من إفراط وتفريط . ولما كثر تساؤل القراء عما يريده ، أو تمادوا في الاعتراض على ما يقول ، او اتسع شكهم فيما انتهى إليه من نتيجة وحكم ، حتى تعددت المآخذ واضطربت الأعذار ، والتجأنا إلى الخوض فيما خاض من أبحاث وأفكار وموضوعات .

تتمة وجواب

ليس في التاريخ مكان للمجاملة ولا محل للوجاهة وإنما هو كمدسة المصور يسجل الظلال ويخلد الصور

عندما كتبت ذلك الفصل العابر « في سبيل التاريخ العاملي » وتساءلت فيه عما صوره الادباء والمؤرخون من حيـــاة كامل بك الأسعد السياسية والاجتماعية ، توسلت إلى بعض الأصدقاء النابهين – ممن عاصروا كامل بك واتصلوا باصحابه وذويه وعرفوا الكثير من اسرار حياته السياسية والنفسية والاجتماعية – ان يمدنا بحديث صريح عما يعرفه من ذلك يقوم مقام الجواب على مواضع الاستفهام من ذلك الفصل المتقدم فتفضل علينا – بعد الحذر والتردد – بخلاصة الجواب التالي الذي صغته باسلوبي وأفرغته على ما يناسب الفصل من بيان ، منبهاً اياي إلى ان هذا الموضوع الحساس من المواضيع التي لا يشكر فيها المرء الا على المبالغة في الاطراء . وقد يحاسب على الصدق فيما عدا ذلك ، لهذا يرجوان اعفيه من ثقتي باخلاصه للحقائق التاريخية ومن حسن ظني بصراحته التامة ، فان ظروفه وأحواله لا تشجع على التبسط فيما لا يطمئن الى اهميته واثره التوجيهي ، وكل ما باستطاعته ان يفوه به ويجيب عليه هو :

التصريح بأن المرحوم كامل بك « كان لا يختلف عن غيره ممن نشأوا نشأة اقطاعية مترفة جعلتهم يستمدون معظم آرائهم وافكارهم واساليبهم السياسية والاجتماعية من وحي الأوساط والازمات التي سايرتهم اوجابهتهم ومن إلهام العادات والتقاليد التي فطر عليها الآباء والأجداد في كسب الجاه

وانماء الثروة واستهواء المؤيدين وارهاب المعارضين وتكثير الأولياء طوعا أو كرها ، . اضف إلى هذا انه كان ذكي القلب ذلق اللسان بهي الطلعة يأخذك بحسن استقباله وحسن حديثه وبراعته في مسايرة العادات والتقاليد المرعية لدى كل طبقة من طبقات الشعب ، ثم يبهرك بسخاء الموائد وادب الضيافة ولطف الاحتيال لغايته وغرضه : فهو — وان لم يتمتع بصلاحية الاقطاعيين الأولين — قد استطاع بما اوتيه من لباقة التصرف وبما ساعده من اوضاع المحيط وتواكله ومن ضعف الجهاز الاداري والأنظمة المتبعة ان يبلور أساليبهم وعاداتهم حسب الظروف وان يستغلها احسن استغلال لما يهمه من مظاهر الحياة

ولهذا استطيع ان اقول ان كامل بك كان قدوة الزعماء العاملين في كل ما اشرت اليه : ثم قدوتهم في غير ذلك من الامور كالاسراف في اللهو البريء واستباحة ما لا يباح من الوسائل والأساليب الرجعية التي تبررها العادات والتقاليد الاقطاعية لتحقيق أي غرض حزبي وأي مأرب شخصي وان تكن هذه الوسائل والأساليب يعرف امثالك وامثالي من المنكرات (إحم) .

اما مظاهر خصومته وصداقته وسياسته العليـــا . فبامكان مثلك ان يستوحيها من مطالعة المذكرات السياسية والتاريخية كمذكرات جمال باشا ومذكرات الشيخ احمد رضا ، وقصائد شبيب باشا وخاصة ملحمته (نفثة مصدور في دعاوى اهل البطل والزور) التي تستعرض جل مظاهر الخصومة بينه وبين كامل بـــك : مع قراءة ما يحصل لديك من مذكرات الأدباء والساسة الذين عاصروه والموا بتاريخ حياته ، فانك إذ تضيف ما تقرأه من ذلك إلى ما قد سمعته ووعيته من احوال وسير تستطيع ان تركن إلى

انه كان متطرفا في خصومته يستبيح كل وسيلة تمكنه من اخصامه ومعاوضيه والى ان صداقته كانت — في جل مظاهرهـا ومراحلها — صداقة سياسية تدور وجوداً وعدماً مدار تأييد المطامح ، واطواء المظاهر ، والاعتراف له بالمكان الأول بين الزعماء العاملين ، وهناك وقائع عديدة لتبرير هذه المزاعم بامكانك ان تستشهد بها إذا كنت حراً !! أو كنت — كما تزعم — على استعداد للصراحة بكل ما هو حق للمؤرخين ؟ !

اما سياسته العامة أو العليا — على حد قولك — فقد كانت كسياسة غيره من الزعماء الاقطاعيين في كل بلد . . تتركز في جل وسائلها على احترام القوة الحاكمة مهما يكن مصدرها وطنياً أو اجنبياً ، وعلى مسايرة اهدافها مهما تكن جائرة أو عادلة ، ولعله كان من المعجبين بقول من سبقه إلى العمل بنص هذا البيت :

ذر الأتراك والعربا وكن في حزب من غلبا

فسياسته في عهد جمال باشا السفاح كانت تركية تقول بكل ما يقوله حكام الأتراك حتى انه انفصل — لذلك — عن حزب الحرية والائتلاف حين شعر بتقاص نفوذ هذا الحزب وانضم إلى جمعية الاتحاد والترقي (١) عندما رآها تمتد بنفوذها وتسيطر على مقدرات الحكم ،

وسياسته في عهد فيصل الأول بسورية كانت عربية الوجـــه واليد واللسان تقول بكل ما يقوله أحرار العرب يوم ذاك وتتغنى بما يتغنون به

---

(١) كان حزب الحرية والائتلاف ينزع إلى انصاف العرب ومساواة الشعوب العثمانية في الحقوق ، وكانت جمعية الاتحاد والترقي ، تهدف وتعمل على تتريك الشعوب العثمانية ، واضطهاد العرب ، كما يستفاد من كتـــاب خطط الشام ، ومن قول جمال باشا الصغير في كتابه « كيف جنت القوات العثمانية عن بلاد العرب ومذكرات الملك عبد الله بن الحسين

من أهداف ومبادىء ، وعندما اضطربت الاحوال والأغراض بين قادة الثورة العربية في جبل عامل وقادة الافرنسيين في لبنان أخذ يساير قادة الثورة من جهة وقـــادة الافرنسيين من جهة . حتى إذا تحرجت الامور واختلت الموازنة وخاف ان يكون مسؤولا من قبل الافرنسيين إذا هو أيد الثوار عملياً ، وأن يكون مسؤولا من قبل العرب إذا هو تظاهر مع الافرنسيين .. انسل مع رهطه خفية إلى سورية . وفلسطين وظل هناك يراقب سير الامور عن كثب إلى أن هدأت الأحوال في منطقة الانتداب الافرنسي وتمكن الافرنسيين من تركيز سياستهم الاستعمارية فرجع إلى البلاد يعتذر للمفوض الافرنسي بأعذار لا تتفق مع الايمـــان بالواجبات القومية والوطنية ، ثم قضى بقيـة عمره يقول بقول غورو وترابو وفيغان وينهى عما نهوا عنه ،

ولعل خير ما كان يؤثر عنه ويتار به ، الشهامة وعزة النفس والترفع عن كل ما يشين سمعته من مباذل وشهوات رخيصة مع حبه للكرم وارتياحه للاناقة والفخامة في كل مظهر من مظاهر الحياة البيتية والاجتماعية ، وبذله اقصى ما في وسعه من وقت وجهد ومال على تمثيل الأمارات العربية في مواكب صيدها ومواكب خيلها ولهوها في حلبات الميدان ومظاهر الفروسية ،

ثم تقديره للمجالس الأدبية وطربه للنكتة — على أن لاتمس شخصه من قريب أو بعيد — وتذوقه للشعر المألوف لأبناء جيله ، وربما شارك بنظم البيت والبيتين : كقوله في ذم الأتراك :

خلا خير في أقوام (لا) خيرُ عندهم ولا بين في أقوام (ميسونهم) قرد

وقوله في تاريخ زيارة الجنرال (غورو) النبطية سنة ١٩٢٠ وكان في استقباله:

ويوم كالـــه ظلم نأى عن وجهه النور
بـــه للشؤم تاريخ كيوم جاءهم غورو

أما أشد ما يؤخذ به ويحاسب عليه من قبل العامليين ، فهو تآمره مع قوى الأمن وإيقاعه بضيفه ونزيل بيته « غمر الفاعور » مسايرة لرغبة الحكومة وأملا بتحقيق وعدها بمديرية النبطية يوم ذلك .. على ما كان من اعتزاز تمر بـــه ، ومن مغامراته في تنفيذ رغائبه ، ومن اطمأنانه إلى صادق عطفه وحميته ، ثم إيغاره لصدر جمال باشا السفاح على عبد الكريم الخليل ورضا بك الصلح وتنبيهه لخطر سياستهما التحررية على الكيان التركي في سورية — كما يتضح من حديث جمال باشا عن ذلك ، ومن تاريخ المقدورات السياسية في عهد الأتراك ، ومن لهجة كل من ألم بحديث المعتقلين في عاليه ،

ثم انصرافه عن السعي الجدي لتحقيق مشروع الكلية انصياعاً إلى آراء مستشاريه الأدنين الذين كانوا يتنكرون للفئات المتعلمة ولا يحبون أن تشيع الثقافة بين أبناء منطقتهم لتبقى لهم سلطة الاقطاعي على قومه الغافلين .. مع أن الذين سعوا وأفلحوا بعده في انشاء الكلية العاملية ، والكلية الجعفرية لم يتهيأ لهم — يوم بدأوا في أعمالهم الخالدة — ما قد تهيأ له من اندفاع الرأي العام نحوه وتأثره بكل ما كان يقول ، أو يحاول ، أو يفعل:

بنو بشارة العامليين

او الحلقة المفقودة في تاريخنا

لا أدري ما الذي فرض على مؤرخي جبل عامل أن يقفوا بما سجلوه من تاريخ بلادهم عند الاسر الاقطاعية التي نجمت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة ؟ أهو الحاجة الى الاطلاع والاستقصاء أم الحاجة إلى المصادر والوثائق أم الحاجة إلى الحرية والشجاعة ؟ فإنـــك – مهما بحثت واستقصيت – لا تجد في المصادر العاملية المعروفة خـــبراً أو حديثاً قد تجاوزوا به الزمن الذي لمع به آل منكر وآل الصغير وآل صعب أو تجاوز الحوادث التي وقعت سنة ١٠٢٢هـ أو سنة ١٠٤٨مع ان غيرهم من الباحثين والمؤرخين يعددون من الحوادث العاملية الهامة مايتعدى تاريخ ذلك الزمن وحوادث تلك الاسر ، وينبؤوننا عن قادة عامليين كانوا طيلة القرن الثامن والتاسع للهجرة أهم الزعماء اللبنانيين وأكثرهم نجدة وأشدهم بأساً واقداماً ، كما يتضح من النصوص التالية :

قال بولياك صاحب كتاب الاقطاع في مصر وسورية ولبنان ص ٤٥ و ٤٦ من كتابه « أما أبرز الزعماء اللبنانيين في فجر المماليك فهم بنو صبح أو صبيح ، وبنو بشارة زعماء العشير القرن الرابع عشر ، ولا يزال اسمهم يطلق إلى اليوم على الأرض الواقعة في جنوب الجمهورية اللبنانية والمعروفة ببلاد بشارة ، وأكثر سكانها من الشيعة »

ويستند المؤلف في هذا القول إلى المصادر التالية :

أولا : النجوم الزاهرة لابن تغري بردي م ٦ ص ١١٤ – ٧٨٧

ثانياً : حوادث الدهور للمؤلف نفسه ص ٥٦

ثالثاً : بدائع الزهور لابن أياس م٢ ص ٢٣٨ طبع اسطنبول

رابعاً : الضوء اللامع للسخاوي م ٣ ص ١٣٨ طبع القاهرة سنة ١٣٥٥

خامساً : ابن طولون ، وسائل تاريخية م ٤ ص ٦٠ دمشق سنة ١٣٤٨هـ

ثم يقول بولياك ص ٤٦ من كتابه « وقد يكون بنو بشارة وبني صبيح من الشيعة » مستندا في ذلك إلى صبح الأعشى م٤ ص ١٥٣ ومن يراجع كتاب أمل الآمل في علماء جبل عـــامل – طبع إيران – يرى فيهم من ينتمي إلى بني صبيح هؤلاء وكذلك من يطالع العرفـان م ٢٧ ص ٦٢٧ يجد الركيني يقول في مذكراته ما نصه « وفي هذه السنة (١١٧٦هـ) توفي الأمير أحمد بن صبيح » ويبدو من الحوادث التي تنسب إلى بني صبيح في تاريخ صالح بن يحيى ، وتاريخ الأمير حيدر الشهابي أن مركز اماراتهم كان في مشغرة وبقاع العزيز

أما بنو بشارة فلم يبق من سلالتهم في بـلادنا ولا من تاريخهم في أخبارنا وآثارنا العاملية ما يقوى به الاستدلال عـلى خصائصهم المذهبية ، ولعل فيما يذكر من أسمـــاء بعض قادتهم وزعمائهم كحسن وحسين ومحمد ما يشعرنا بانطباعاتهم الشيعية ؟ ومن يلاحظ حـــال العامليين وازدهار علومهم وآدابهم ومدارسهم الشيعية – كجزين وميس – في هذين القرنين اللذين ساد فيهما بنو بشارة ، ثم يلاحظ حال العامليين وتقلص هذه المدارس بعد ذلـــك وتشرد علمائهم وأدبائهم وتسللهم خفية إلى العراق والحجاز وإيران .. يقوى شعوره بأن بني بشارة كانوا من صميم الشيعة :

ثم هل يعقل أن ينقاد العامليون – في عنفوان هذا التعصب المذهبي – لآل بشارة طيلة قرنين وهم على خلاف مذهبهم ؟؟

على أن من يلم بأخبار المجلد الثاني من خطط الشام بايروي من الحوادث التي لابسها بنو بشارة في جبل عامل طيلة القرنين الثامن والتاسع للهجرة. يعتقد بأن بني بشاره هؤلاء لم يكونوا زعماء هذه البلاد في القرن الرابع عشر للميلاد فحسب - كما يزعم بولياك : بل استمرت زعامتهم إلى أوائل القرن السادس عشر (١٥٠٣م كما يتضح من رواية الخطط ص ١٩١ ، وتصافى (سنة ٨١٠هـ شيخ [١] ونوروز [٢] بعد الخلاف وتوجها بعساكرهما إلى بلاد ابن بشاره فأوسعوها نهباً وهرب ابن بشارة ،

وبما يروي ص ١٩١ أيضاً من قولهم عن حوادث سنة ٨١١ ، وذكر ابن حجر ان نوروز برز إلى صفد[٣] ثم انثنى إلى سمسع ثم انثنى إلى يكتمر جاق (والي صفد) ومعه محمد وحسن وحسين بنو بشاره فاقتتلوا فقتل منهم جماعة وحرقت الزروع وخربت القرى وكسرهم وأقام في الرملة ثم قصد ليحاصرها فقدم عليه الخبر بحركة شيخ إلى دمشق ، وكان قد جمع من التركمان والعرب والترك جمعاً وسار من حلب فرجع نوروز وسبقه إلى دمشق ،

ومن قوله ص ١٩٩ ، وفي سنة ٨٥٥ طرق صور زهاء عشرين مركباً للفرنج ونهبوا من بها فأدركهم بجموعه ابن بشاره مقدم العشير بالبلاد

(١) أي شيخ المحمودي الذي كان نائب طرابلس سنة ٨٠٤ هـ

(٢) ونوروز الحافظي الذي كان نائب دمشق سنة ٨٠٦ هـ وقد تسلطن الاول على مصر ، والثاني على الشام من (سنة ٨١٦) الى سنة (٨١٧) حيث قتل نوروز واستأثر شيخ المحمودي بملك مصر والشام ولقب بالملك المؤيد شيخ

(٣) كانت صفد في عهد المماليك نيابة كدمشق وكان من اعمالها تبنين وهونين والشقيف وصور ، وكان زعماء العاملين في أكثر الأوقات مؤيدين لنائب صفد في السلم والحرب كما يبدو من المصادر التاريخية كصبح الأعشى وتاريخ العيثاني والصفدي والدويهي والشهابي

الشامية (١) وقاتلهم قتالا شديداً حتى أزاحهم عن البلد بعد أن قتل من الفريقين جماعة وأمسك من الفرنج جماعة وقطع رؤوسهم ،

ومن قوله ص ٢١١ ، وفي سنة ٩٠٩ هـ الموافق ١٥٠٣م) جهز الأمير ناصر الدين بن حنش مقدم البقاع خمسة آلاف مقاتل على عبد الساتر بن بشارة في قرية شيحين [بن جماعة ابن حنش] فقتل من جماعة ابن حنش نحو مئتين ، ثم يطوي التاريخ خبر بني بشارة بعد الفتح العثماني لسورية فلا نسمع لهم أو لغيرهم من ساسة العاملين خبراً ولا اثراً إلى سنة ١٠٢٢ و١٠٢٣ هـ حيث يشير الصفدي في بعض الحوادث إلى ذكر بني منكر وبني شكر وبني الصغير مرتبين في الكلام على هذا النحو من التقديم والتأخير

أترى ذهب بنو بشارة فيمن ذهب ضحية الدفاع عن سورية مع المماليك؟؟ أم فتك بهم السلطان سليم تشفياً وانتقاماً من أخصامه ومزاحميه على فتح سورية والعراق من الشيعة أو ملوكهم الصفويين ؟؟

وعلى كل فتلك النصوص وأمثالها تدل دلالة صريحة على ما كان لبني بشارة من حول وطول ومكانة مرموقة بين زعماء سورية لا زعماء لبنان فحسب ، فكيف أهملهم المؤرخ العاملي وغفل عن تاريخ قرنين اضطربت فيها الحوادث وتزاحمت الأهوال ؟

(١) قال بولياك مؤلف كتاب الاقطاعية في مصر وسورية ولبنان ص ٤٤ من كتابه هذا « قبائل الفلاحين في سورية ولبنان ، ويعرفون بالعشائر ، من اعتشر القوم وتعاشروا اي تصاحبوا وتخالطوا ، او بالعشير جمع عشراء ، او بالعشران ، جمع عاشر ، وكانوا يوكل اليهم أن يؤمنوا المارة من كيد اللصوص ولدى الحرب كانت الحكومة تستأجرهم مرتزقة مشاة سلاحهم الأقواس والسهام والحجار .

مظاهر السياسة العاملية في العهد المعني

... يقول مؤلف – جبل عامل في التاريخ – ص ٥٧ من كتابه هذا « وكان المنكريون مثالاً صالحاً لهذا الواقع الذي تصطدم به براعة الكاتب الماهر والمفكر المصيب كلما أجالها على جبين القرطاس ، فإن ثورتهم على المعنيين ليست إلا ثورة أحرار على أغلال ، ومجازفة الضعيف في حقه فإنهم أرادوا أن يرغموا عدوهم بقوة الحق والإخلاص ليس إلا ، وإقدامهم على محاربة الأمير يونس المعني بعد ما خفوا لتوحيد كلمتهم قبل هرب أخيه الأمير فخر الدين المعني يدلنا على ما يحملونه من حنكة وتجربة وغيرة ملتهبة »

ثم يقول في ص٥٨ من الكتاب « ذلك العهد هو عهد الاقطاعية المظلمة التي يلعنها عصر النور، والتي وثب المنكريون لتحطيمها ، وأعانهم الطرافشة وفي حياة ابن منكر – أي الحاج علي منكر – نقاط تستدعي الاكبار وتثير الاعجاب ، تأليف العامليين وجمع كلمتهم وإقناع الزعماء بكفاءته ومقدرته ، ومن ثم وأسوه عليهم ، واصطدامه مع المعنيين وهو ضعيف وهم أقوياء ، وإصراره على مبدئه ، واتخاذه من الحرافشة ردءاً ومجناً وساعداً ومساعداً : هذه نبذة من حياة ابن منكر في بضع سنوات »

وإنا مع احترامنا لمكانة آل منكر السياسية في هذا العهد .. لنأسف أشد الأسف أن يكون المصدر الوحيد لهذا القول من المؤلف .. هو مجرد الخيال والحدس إذ لم نجد له – حتى الآن – ما يبرره ويدل على صحته من نص صريح ، أو منطق سليم ، أو واقع مدرك ، ولعل الشيء الذي طوح بخياله إلى هذه المراجيح والصور التي افترضها لزعماء آل منكر ، هو

ما أورده الصفدي ص١٦ من تاريخه إذ قال « ورحل – الأمير فخر الدين – إلى تحت قلعة الشقيف وأناخ هناك للاستراحة ، فجاء إليه أناس اشتكوا من أولاد علي مشايخ قرية الكوثرية بأن جماعتهم شاحوا أناسا وشرعوا يخربون في البلاد ويشوشون على الرعية ، فركب عليهم بخيله ورجله فما وجدهم بالقرية بل كانوا غائبين في جمعية بني متوالي ، وصار كبيرهم الحاج علي وأخوه ناصر الدين ولدي منكر ، فنهب جميع أرزاقهم التي وجدت لهم في بلدهم قرية الكوثرية المذكورة وأخذ مالكل واحد منهم من الدواب وغيرها ليتأدب غيرهم وعاد إلى خيامه تحت قلعة الشقيف وأقام يومين » على ما جاء في حوادث سنة ١٠٢٢ هـ ،

ثم جاء الأمير حيدر الشهابي المتوفى سنة ١٨٣٥م و١٢٥٠هـ فلخص بدوره هذا القول ص ٦٣٠ من تاريخه (الغرر الحسان) ولكنه نظراً لقلق عبارة الصفدي وغموضها ونظراً لشهرة بيت علي صغير في زمن الشهابي – بحيث كان يظن البعيد عن جبل عامل ان كل شيخ من مشايخ المتاولة هو من أولاد علي الصغير حتى مقدمي جزين كما يستفاد من رواية دوافي القطوف ص – ١٥٧ و ٢٥٠ ومن كتاب لبنان ص ١٤٥ ومن هؤلاء المؤرخين العامليين الذين حسبوا ان عباس العلي صاحب قلعة ميس من آل الصغير مع انه اخو الشيخ محمد العلي بن علي منصور منكر [1] ومع ان قلعة ميس لم تكن خارجة عن دائرة حكم آل منكر من الشومر : حسب – الشهابي – ان المراد من قول الصفدي (أولاد علي) هم اولاد علي الصغير فعدله على موجب هذا الظن وأضاف لفظة (الصغير) الى كلمة اولاد علي ثم رواها كذلك فسببت هذه الاضافة وهذا التعديل لمؤرخي جبل عامل الذين

(١) الزكيني في العرفان م ٢٨ ص ٤٥٣

اعتمدوا على رواية الشهابي شيئاً من الاضطراب في التفسير والاستنتاج والحكم ، لأنهم لم يأخذوا بعين الاعتبار صورة النص الأصيل – بجميع النسخ المخطوطة – ولم يلاحظوا بقية القرائن التي تساعد على ضبطه وتصحيح المراد منه .

(١) فلو انهم لاحظوا ان الصفدي في كل جملة تعرّض بها لآل الصغير كان يذكرهم ويقول (اولاد علي صغير) الا حين ذكر مشايخ الكوثرية الذين بدأوا يقطعون الطرق سنة ١٠٢٢هـ كما تنص على ذلك عبارة الصفدي .

(٢) وأن الكوثرية كانت ولم تزل من قرى إقليم الشومر ، وان إقليم الشومر هذا لم يحكمه ويستوطنه من الأسر الاقطاعية سوى آل منكر في جميع العهود العثمانية إلى ان كفت الدولة أيدي الأسر الاقطاعية في هـامة عن الحكم سنة ١٢٢١ هـ ووزعت قرى الشومر عليهم تعويضاً عن أملاكهم ، وحصرت وجودهم فيه [١]

(٣) ولو انهم تبينوا من قول الصفدي المتقدم ان المراد من كلمة (وصار كبيرهم الحاج علي) وصار كبيرهم الحاج علي إذ كثيراً ما نرى مؤرخي العهود التركية الذين كتبوا التاريخ باللغة الشعبية .. يكتبون الصاد سيناً والسين صادا ككتابة قرية سمسع صمصع ، وقيسية قيصية ، ويخسرهم يخصرهم ، والمساقب المصاقب ، وسرف صرف ، وساو صار ، والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى لمن يراجع كتبهم وإلا فأي معنى – في مثل ذلك المقام – للاخبار بأنه صار وأصبح كبير المتاولة أو زعيمهم فلان وفلان ؟

(٤) او انهم تحققوا بعد أن الضمير في قول الصفدي (وصار كبيرهم الحاج علي وأخوه ناصر الدين) عائـد إلى كلمة (أولاد علي) لا إلى بني

(١) العمران م ٢٦ ص ٧٧ بنقة من تاريخ سليمان باشا للعلم ابراهيم العورا

متوالي كما توهم المؤلف ، وذلك لتوالي الضمائر الخمسة التي جاءت بعد هذا الضمير من قول الصفـدي فنهب جميع ارزاقهم التي وجدت لهم في بلدهم قرية الكوثرية وأخذ ما لكل واحد منهم من الدواب وغيرها ليتـأدب غيرهم في رجوعها إلى كلمة (اولاد علي)

(٥) ثم لاحظوا ان كبير البلاد وزعيمها لا يكون عادة اكثر من واحد فكيف يصير اثنين ؟ ! ومن أسرة واحدة ! – كما يزعم المؤلف – مع وجود أسر منافسة لها لا تنقص عنها قوة ونفوذاً واعتداداً بكفاءتها ، ان لم تكن اشد واقوى واكثر اغتراراً بأهليتها للزعامة العامة كما يستفاد من فحوى النصوص والأقوال الشائعة عن آل شكر ، ومنها قول المؤلف نفسه ص ٢٧

(٦) ثم رجعوا بعد هذا لقول الصفدي ص ٣٧ « ثم سمع حافظ أحمد باشا أن اناساً من اهل الشوف الحيطي مجتمعين في مرج بسرة ؛ فعين لهم من جماعته حسن آغـا حاكم صيدا وعين معه اليازجي محمد آغا بلوكباشي وبقية البلوكباشية بجميع طائفة السكمانيـة ، وعين الحاج علي ابن منكر وأخاه الحاج ناصر الدين من مشايخ بلاد صيدا اللذين همـا اخبر بأراضي تلك البلاد »

ولقوله ص ٦٩ « وكان قد بلغ الأمير فخر الدين احوال مشايخ بني متوالي اثناء غيابه ومقابلتهم لابن الحرفوش في قرية مشغرا فعين وقعت عينه على الحاج ناصر الدين بن منكر مسكه لأنه من اعيانهم »

لرأوا ان الصفدي بكلا النصين لا يشعرنا بأن الحاج علي واخاه أو بأن واحداً منهما هو زعيم المتاولة ، وإنما جعلهما في النص الأول من بعض مشايخ بلاد صيدا ، وجعل احدهما في النص الثاني من أعيان المتاولة

لا زعيمهم .

(٧) ثم لنأكدوا من خلال ملاحظاتهم وتحقيقاتهم ومن جميع الاعتبارات الداخلية والخارجية أن المراد من قوله : اولاد علي هم مشايخ آل منكر في الكوثرية ، ومن قوله : صاو كبيرهم الحاج علي سار كبيرهم — إلى جمعية بني متوالي —

وعلى هذا يكون جميع ما رتبه المؤلف على رواية الصفدي والشهابي من تفاسير وافتراضات خيال في خيال لا أساس له من الواقع بل قد يكون الواقع على عكس ما يريد ، إذ يظهر من هذه الجمعية التي اشار إليها الصفدي في نصه ذاك . . ان العاملين كانوا يحاولون — مع العثمانيين — الانتقاض على الأمير فخر الدين لما لاقوه في عهده من جور وتحامل ، ففي عهده الأول بدأ الضغط على الشيعة في اقليم جزين وفي عهده الأول احرقت مكتبة آل زين الدين الكبرى في جبع وتشرد علماؤهم ولكن تسوع آل منكر في الكوثرية إلى النهب والشغب قبل انعقاد جمعيتهم أو اثناء انعقادها اضاع على العاملين نتائج خططهم ومحاولاتهم ، ونبه الأمير فخر الدين للقضاء على حركتهم في مهدها قبل أن تصل إليه ضربة الحكومة وقبل أن يغادر البلاد إلى اوربا ، ثم ان هذا التسرع ضاعف نقمة المعنيين على العاملين وجعلهم يراقبون تصرفاتهم بريب وحنق ويعدون لهم اعنف القصاص لدى اول فرصة تسنح ، كما حاولوا ان يقتصوا من الشكريين سنة ١٠٢٣ هـ ، وكما اقتصوا منهم بعد رجوع الأمير فخر الدين من اوربا سنة ١٠٢٧ يوم ألح على بيوتهم وبيوت آل منكر في الهدم والتدمير .

وإنا حين نقرأ ص ٦٤٠ من تاريخ الشهابي إذ يروي ان الحافظ احمد باشا « أتى إلى مرجعيون وعيد هناك عيد رمضان سنة ١٠٢٣ وانتقل إلى

حصار قلعة الشقيف ، فأخبر ان السلطان احمد قتل نصوح باشا الوزير ، وتولى على الوزارة محمد باشا قبردان الذي كان ساري عسكر البحر ، وقد كنا ذكرنا ان الأمير فخر الدين قدم له تقدمة لما مر عليه معزولا عن مصر ، فلما عرف بذلك الحافظ احمد باشا رجع إلى الشام ، وكل من كان معه رجع إلى مكانه »

او نقرأ ص ٣٠٥ من تاريخ الدويهي إذ يقول « في سنة ١٠٢٢ هـ و١٦١٣م وردت البشائر بأن السلطان أعزل أحمد باشا عن محافظة الشام وأعطاها لجركس محمد باشا — صديق المعنيين = فأرسل متسلمه وأمره ينادي بالأمان ويرجع جميع النزاح ، وحين قدم الوزير محمد باشا قبودان إلى حلب بعث أطلق سبيل الست وعلماء الشوف وارسل منديل الأمان وعفو نامه للأمير فخر الدين ليرجع إلى بلاده بأمان »

ثم نقرأ ص ٣٩ من تاريخ الصفدي . . نرى — من هذا الاستقراء — أن المعنيين لما اطمأنوا بعض الاطمئنان إلى مستقبلهم في الحكم أخذوا يفكرون في أساليب الانتقام ويهيئون الوسائل الجهنمية للتنكيل بالعاملين وشن الغارات على مراكز الحكم والقوة في بلادهم ، كما يستشف من قول الصفدي ص ٣٩—٤٠ إذ يقول « وفي هذه الشتويه — شتوية سنة ١٠٢٣ — كان طوبل حسين بلوكباشي سردار قلعة الشقيف أرسل ناساً من السكمان ومن خدمه الذين يخدمونه لينهبوا من بلاد صيدا قرايا وينهبوا العرب المعتادين بالنزول في الحولة فيبيعوا نصف المكسب ويصرف في علف الطائفة السكمانية [1] والنصف الآخر يتقاسمونه بينهم ، فعند ذلك حصل للطائفة

(١) المراد من العلوفة هنا المعاش . ومن الطائفة الجماعة . ومن السكمانية بفتح السين الجند المأجور او الخدم

التي في قلعة بانياس الغيرة وقالوا لسردارهم حسين اليازجي أرسلنا نحن أيضاً إلى مكان يحصل لنا منه فائدة ، فعين من عنده ثلاثماية من الرجال وأرسلهم إلى طويل حسين بلوكباشي بقلعة الشقيف ، فعين الطويل من عنده أيضاً نحو مايتي رجال فتوجه الجميع وكبسوا قرية عيناثا من بلاد بشارة وكان قد رجاهم النذير فجمعوا اليهم قاقلي العدد من القرايا القريبة منهم ووقع بينهم القتال فقتل علي قول أو غلي سردار السكمانية المعين عليهم فانكسروا وعادوا إلى مواضعهم فتبعهم أولاد شكر وجماعتهم إلى قرية عين الدقيقة من الحولة وفقد منهم عشرون رجلا وجرح منهم بجاريح ، فعند ذلك عملت الطائفة التي في القلاع الميدان على البلوكباشيه الحاضرين الواقعة وعدتهم ستة أنفس على وجه السرعة وطووا بيارقهم وأعادوهم إلى حزب النفر »

فلدى التفكير برواية الصفدي — وهو كما يتضح من مقدمة كتابه لم يؤلف تاريخه هذا إلا تقرباً من الأمير فخر الدين وانقياداً لحكمه ومشيئته مما يفرض عليه ان يكيف الحوادث وأسبابها ومسبباتها بالصور التي ترضي الأمير ولا تمس كبرياء المعنيين أو تفضح دخائل سياستهم العارمة : ومع هذا يبدو لنا من خلال الرواية ان هذه الغارة التي شنها قادة المعنيين على آل شكر لم تكن وليدة الصدف أو من وحي الطمع بالنهب والسلب ، وإنما كانت عن سابق تصميم ونتيجة مخابرات طويلة بين القادة ، وبعد تفكير دقيق في وضع الخطط الجهنمية للغدر والفتك وإلا فمحاولة النهب وحدها لا تقتضي المعنيين ان ينظموا قوتهم ويوحدوا قيادتهم ويحشدوا مثل هذا العدد الكافي للايقاع بجيش كبير منظم ، كما قد أوقع علي الظاهر ابن الشيخ ظاهر العمر بجيش عثمان باشا الصادق وشتته واستولى على أسلحته وذخائره

بمثل هذا العدد وبمثل هذه المباغتة (١) التي حاولها رجال المعنيين يوم باغتوا الشكريين في قرية عيناثا على بعد المسافة بينها وبين قلعة الشقيف وقلعة بانياس ، ومع وجود قرى أقرب وأخصب وأيسر تناولا للنهب والسلب منها؟

وابتداء المعنيين بآل شكر دون غيرهم من قادة العاملين بهذه الغارة الكبيرة وهذه المباغتة المنظمة للفتك والتنكيل والانتقام .. يشعرنا بما كان للشكريين يومئذ من مزيد السطوة والنفوذ في عاملة . فلو لم يكونوا إذ ذاك نقطة الدائرة في سياسة البلاد أو أنهم هم القوة التي يخشى بأسها لما كانوا اول من يسعى المعنيون — إلى خضد شوكتهم وتشتيت كلمتهم — بهذه الحملة المدمرة وهذا الاسلوب الغادر الذي يشف عن مدى الحقد والنقمة عليهم وعلى ساستهم ومدبريهم

﴿ مواضع الشك ﴾

ثم لعل الباحث يلاحظ ما ألاحظه — في مجموع هذه النصوص التاريخية التي تشف عن سياسة العاملين وخططها بين سنة ١٠٢١ و١٠٢٨ هـ — من ان مشايخ بيت علي الصغير كانوا يشتركون مع مشايخ البلاد العاملية في كل ما يثير نقمة الحكام المعنيين عليهم ، فقد تظاهروا ضد المعنيين مع مشايخ آل منكر وآل شكر في تأييد حسين اليازجي يوم تولى سنجقية صفد ، وكان جبل عامل أو بلاد بشارة من توابع هذه السنجقية على ما يبدو من مراجعة الصفدي ص ٦٠ و ٧١ ومن مراجعة الشهابي ص ٦٥٤ إذ يقول « وكتب (حسين اليازجي) إلى جميع أهالي بلاد صفد يعلمهم بتقرير سنجقية صفد لعهدته فالبعض من مشايخها لم يوافقوا على ذلك والبعض وافقوا مثل

(١) المقتطف م ٢٨ ص ٣٢٣

بيت منكر وبيت شكر وبيت علي الصغير » او من مراجعة الدويهي ص ٣١٠ إذ يروي مانصه « في سنة ١٦١٧ م و ١٠٢٦ هـ توجه حسين البازجي إلى صفد فقبله مشايخ قبلة أعني بيت منكر وبيت شكر وأولاد علي صغير وفي جماد الأول طلب ابن معن التوجه إلى صفد بألف رجل فتواقع مع جماعة حسين البازجي عند الوعرة »

ثم تظاهر آل الصغير كذلك مع آل منكر وغيرهم من وجهاء البلاد في الاتصال بالحرافشة وزيارتهم في قرية مشغرة على الرغم من استياء المعنيين لذلك وخوفهم من نية منافسهم الأمير يونس الحرفوش يومئذ كما يتضح من قول الصفدي ص ٦٦ « وقبل هذه الأحوال كان صار نصيب الامير أحمد ابن الامير يونس الحرفوش في مصاهرة الامير فخر الدين بن معن وعقد عقدة نكاحه على كريمته ، فغره الطمع بتدبير والده وحيله فجاء وسكن قرية مشغرة واسس بها أساس بنيان ليعمر فيها مسكناً له فيه يقيم ، وصار يراسل ويكاتب بني متوالي من المشايخ المتعينين فطلع اليه من شيعته وملته هدايا أولاد داغر ، واولاد علي الصغير ، وابن منكر الحاج ناصر الدين بحجة انهم يسلمون على قرابتهم الحاج علي بن منكر لكونه كان نازحاً عنهم منذ رجع الامير علي إلى البلاد وحكمها ونازلا عند ابن الحرفوش الامير يونس ، فلما رأى الامير علي ذلك وعلم ان مجيء الامير احمد المذكور إلى مشغرا مبني على فساد وانه ما مراده المجيء إلى هذه القرية الا استمالة بني متوال اليه واجتماعهم عليه وان كان ظاهره ان مراده بالبنا في مشغرا ان يسكن شقيقة الامير علي بها فأرسل الامير علي لابيه الامير يونس الحرفوش مع السيد نور الدين من قرية جبع يذكر له ان كان مرادكم محبتنا وصداقتنا فامنعوا ولدكم الامير أحمد من البناء في مشغرا ومن السكن بها ايضا فانه

ما ينأتي من ذلك إلا العداوة بيننا والبغضاء فأرسل جوابا يوهم انه صحيح وقال نحن ما مرادنا الا التقرب الى جنابكم بالمليح وان الذي خطر في بالكم لم يخطر ببالنا وذكر أعذار على هذا المقال غير مقبولة ولا معقولة : فأرسل الامير علي مرة ثانية السيد نور الدين المذكور انه لابد من منع ذلك ان قصدتم صداقتنا على اليقين وان كان لكم نية غير ذلك فعرفونا بها لتكون على بصيرة ، فأرسل قرابيه امير حاج الى الامير علي ليثوب عنه في الاحتجاج ويبين الاعذار ويوضح الاخبار وارسل الى ابنه يمنعه من العمارة ومع هذا كله ما انقطعت حكاياتهم ومراسلاتهم الى مشايخ بني متوالي وهم لم يمتنعوا من التردد اليه »

ثم من الطبيعي ان يكون آل الصغير قد تظاهروا مع مشايخ العاملين في اجتماعهم للانتقاض على المعنيين يوم كان المعنيون مطاردين من قبل والي الشام احمد باشا الحافظ إذ لا يعقل أن يتظاهر آل الصغير مع العاملين في الاتصال بالحرافشة وفي تأييد حسين البازجي ضد المعنيين بعد ان صفحت الدولة عن هؤلاء جميعاً واطمأنوا إلى مراكزهم في الحكم .. ولا يتظاهروا مع العاملين في الانتقاض على المعنيين يوم كانوا مطاردين من قبل الدولة ومن قبل جميع الاحزاب اليمنية ؟؟

ومع كل هذا التظاهر ضد المعنيين لم ترهم تعرضوا لآل الصغير بسوء او أشركوهم في العقاب الذي حاولوه سنة ١٠٢٣ هـ أو في العقاب الذي أوقعوه بآل شكر وآل منكر وأتباعهم من آل أبي شامة وآل داغر سنة ١٠٢٧ هـ كما يتضح من رواية الصفدي إذ يقول ص ٧١ : « وسأل الامير فخر الدين ولده علي هل لك على البلاد مال ؟ فذكر ان له على بلاد صفد القسط الثاني المعتاد اخذه في زمن الزيت وهذا أوان أخذه ، فتوجه الامير فخر الدين

بنفسه إلى عكا وفرق القصاد على سائر البلاد لجمع المال المذكور ، وفي ذلك الوقت طاحت مشايخ بلاد بشارة بيت شكر ، واولاد علي صغير وكلهم راحوا إلى عند الأمير يونس ابن الحرفوش ، فلما بلغ الأمير فخر الدين هجاج مشايخ بلاد بشارة ، ارسل هدم بيوت أولاد شكر في عيناثا والحاج علي ابن أبي شامة في بنت جبيل ، وفرحات داغر في قرية انصار ، والحاج ناصر الدين ابن منكر في قرية الزريرية ، وولده في قرية حومين الفوقا ، وضبط جميع غلتهم — إلى أن يقول — وجميع هؤلاء الطايحين كانوا أولا قابلوا الامير فخر الدين في عكا وما كان قصده ضرر أحد منهم غير الحاج ناصر الدين ؛ فبعد ما فارقوه ما عادوا قابلوه ،

وقول الصفدي في هـــذا النص ، وجميع هؤلاء الطايحين كانوا قابلوا الأمـــير فخر الدين في عكا أي — يوم رجع من أوربا — وما كان قصده ضرر احد منهم ... فبعد ما فارقوه ما عادوا قابلوه ، يشعرنا بأنه لم يكن همّ الأمير فخر الدين من هذا التوجه إلى صفد هو مجرد جمع المال وإنما كان جل همه أن يعاقب ويباغت من كانوا موضع نقمته وغضبه من العاملين والصفديين ، وإلا فجمع المال يمكن أن يقوم به أحد كواخيه أو أبنائه على خير ما يريد ، كما أن دفع العاملين والصفديين للقسط الاول — بوقته — وعدم مضي الوقت على دفع القسط الثاني ... يشعرنا بأنهم لم يكونوا عاصين في دفع المال ولا محاولين لأن يعصوا به ،

وبعد فما السر في استثناء آل الصغير من هذه التعقيبات ؟؟ وما الذي دعا المعنيين — في عنفوان قوتهم وانتصارهم — إلى غض النظر عنهم أو إلى حسن الظن بهم دون غيرهم من مشايخ العاملين ؟؟

ألأن آل الصغير كانو امن السطوة والقوة بحيث يخشى المعنيون بأسهم

وخطرهم فيضطروا إلى مجاملتهم وإلى التسامح معهم ؟ ؟ وفي هذا ما فيه من دواعي الشك والريب لأن جميع الروايات حتى رواية آل الصغير انفسهم عن اسلوب انتقامهم وسبب فتكهم بآل شكر تدل دلالة صريحة على أن الشكرية كانوا أشد بأساً وأوسع نفوذاً .

أم لأن آل الصغير كانوا يشتركون ظاهراً مع بقية الزعماء والمشايخ العاملين فيما توجبه الضرورة وتقضي به الاعتبارات السياسية والعرفية ... وينقادون سراً لوحي الحكام المعنيين وإشارتهم .. اغتراواً منهم بمناعة القوة الحاكمة ، أو تحدياً لأهداف الجبهة المعارضة كما هي الحال في سياسة الزعماء الموالين لكل سلطة تتولى الحكم مهما يكن من أمرها ؟

ولهذا يقوى احتمال المشككين بأن يكون هذا الاسلوب من سياسة آل الصغير أحد العوامل الرئيسية في القضاء على نفوذ آل شكر في عامله ، وإلا فالوقوف عند ما تصوره الأساطير والقصص المؤلفة لنشأة جدهم علي الصغير ومباغتته للشكريين في قانا أو تبنين أو عيناثا — وهم في نشوة من الغبطة والفرح بأعراس بنيهم — يزيد في الشك والتساؤل عن موقف السلطات العليا من بشوات الاتراك والامراء الوطنيين إزاء هذا الحادث الفظيع الذي يمس مصالحهم وسيادتهم ، ويحملهم اكبر المسؤولية .

قصة علي الصغير مع الشكرية

توطئة

يوشك ان يجمع المحققون من مؤرخي لبنان على عروبة ابناء عاملة [١] وعروبة امرهم النابهة ما خلا الأسرة الصعبية التي تفرّدت بانتمائها لسراة الاكراد وتسنى لها أن تستغل هذه النسبة لدى طغيان الاجانب وانتكاب العامليين بحكمهم الجائر ، وانه لا يعترينا شك بصدق انتساب معظم الامر العاملية – وفي مقدمتها أسرة علي الصغير – إلى أصل عربي كريم ، ولكن موضع الشك هو في صحة ارتباط هـــذه الحلقات المشوشة – من أسماء الأعلام – في سلسلة الانساب العاملية وفي صدق اتصالها اتصالا وثيقاً كاملا بأرومة القبيلة التي تنزع اليها أي اسرة من امرنا حتى الامر المنتسبة إلى الأوس والخزرج ! وحتى بعض من ينتسبون لقريش . على عناية هؤلاء في حفظ جداول الانساب .

وإني إذ اتقدم اليوم بمثل هـذا الزعم لا بد لي من بسط الحجج والمآخذ بين يدي القراء ، ولا بد لي – مراعاة الوقت ، وترف القراء ، ومجال الصحيفة المحدود – من ان اقتصر على قصة واحدة من قصص الانساب وهي قصة علي الصغير ، إذ كانت من ألمع القصص في تاريخ الانساب العاملية وإذ هي موضع البحث والاستشهاد في تاريخنا السياسي ، وقد رويت في سلسلة النسب العائلي على أوجه مختلفة نجتزىء منها بما رواه الحاج محمد سهيل واضع سلسلة نسب آل الصغير في مجموعة من خطه وانشائه . وما رواه

(١) راجع مقال الأب لامنس اليسوعي فيما تقدم من هذا الكتاب

شيب باشا الاسعد ص ١٦–١٨ من ديوانه ، وماورواه العلامة السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة م ١٥ ص ١٠٣– ١٠٥ مع شيء من التعليقات والمقارنات جعلته وسيلة للشك وصحة الاستنتاج وذريعة لتصفية التاريخ من اسراف القصص والقصاصين في الاغراب والافتراض .

الفصل الاول من القصة

يقول الحاج محمد سهيل في فاتحة القصة ما نصه « تاريخ بداية عائلة آل علي الصغير وهي عائلة قديمة تنسب إلى وائل بن ربيعة بن نزار ، فمن سلالة وائل هجرس ، ومنه هرمون ، ومنه شامان ، ومنه عبدالله ، ومنه سالم ، ومنه جندل ، ومنه شعلان ، ومنه ناصيف ، ومنه حمد ، ومنه جمعان ، ومنه حويشان ، وحويشان تخلف بأحمد وبولد آخر غيره الذي منه فارس نافا ، فأحمد تخلف بحسين ، وحسين تخلف بعلي المدعو علي الصغير ، فأصل وجودهم بهذه الديار وهو ان أحمد بن حويشان وأخوه أتيا من البادية فنزل أخوه بغوطة الشام وهو اتى على ناحية الجيدور ونزل بقرية من قراها يقال لها (سكيك) وكان إذ ذاك بشارة المعني حاكما على جبل عامل ومركزه بقرية زبقين (١) من أعمال صور الآن فقام أحمد الحويشان المرقوم من منزله قرية سكيك ونزل ببلاد بشارة حسب عادة العرب فسمع بشارة به وبأوصافه فأتى زائراً له وكان أحمد المذكور من البراعة والشيم والشجاعة والكرم على جانب عظيم فبعد أن نزل بشارة برحابه تلقاه بالرحب والسعة وقام بأود ضيافته حق القيام فلما رآه بشارة على الحالة التي تقدم الذكر عنها طلب منه أن يكون بحاشيته برسم مستشار فأبى واعتذر له واستعفى من ذلك فلم يقتنع بشارة بأعذاره ولا اقتبلها منه واضمر في نفسه انه إذا وجد

عندي شخص نظير هذا استغني به عن عدة رجال يكونوا من افراد الناس.
لما رأي من استعداداته فلح عليه وأظهر له امارات الحب والميل القلبي.
فأجابه لمسؤوله بعد محاورات طويلة فتوجه هو واياه ، وقلب بشارة يرقص
فرحاً على ما حصل بيده

فبقي مدة عند بشارة هو المقدم في الاعزاز والاكرام برسم ولده وهو
المتصرف بالأشغال والآمر الناهي بها كيف شاء ، وكانت بذاك الوقت
صيدا وزارة (٢) فحصل بين وزير صيـــدا وبين بشارة مباينات لبعض
أسباب اتصل بينهم الأمر للحرب فكل منهم جرد الجرود واستعدوا للقتال
فجهز بشارة جيوشه وعساكره وجعل القائد على الجيش أحمد المرقوم فعند
مصادمة الجيشان فعل أحمد المذكور افعال مستغربة تنذهل منها العقول من
الشجاعة التي اظهرها ومن ترتيب عساكره وتنظيم جيوشه فكانت الغلبة على
وزير صيدا وما النصر إلا من عند الله فانكسر الوزير هو وعساكره وولوا
الادبار فتبعهم احمد إلى أرض خيزران موقع محل بقرية السكسكية فهناك
ظفر بالوزير فذبحه وأخذ ما كان معه من السلب والمهمات وكان بيد الوزير
خاتم الحكم فقطع خنصره والخاتم بها ليقدمه إلى بشارة والذي هرب من
عسكر الوزير فاز بالحياة (٣١) والذي أبى الهرب ورد الهلكات كما قـــال
المتنبي أبي الطيب :

وحب الجبان النفس أورده البقا وحب الشجاع الحرب أورده الحربا

ورجع احمد الحويشان غانماً كاسباً منصوراً فازدادت محبته عند بشارة
حتى انه ما عاد تعاطى شيء وكلها صارت بيد أحمد ، وكان بشارة المعني
المرقوم ليس له أولاد ذكور وكان له بنت فايقة بالمعارف والادب والعفة
وعلو النفس فبعد إياب أحمد من سفره هذا الميمون فوراً عقد له عقد نكاح

على ابنته السالفة الذكر (٤) فبقي أحمد هو صاحب الحل والعقد والامر
والنهي مدة عمر بشارة وما كان إلا قليل مات بشارة فسبحان الحي
الذي لا يموت يهلك ملوكا ويستخلف آخرين ، فتولى أحمد مكان عمه واستولى
على جميع ما احتواه بشارة (٥) فبقي صافياً له الوقت راتعاً في رياض العز
فتخلف بحسين ، وحسين تخلف بعلي المدعو علي الصغير ، الذي له الوقعة
المشهورة مع بيت شكر فنذكر منها طرفاً غير مطول ..

ما بعد عظم الباشتون

١- بيد أن الامير شكيب أرسلان يقول ص ٤٤٧ من العرفان م ٢
«أما الامراء بنو معن فلم نجد في تاريخهم من اسمه بشارة» وان من يستقري
تاريخ العهد المعني من البداية إلى النهاية لا يجد في حكامهم ايضاً من سكن
جبل عامل فضلا عن (زبقين) وإنما كان مقر حكمهم يتراوح بين بعقلين ،
ودير القمر ، وصيدا ، وبيروت .

* * *

٢- وان صيدا لم تصبح في عهد المعنيين (إيالة) أو مقراً للولاة على
اختلاف القابهم من نواب ورزراء وباشوات وبكاربكية ، إلا سنة ١٠٧١هـ
في أيام الامير احمد المعني آخر حكام المعنيين كما يتضح من مراجعة الدويهي
ص ٣٥٩ والشهابي ص ٧٣٣ ودراني القطوف ص ١٩٤

* * *

٣- وإن المؤرخين على اختلاف لهجاتهم لم يشيروا بشيء إلى وقوع هذه
المعركة بالقرب من خيزوان أو غيره فكيف تتصور معركة يقتل فيها وزير
الدولة ويظفر بها امير البلاد ، ثم تبقى مجهولة مهملة من المؤرخين مع انهم

لم يعلموا ما هو دونها خطراً من الحوادث ؟ ! ثم انا حين نقرأ ص ١٤٣ من كتاب لبنان وص ٢٤٨ من الدواني أو نقرأ غيرهما من تواريخ العهد الاقطاعي نرى ان تقاليد الحكم الاقطاعي وانظمته لم تكن تسمح بقتل أو إهانة أحد من اصحاب الرتب والامتيازات الرسمية كالامراء والمقدمين والمشايخ فضلا عن البشوات والوزواء ، ومن يطالع ص ١٥٠ – ١٥١ من تاريخ الصفدي يرى ان الامير فخر الدين المعني في أوج عظمته وانتصاره لما حارب باشة الشام و كسر جيشه وتمكن من الباشا نفسه في وقعة مجدل عنجر ترجل عن فرسه وقبل أذيال الباشا تأدباً واحتراماً ! !

* * *

٤ – لقد ذكر المؤرخون جميع الأسر التي صاهرها الحكام المعنيون ، كآل شهاب ، وآل الحرفوش ، وآل سيفا ، ولم يذكروا مصاهرتهم لآل علي الصغير ومن يراجع ص١٥٣ من كتاب لبنان يرى انه كان من التقاليد المرعية في العهد الاقطاعي ان لا يتزوج كرايم الأمراء ممن هم في رتبة المشايخ ولا كرائم المشايخ ممن هم دونهم رتبة ومكانا ، إلى غير ذلك من التقاليد والاعتبارات المرعية بين الأسر مما يحول دون مصاهرة آل الصغير للأمراء المعنيين .

* * *

٥ – لو ان احد هذا حل في الحكم محل همه المزعوم لأصبح الشوف مع جبل عامل في حكم آل الصغير ؟ على انه لم يرث المعنيين في الحكم غير سيطهم الامير حيدر من آل شهاب سنة ١١٠٩ هـ كما هو مشهور لدى المؤرخين أجمع .

* * *

(الفصل الاخير من القصة)

وهو ان الشكرية أحد طوائف السادة بهذه البلاد استقووا على حسين الأحد وعائلته وأقاربه وقتلوهم ولم يبقوا منهم باقية حتى الاناث والأطفال وكانوا عندما يظفروا بالرجل أو بالمرأة وبالولد وبالطفل من هذه العائلة يقضوا عليه قصداً بقطع آثار هذه العائلة واستئصالها كلياً لأنهم استولوا مكانهم في البلاد وحذراً من ان يتنفس معهم الدهر كما هو عادته استأصلوهم عن آخرهم (١) فكان ان احد نساء حسين عندما حصل ما حصل من قتل كافة عائلتها كانت ذات فطنة وذكاء فبعد قتل زوجها وأولادها وعائلتها عموم من ذكر وانثى وطفل اخفت نفسها واستترت وتوجهت على وجهها وخرجت من البلاد وخرجت مستترة لاحدى الجهات التي لا يعلموها الشكرية بها وكانت حامل فشاءت القدرة بأن تضع غلام ذكر وكان من جملة الذين قتلوا بسيوف الشكرية أحد اولادها كانت سمته علي وكانت ذات حب شديد لهذا الاسم مشغوفة به مولعة بأن يكون لها ولد اسمه علي ففكرت في نفسها وقالت يا ترى ولدي علي هل هو على وجه الدنيا حي فاستعبرت وقالت أسمي هذا الولد الثاني علي فإن كان أخوه الأكبر حي أدعيه بعلي الكبير وهذا أدعيه بعلي الصغير ، وكانت لا تناديه إلا علي الصغير ، رجاء بأن يكون ولدها الأكبر على وجه الدنيا فأخذت تربي هذا الولد الذي وضعته بالغربة وتخدم وتشتغل وتربيه وتستقصي الأخبار عن بلادها فتجاب بما يسؤها فبقيت مدة تخدم وتربي هذا الولد واحسنت تربيته إلى أن ترعرع وبلغ أشده ، فذات ليلة جالساً بجانب أمه سألها عن وجوده بهذه الغربة وحيد بدون أقارب وسؤاله لها كان لسبب خصام وقع بينه وبين أحد أولاد تلك القرية فلح على امه بالسؤال عن حقيقة ذلك فأبت أن تخبره لأنه كان

وبعدبرهة أعاد عليها السؤال فأخبرته من بدايته إلى نهايته وقالت له يا ولدي لك ولعائلتك أحلاف وأغراض في البلاد كثيرة وإنما لايقدرون يتظاهروا بعجبتكم خوفاً من سطوة بيت شكر وكان هذا الولدقد منحه الله قوة ونشاط وبأس وشجاعة لا مزيد عليها فحالا عندما تمت له والدته الحديث تركها مكانها وتوجه لأطراف بلاده وأخذ يسترق الأخبار ويسأل بكل دقة عن الذين كانوا يميلون ويغرضون لعائلته فأرشد إلى عائلة يقال لها عائلة بيت عزقول في قرية ياثر من أعمال تبنين فتوجه للقرية وسأل عن كبيرهم فأرشدوه إليه فعندما عرفه هذا الرجل وتحققه دخل على قلبه وقلب عائلته سرور تام وأخذ يأخذ منه بعض معلومات عن آبائه وأجداده وعن مسراهم وكيف كانت أعمالهم ومن الذي كان يميل لهم وهو يفهمه ويرشده فاجتمع عليه نحو من مائة رجل من غرضه والمخصوصين بآبائه وأجداده وأخذوا يتخطون في أطراف البلاد سراً وكان الحاكم الشكري بذاك الوقت مركزه قرية قانا من أعمال صور الآن وله خمسة أولاد ذكور خاطب لهم ومراده يزوجهم جميعهم بليلة واحدة وكانت الأفراح والتعليل بكل ليلة تشتغل وميادين الخيل تلعب وخادمهم العز وكافة البلاد مجتمعة بالفرح فليلة الزفاف اسروا مع امرأة من قانا كانت خادمة لأسلاف علي الصغير ولها غرض قوي لنحوه وقالوا لها نحن متوجهين لمزرعة مشرف تبعد عن قانا ثلاثة ارباع الساعة مرتفعة عليها نكمن بها لنهاية السهرة فعندما ينتهي التعليل وتتم الافراح ويخلو العرايس وكل إنسان يتوجه لمحله تقومي تعملي لنا إشارة متحملي مصباح نور وتتخطي به من سطح إلى سطح ، فأجابتهم لطلبهم فتوجه علي الصغير هو وجماعته وأرفاقه لمزرعة مشرف وبقي كامن بها لوقت الميعاد الذي صار بينهم وبين الامرأة يترقبون الاشارة من جهة الامرأة فعندما خلوا

العرايس بالعرسان وكل إنسان توجه لمحله وهدأت العيون قامت الامرأة وعملت له الاشارة فنزلوا من المزرعة قاصدين دار شكر (٢) فدخلوا الدار ولم يتركوا بها من ينفخ النار ، وعند صفو الليالي يحدث الكدر ، ومن سن سيف البغي قتل به وبشر القاتل بالقتل ولو بعد حين

حكم الاله قضت بأن لو قد بغى جبل على جبل لدك الباغي

ودوام حال من المحال ومصباح ذاك النهار جلس علي الصغير مكان شكر (٢) بحكم في البلاد فأرسل استحضر والدته وأقام بالبلاد وهو فرد وعائلته لم يكن منها أحد غيره

فهذا مختصر مسألة نهاية الشكرية ، فتوطد الأمر لعلي الصغير (٣) — من هنا افترقت عائلة بيت حرب — فأعقب بأولاد أنجبهم حسين ، وحسين أعقب بنصار ، ونصار اعقب بأحمد ، واحمد اعقب بمشرف ، من هنا افترقت عائلة بيت واكد ، ومشرف اعقب بأنجب أولاده نصار ، ونصار اعقب بأحمد ، واحمد بحمدان ، وحمدان بحسين ، وحسين بأحمد ، وأحمد بنصار ونصار تخلف بثلاثة ذكور نجباء الذي منهم العائلة الآن ، وهم محمد النصار ، وحسن النصار ، ونصار النصار ، فنصار تخلف بناصيف ، ومحمود ، وضاهر ومراد . (٤)

ما يلاحظه الباحثون

١ — ولكن شبيب باشا الأسعد يتجاهل — ص ١٧ من ديوانه — خبر قتل الشكريين لوالد علي الصغير كما يتجاهل ضمناً خبر استئصالهم لعشيرته ولايبعد ان يكون هذا الافتراض من قبل آل الصغير تبريراً لما ارتكبوه مع الشكرية من اخطاء مريعة يمقتها الشرع وتأباها المروءة لأنا لم نجد له

مصدراً تاريخياً عند غيرهم من المؤرخين ولو صح لتعرض له الجميع واشتهر كما اشتهرت هذه الواقعة حتى جعلها بعضهم تاريخاً لابتداء حكم بيت علي الصغير كما يروي الشيخ حيدر رضا الركيبي في مذكراته — وهو من المعاصرين لناصيف النصار .

* * *

٢ و٢ ولعل القارىء يلاحظ هنا ماالاحظه في مفاد هاتين الجملتين من ان المراد بلفظة شكر هنا هو اسرة آل شكر لا فرد منها بعينه ، وبلفظة علي الصغير هو الاسرة بجميع أفرادها لا شخص معين منها ولا يبعد أن يكون هذا المراد وهذا الاصطلاح عاماً لدى رواتنا المتقدمين .. وعليه فلا يجب ان يكون بطل النكبة الشكرية .. شخص اسمه علي الصغير ، كما يذهب إلى ذلك جل المؤرخين والقصاص من أبناء عاملة الكرام :

* * *

٣- يعترضك من المحطوطة أثناء هذا السطر ، التعليق التالي : « ومن هنا افترقت عائلة بيت حرب » ونحن مع احترامنا للراوي — لا ندري كيف نصحح هذا التعليق او هذا الزعم مع الاطمئنان لصحة الكلمة المتقدمة عليه وهي قوله (ومصباح ذلك النهار جلس علي الصغير مكان شكر يحكم في البلاد فأرسل استحضر والدته واقام وهو فرد ، وعائلته لم يكن منها أحد غيره

* * *

(٤) — يصرح الركيبي في العرفان م ٢٨ ص٩٥٣ والعلامة الأمين في اعيان الشيعة م ١٥ ص ١٠٥ والعلامة ظاهر في العرفان م ٨ص ٤٣٤ ويذهب الجميع الى ان حادثة علي الصغير مع آل شكر كانت سنة ١٠٥٩ هـ

وعليه فان المعنى في سياق هذه القصة - قصة نسب آل الصغير- يرى انه بين علي الصغير هذا الذي قوّض حكم آل شكر سنة ١٠٥٩هـ وبين حفيده ناصيف النصار الذي كان حاكما سنة ١١٦٣ هـ احد عشر جداً أو جيلا في حين انك لا ترى بين علي الصغير هذا وجد الاسرة الأول (وائل بن ربيعة) أكثر من ثلاثة عشر جداً أو جيلا ؟ فكيف نتصور ونستسيغ ان يتوالى احدى عشر جداً أو جيلا في مدة لا تزيد عن ١٠٤ سنوات بينما لا يتوالد في مدة تبلغ ١٣٠٠ سنة — على اقل افتراض — اكثر من ١٣ جداً أو جيلا ؟؟ أليس في هذا ما يدعو إلى الشك والتساؤل ؟

قصة علي الصغير كما يرويها شبيب باشا الدسعد

يقول شبيب باشا ص ١٦-١٨ من ديوانه « كان على عهد الملك المجاهد السلطان صلاح الدين الايوبي ، جاء من بادية نجد جدنا محمد بن هزاع الوائلي القحطاني من رؤساء قبائل عنزة بجيش من اعراب بوادي قبائله إلى بلاد جبل عامل بالديار الشامية (١) فدخل هذه البلاد والامير عليها يومئذ بشارة بن مقبل القحطاني (وهي تعرف من عهده حتى اليوم ببلاد بشارة) فساق عليه حربا قام بينهما على ساق وما انتهى إلا بالغلبة على بشارة فاستولى جدنا على البلاد وحكمها وتزوج ببنت بشارة وأجرى عليه معاشاً يقوم بأوده إلى ان توفاه الله (فهو جدنا لجهة الام) (٢) وبقي جدنا محمد بن هزاع اميراً بها مدة حياته وبعد وفاته تلقاها ابناؤه وابناء ابنائه يقوم بها الولد بعد ابيه وما برحوا إلى ان افضت حكومة البلاد إلى احمد بن مشرف الوائلي (خلاف مشرف الثاني) ثم توفاه الله ولم يكن إذ ذاك في ذلك البيت رجل يقوم مقامه فترك زوجته بحال الحمل وكان تزوجها من بني عمومته وهم بني سالم

المعروفون بالسوالمة فخذ من افخاذ عنزة فجاء اخوتها وحملوها اليهم وكانت منازلهم يومئذ بأطراف بادية الشام مما يلي نجد فولدت غلاما وحيث كان لها اخ غائب اسمه علي ، وكان إذ ذاك بديار اليمن لأمر من مهمات شؤونهم ولم تره منذ جيء بها وقد طال غيابه ولها شغف به ، فسمت ابنها علي ، وعرف عنه بالصغير للفرق بين اسمه واسم خاله ، فكان يقال له علي الصغير فشب الغلام وامتاز بالنجابة عن اقرانه وما صار في الخامسة عشر من عمره حتى صار له مقاماً بفل المشكلات بين القبائل وقد بلغ اشده ووقف على حقيقة امره وأمر أبيه الذي كان حاكم بلاد جبل عامل وانه توفي عن والدة وهي بالحمل به وقد انبته امه انه بعد ان خلت البلاد منهم تمردوا جماعة من وجوهها يقال لهم بنو شكر واصبحوا يتصرفون بالاحكام بها وأن سيرتهم قد ثقلت بالبلاد لما سلكوا به من الجور والتعسف وإن العموم هم خلو البلاد من حكم هذا البيت في غاية التأسف ، ويتمنون بلوغك من العمر منزلة تعينك على العود لحكومة ابيك وجدك وانقاذهم من جور الظلمة المتسلطين عليهم (٣) فحركته الأريحية والشهامة هنالك وسألها عن الذين كان لهم قرب حظوة وخلوص انتباه لدى ابيه فأخبرته عن رجلين من وجوه البلاد فجهز قوماً من بني رحمه ونهض بهم وسار قاصداً تلك البلاد إلى ان دخلها وارسل الخبر إلى ذينك الرجلين فعندما وافاهما خبره هاما على وجهيهما لاستقباله فرحين ولما لقياه قصا عليه قصص ماهي عليه حالة البلاد من الضنك والتلهف على لقائه وان العموم ما انفكوا يتذاكرون أيام أبيه ومن سلف من هذا البيت واخبراه ان هؤلاء الجماعة في هذه الأيام مشغولون بأهراس وأفراح منعقد قسم منها بنفس تبنين وآخر بقانا ، فتقرر امره على أن ينقسم جمعه إلى فرقتين كل فرقة تفاجيء موقعاً من الموقعين ، وقد كان اجتمع إلى

جموعه جمهور من البلاد بطريقه ففعلوا ذلك ، وقد قابلوا أولئك الجماعة مفاجأتهم هذه فدارت عليهم الدائرة واستولى على البلاد ، وقطع بيد هوزنة الله منها دابر الفساد وما زال بحكومتها وعنه تلقاها بنوه ثم عندما أشرقت شموس الدولة العلية الشأن أعظم دول الزمان دولة آل عثمان خلد الله سرير ملكها لآخر الدوران واستولت على هذه الديار الشامية وقد كان خضع لشأن حضرة ساكن الجنان السلطان سليم خان الثاني وبقي من طرف الدولة العلية على حالته السالفة (٤)

ما يلاحظه الباحثون

١- لا أدري بما نفسر هذا القول ؟ وإن أيسر نظرة في تاريخ العرب وانساب القبائل تعرفك أن- وائل - ابا القبيلة المنسوب اليها جد المؤلف هو ابن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، من العدنانيين لا من القحطانيين كما يذهب اليه المؤلف هنا ، ثم يؤكده ص ١١٩ من هذا الديوان برأي عمه حمد البيك ، ثم ان وائل .. هذا هو كما ينص عليه كتاب المفصل ص ١١ اخو عنزة لا من ذريته ليكون محمد بن هزاع الوائلي من رؤساء قبائل عنزة ؟؟

٢- ولكن العلامة السيد محسن الأمين يقول في أعيان الشيعة م ١٥ ص١٠٣ مانصه : « أما مايقوله بعض أفراد عائلة آل الصغير من أن اسم جدهم محمد بن هزاع ، وانه جاء إلى بلاد عاملة والأمير عليها بشارة بن مقبل من قبل صلاح الدين الأيوبي وهو الذي تنسب اليه بلاد بشارة فحاربه هزاع وغلبه وتزوج ابنة بشارة وأجرى عليه معاشاً حتى مات ، فلا يستند إلى مأخذ وما هو إلا نوع من الأقاصيص التي تخرجها المخيلات »

ويقول الاستاذ الشيخ سليمان ظاهر ص٤٤٥ من العرفان م٣٤ « وأمة

ما جاء في العقد المنضد من نسبة البلاد إلى الأمير بشارة بن مقبل القحطاني فلم نجد له على كثرة المراجعة ذكراً وهو اشبه بأن يكون شخصاً أسطوريا

٣ – تأمل هذا الحديث ولاحظ أن الفترة التي حكم فيها آل شكر هم – على أيسر افتراض – من أوائل القرن الحادي عشر إلى نهاية العقد السادس منه، ثم لاحظ أن مابين هذه الفترة من الزمن وبين عهد صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٢ هـ ما يزيد على أربعة قرون، فكيف نتصور ان عشيرة تسود البلاد بعددها وعديدها زهاء اربعة قرون وعندما يموت رئيسها لايبقى منها ما يقوم مقامه سوى هذا الجنين (علي الصغير) الذي ولدته امه في البادية في حوران – كما هو شائع على السنة الناس – ونشأه الرواة والمحدثون كما ينشأ أبطال القصص وأبناء الأساطير، أرجوحة للخيال ومحوراً للصدف.

(٤) إن العثمانيين لم يحتلوا الأقطار السورية إلا سنة ٩٢٢ هـ وحكم آل شكر إنما تلاشى في نهاية العقد السادس من القرن الحادي عشر سنة ١٠٥٩هـ – على أرجح الأقوال – فكيف صح مع هذا أن يقول المؤلف أن علي الصغير قضى على آل شكر واستولى على البلاد واستقل بحكومتها وعنه تلقاها بنوه إلى أن دخل السلطان سليم الثاني وخضعوا لحكمه وأبقاهم في محلهم من حكم البلاد ؟

٥ – هذا وإن من يطالع رواية الحاج محمد سهيل ورواية شبيب باشا الأسعد – على اتحادهما عصراً ونسباً وغاية – يرى اختلافاً كبيراً بينهما في التصميم وفي الاسلوب وفي اجمال الحادثة وتفصيلها، إلى غير ذلك من الفوارق البينة، وانه لفرق كبير – في الدلالة على الصواب والخطأ – بين ان يكون اسم جدهم الأعلى أحمد بن حوبشان كما يقول سهيل، أو محمد

ابن هزاع كما يقول الأسعد، وبين أن يكون الأمير الذي خلفه جدهم في الحكم هو بشارة المعني كما يقول سهيل أو بشارة بن مقبل القحطاني كما يقول الاسعد، وبين أن يكون الأمير بشارة قد تحبب إلى جدهم واستمال اليه كما يقول سهيل، وأن يكون جدهم قد فاجأه بالحرب وغلبه كما يقول الاسعد وبين ان يكون هذا الأمير قد تقرب إلى جدهم بالمصاهرة كما يقول سهيل، وان يكون جدهم قد اخذ ابنته قسراً واغتصابا كما يقول الاسعد، وبين ان يشير المحدث إلى المسافة بين جد الاسرة الأول وبين علي الصغير بطل القصة كما في رواية سهيل، وأن تهمل الاشارة ويجهل مدى الزمن بينهما كما في رواية الاسعد، وبين ان يتوفى والد علي الصغير ولا يبقى في عشيرته من يقوم مقامه فينقلب الشكرية ويتفردوا في الحكم كما في رواية الأسعد وان يقتله الشكرية ويستأصلوا عشيرته ثم يستولوا مكانهم كما في رواية سهيل، وبين ان تكون ام علي الصغير من السوالمة كما يروي الأسعد، وان تكون مجهولة الهوية كما يروي سهيل، وبين ان تذهب أم علي الصغير مع اهلها من السوالمة عزيزة مكرمة كما يروي الأسعد، وان تذهب إلى حوران متنكرة لتخدم وتعيش مع طفلها كما يروي سهيل، وبين ان يرجع علي الصغير مع اخواله السوالمة وينضم إليهم جمهور من ابناء عاملة فيهاجم بهم الشكرية في قانا وتبنين معاً كما في رواية الاسعد، وأن يعود وحده يبحث عن خواص ابيه وامرته ويسعى لتأليف عصابة منهم فينضم اليه نحو مائة رجل يكمن بهم في مزرعة مشرف ليباغت الشكريين هجماً في قانا كما في رواية سهيل، وبين ان يجعل زمن الحادث قبل دخول العثمانيين سورية كما في رواية الأسعد، وان يهمل كل هذا كما في رواية سهيل.

قصة علي الصغير كما يرويها العلامة الامين

يقول العلامة السيد محسن الأمين ص١٠٣ م١٥ من أعيان الشيعة «واصل آل علي الصغير من عرب عنزة من بني سالم المعروفين بالسوالمة جاء جدهم إلى جبل عامل وتحضر واتصل بالحكام وحارب معهم وصارت له عندهم مكانة انتهت إلى الامارة في البلاد إلا ان اسمه ومبدأ امارته فيها لا يزال مجهولا ، والذي يظن كما قال بعضهم ان حكمهم بعد حكم بني سودون الذين كانوا من جهة نواب دمشق المنصوبين من ملوك مصر المماليك الأتراك (١) حوالي سنة ٧٠٠ هـ أما بشارة التي تنسب اليه بلاد بشارة فالظاهر ان بشارة بن اسد الدين بن عامر العاملي السبأي الذي كان في عصر صلاح الدين وحضر معه فتح هونين واقطعه خيط بانياس وحضر معه فتح السواحل الشامية ، واستمر حكمهم في بلاد بشارة إلى ما بعد الألف فتغلب عليهم الشكريون وهم سادة اشراف لا تزال ذريتهم في جبل عامل إلى اليوم بعد حرب جرت بينهم وقتلوا رئيسهم ورجال عشيرته (٢) وهربت زوجته التي كانت حاملا إلى بني عمها السوالمة وولدت ذلك الغلام عندهم في البادية وسمته علياً باسم اخيها الغائب وعرف بالصغير تمييزاً له عنه أو عن آخر منهم كان قبله فلما بلغ علي الصغير الخامسة عشرة من عمره صار له مقام سام بين القبائل وكان قد علم من والدته وقومه ان أباه كان امير بلاد بشارة وان الشكريين قتلوه واستولوا على ملكه فحركته همته إلى الأخذ بالثأر واستعادة ملك آبائه وأجداده ، فسأل والدته ممن كان من خواص أبيه من وجوه تلك البلاد ، فأخبرته عن رجلين فراساها وأخبرهما عن عزمه ففرحا بذلك واخبراه انهما ورجالهما طوع اشارته ، وان اهل البلاد عموماً يتمنون

عوده اليهم ليخلصهم من ظلم الشكريين ، فانهم كانوا قد ظلموا كثيراً وساءت سيرتهم ، فنهض بشجعان قومه السوالمة إلى أطراف البلاد وجاءه ذانك الرجلان ومن ألف لفيفها واخبراه ان الشكريين مشغولون بإقامة افراح وأعراس قسم منها في عيناثا والقسم الآخر في قانا فقسم رجاله إلى فرقتين كل منهما تهاجم موقعاً من الموقعين وكان قد انضم اليه جمع كثير من أهل البلاد فهاجم رجاله الشكريين في البلدين حال اشتغالهم بالأعراس وجرت بينهم حرب كانت فيها له الغلبة على الشكريين فقتلهم وأبادهم وأخذ ثاره منهم وعادت افراحهم اتراحاً واستولى على البلاد وكانت هذه الوقعة سنة ١٠٥٩ هـ وابلى في هذه الوقعة ابو شامة العاملي مع علي الصغير بلاءاً حسناً وهو جد الطائفة المعروفة بآل شامي في بنت جبيل وعثرون ، والقبور التي في رأس العقبة بين عيناثا وبنت جبيل هي من قبور من قتل في تلك الوقعة ، واستمروا في الامارة إلى سنة ١٢٨١ ولا تزال الوجاهة والرياسة في أعقابهم إلى اليوم ومدة ملكهم إذا صح انهم ملكوا حدود سنة ٧٠٠ نحو ٥٠٠ سنة (٣) لم يتخللها إلا حكم الشكريين وهو لا يصل الى ٢٠ سنة بل دونها »

ما يلاحظه الباحثون

(١) لا ندري ما هي علاقة سودون وابناء سودون في جبل عامل وحكمه وسياسته ؟ ولا نعلم ما قيمة المستند التاريخي الذي اعتمده صاحب الاعيان وغيره من القائلين بهذا القول . . وكل ما قرأناه في المجلد الثاني من خطط الشام قوله ص ١٥٨ وفي سنة ٧٨٧ « امر السلطان برقوق ، نواب الشام بالتوجه إلى قتال سولي بن دلغادر ومن معه من التركمان فوصلوا إلى طيون وهي بين مرعش والبستين فالتقى بهم سولي فقتل (سودون

العلائي) نائب حماة في المعركة ، وكذلك (سودون نائب بهنى) فبلغ السلطان ذلك فشق عليه ولم يزل يعمل الحيلة حتى دس على سولي من قتله وقتل اخاه

وقوله ص ١٦٣ (وفي سنة ٧٩١ خرج بليغا الناصري نائب حلب عن الطاعة وقتل (سودون المظفري) الذي كان نائب حلب قبله وقتل اربعة انفس من مماليك سودون

ثم قوله ص ١٦٥ « وفي هذه الأثناء (سنة ٧٩١) ركب مماليك نائب حماة (سودون العثماني) مع عسكر حماة وارادوا قتله فهرب إلى دمشق »

ثم قوله ص ١٦٥ « وفي سنة ٨١٧ خلع – الملك المؤيد شيخ المحمودي على الامير سودون بن عبد الرحمن واستقر به نائب طرابلس »

كما قد قرأنا في الطبعة الاولى من تاريخ صالح بن يحيى التنوخي ص٥٧ وفي الطبعة الاولى من تاريخ الغرر الحسان ص ٥٠٧ : وتاريخ الازمنة ص ١٩٤ : ان سودون الظريف ابن اخت الملك الظاهر برقوق اصبح نائباً على الكرك في شرق الاردن سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) ثم نائبا عن دمشق سنة ٨٠٢ (١٤٠٠ م)

فأي سودون من هؤلاء النواب نحتمل ان يكون جداً لبني سودون المزعومين في حكام جبل عامل . . فإن ابتداء تاريخه السياسي متأخر – كما ترى – عن تاريخ نهاية حكم بني سودون في جبل عامل سنه ٧٠٠ هـ (الموافق لسنة ١٣٠٠ م) على ما يقوله صاحب الاعيان : وان هذا العصر (بين سنة ٧٠٠ و٨٠٢) هو عصر بني بشارة في زعامة جبل عامل على ما يذهب اليه (بولياك) صاحب كتاب الاقطاع في مصر وسوريا وفلسطين وعلى ما اثبتناه فيما تقدم من الكلام عن بني بشاره العامليين

(٢) وهذا يخالف ما تقدم من قول المؤلف « إلا ان اسم جدهم ومبدأ

امارته فيها لا يزال مجهولا » ويخالف ما ثبت بالنصوص التاريخية من ان آل شكر كانوا حكاماً في جبل عامل منذ عرف التاريخ آل الصغير وآل منكر

اما إثبات أي الاسر أقدم في الرياسة فلا تزال المصادر الميسورة لمثلنا عاجزة عن البت في مثله ، وان اشعرنا الصفدي في تاريخ الامير فخر الدين المعني ان آل شكر كانوا – بين سنة ١٠٢١هـ و١٠٢٧ – أشد بأساً وأمنع جانباً من غيرهم في البلاد ، وصرح الركيني في مذكراته – المنشورة في العرفان م ٢٨ ص ٩٥٢ – بما نصه : «تاريخ ابتداء أول حكم بيت علي صغير من وقعة عينانا سنة الف وتسعة وخمسين إلى يوم قتل ناصيف النصار يوم الاثنين خامس شوال سنة الف ومائة وخمسة وتسعين (مائة وستة وثلاثون) هذا مدة حكمهم »

(٣) وعلى كل فإن رواية صاحب الأعيان أرجلها ملخص عن روايتي سهيل والأسعد وربما كانت أكثر تمشياً مع رواية الأسعد وأدنى إلى خيالها ومنطقها لولا هذا التفاوت في الرأي وهذا الشك في بعض ما ذهب إليه الأسعد والاطمئنان إلى غيره من الأقوال المرجوحة

ومما يلفت النظر في هذا التلخيص أن السيد أخذ بقول سهيل عن سبب تغلب الشكريين على آل الصغير ، وأخذ بقول الأسعد من الخطط المكشوفة والوسائل المرتجلة التي استعملها آل الصغير للقضاء على وجوه الشكريين ، مع انه لو خالف فاعتمد قول الأسعد عن سبب قتل الشكريين واعتمد قول سهيل عن الأسلوب المركز والوسائل الخفية التي يتناسب اتخاذها مع حال المستضعفين كآل الصغير للاذالة من الأقوياء الحاكمين كآل شكر يومئذ . . لكان بذلك أدنى إلى فحوى النصوص والقرائن وأبعد عن الاغراب والافتراض البعيد .

فمن المألوف عرفاً عندما يموت زعيم في اسرة أو في قرية أو في منطقة ما – ولا يكون فيها من اصحاب الكفاآت والمؤهلات للزعامة من يسد مسده – ان يتوجه الناس بنظرهم إلى من يعتدون باهليته أو بشهرته أو بقوته وجاهه من الزعماء الآخرين في غير الاسرة أو غير القرية أو غير المنطقة ولو كان هذا الزعيم الآخر معاوضاً في سياسته لسياسة الزعيم الاول ، لان الناس في كل عهد ولا سيما العهود الاقطاعية بحاجة إلى من يحميهم بعضهم من بعض ويحل مشكلاتهم على نحو يرضي الجميع أو يسكتهم والى من يجمع كلمتهم لدى الخطوب الطوارىء ويوحد قوتهم في وجه العدوان من اي الجهات اتى ، او لأنهم يخافون ان تطغى عليهم قوة هذا الزعيم الآخر وان يؤخذوا باساليب انتقامه إذا ما خلاله الجو ولم يكونوا موالين لحكمه ومذعنين لارادته سلفا ، وهذا ما يتسق تماماً مع قول الاسعد (بأن وفاة زعيم آل الصغير وعدم وجود من يقوم مقامه في الاسرة كان سببا لتغلب آل شكر واستئثارهم بحكم البلاد :

أما ان يقتل الرئيس اغتباطاً وتستأصل عشيرته لتفضي الرياسة إلى قاتليه ؟ فذلك من خوارق العرف والعادة ومن الاساليب التي ينكرها الناس اذكياءهم واغبياءهم

ثم من المحتمل المألوف ايضا ان يكون هذا الفتى الموتور من آل الصغير قد استغل بعض المناسبات التي كثر فيها المتذمرون من حكم الشكرية – وما اكثر تذمر الناس من الحكام – اما لظلمهم واستئثارهم واما لتقريب اخصام المتذمرين اليهم أو مساعدتهم عليهم أو تمييزهم بالحفاوة واختصاصهم بالاحسان ، فاتصل باولئك المتذمرين وألف منهم عصابة قوية واستعمل نفس الاسلوب الموكز ونفس الوسائل الخفية – التي تحدث عنها سهيل –

للقضاء على الشكريين والسيطرة على مقاطعاتهم :

اما ان يرتجل الوسائل ارتجالا ويهاجم الشكريين وجهاً لوجه بثلة من المتذمرين وثلة من السوالمة كما يقول الأسعد . فليس في هذا الارتجال من الحزم ما يضمن له السلامة أو يدنيه من المطلوب في ذلك العهد الذي بلغ من قوة الشكريين فيه ومن حذرهم واعتدادهم ما جعلهم يردون مباغتة المعنيين لهم بخمس مائة جندي منظمين مستعدين للبطش والقتال . باعنف الردود وارهبها منطقاً :

المقدر على ضوء القرائن والنصوص

... وبعد فإن اختلاف الرواة من آل الصغير وغيرهم في هذا كله وتباين آرائهم في جمله ومفصله قد يقوم مقام الدليل على شك القوم بالحقيقة التاريخية أو على الجهل المزمن بواقع قصتهم ونسبهم مما يضطرنا – من حيث نريد ولا نريد – إلى البحث عن الواقع التاريخي لهذه القصة وإلى استنطاق الحوادث والظروف والقرائن التاريخية عن العوامل الأساسية التي تمكن بها آل الصغير من استئصال نفوذ الشكريين .

فنحن إذ نستقرىء شيوع هذه القصة بين الجمهور أو نستوحي تنافس آل الصغير في حفظها وتناقلها على ما في نهايتها من عسف وتنكيل وصور منكرة لا بد لنا – مهما تداولها من خطأ وافتعال وتناقض – من الاعتقاد بأنها كانت وما برحت ترتكز على حادث خطير وحقائق مرة لا مجال لانكارها

ونحن إذ نطمئن للوثائق التاريخية التي تدل بصراحة تامة على ان آل الصغير كانوا ينتسبون إلى علي الصغير قبل وقوع هذه الواقعة بزمن بعيد، والتي تنص على ان كلا الرئاستين في بيت شكر وبيت علي الصغير كانتا

موجودتين في آن واحد .. نجنح إلى القطع بكون بطل الحادثة من آل الصغير هو غير هـــذا الذي تنمى اليه الامرة كما يزعم الرواة ، ونلجأ إلى الاعتقاد بأن سبب هذه الحادثة هو غير ما يفترض من قيـــام زعامة آل شكر على انقاض زعامة آل الصغير ، ثم نميل إلى الشك والريب بأن يكون آل الصغير اقدموا على مثل هذه المجازفة والعمل الفظيع قبل أن يستشعروا بانحراف أولي الأمر – من ولاة الأتراك أو الحكام الوطنيين – عن زعماء آل شكر ، أو قبل أن يطمئنوا إلى تأييد هؤلاء الحكام والولاة لهم فيما يضمرونه لأخصامهم أو يحاولون ادراكه ، أو قبل ان يتبرعوا لهؤلاء الحكام سلفاً بمـــا يرضي ميولهم من مسالك حزبية ، أو تعهدات سياسية ، أو ضمانات مالية .

ذلك بأن العهد الاقطاعي – وإن يكن عهد استبداد وفوضى وعسف – لم يكن خالي الوفاض من قواعد رئيسية نافذة الحكم ، ومن أصول مرعية محترمة لدى الحكام الكبار والصغار فلم يكن يباح في العهد الاقطاعي لأحد من الناس بالغاً ما بلغ من القوة ، أن يستولي على مقاطعة من المقاطعات بدون ضمانة مالية تؤدى للحاكم العام أو لوالي الايالة ، أو بدون تعهدات وشروط خاصة تفرض على ملتزم المقاطعة من قبل الولاة والحكام ، مثل ان يقدم لدى الحرب كمية معلومة من الرجال والعتـــاد ، وأن يؤيد بجهده مبول السلطات العليا في السياسة الداخلية والخارجية (١) ، وكذلك لم يكن يباح في العهد الاقطاعي – لمن هم في رتبة المقدمين والمشايخ أن يحكموا بالقتل على أحد من المجرمين ، وإنما كان ذلك من خصائص الحاكم العام أو والي

(١) راجع ص ٩٨٩ من تاريخ الامير حيدر طبع مصر ؛ وص ٧٠٩ من العرفان م ٢٦ عن شروط سليمان باشا ثم عبد الله باشا على الشيخ فارس الخاصيف وبقية المشايخ

الايالة وقاضيها الرسمي (١) ، فكيف يقتل الابرياء ؟ وكيف بالقضاء على امرة كبيرة ، فيها العجزة وفيها الأطفال ، وفيها الأبرياء ؟ ثم الاستيلاء على ملكها ومقاطعاتها جهراً ؟

فهل يعقل مع وجود هذه القوانين المرعية أن يكون آل الصغير – مهما بلغ من تمافتهم على الحكم ومن استباحتهم لكل شيء في سبيل الرئاسة – أقدموا على ما أقدموا عليه وهم يدرون التمرد على هـذه القوانين المحترمة وعلى ما يحميها من قوى الدولة وقوى الامراء المسيطرين على ماحولهم ؟؟

وهل يتصور انهم حاولوا ما حاولوه – بهذا الاسلوب الذي يدل على شعورهم بالضعف تجاه قوة اخصامهم من الشكريين – وهم يشكون برضى الحكام ؟ او يرتابون بتأييد الولاة لكل ما يضمرونه للشكريين ؟؟ وقد رأينا ما حل بمشايخ الكوثرية سنة ١٠٢٢ هـ يوم حاولوا التمرد على مثل هذه القوانين وما حل بالشيخ مشرف الصغير سنة ١١١٠ هـ وسنة ١٠٩٩ هـ على ما رواه الاستاذ ظاهر عن بعض المخطوطات القديمة يوم قبض عليه عبدون باشا والي صيدا لظلمه وقتله مشايخ القرى في غار المزرعة حيث لم يطيعوه في بعض الامور (٢)

مما يقوي الظنون

وهناك من الاعتبارات الجديرة بالبحث والتفكير ما يقوي هـــذه الاحتمالات والظنون

منها : ان آل شكر كانوا موضع نقمة الأمير فخر الدين المعني دون آل الصغير ، كما يستفاد من تاريخ الحوادث بين سنة ١٠٢٣ و ١٠٢٧ هـ

(١) الدواني ص ٢٤٨ : ولبنان ص ١٤٤
(٢) العرفان م ٨ ص ٥٢٦ :

ومنها : ان الفترة التي تضعضع بها آل الصغير ، وصفا بها الجو لآل شكو ، هي كما يستفاد من فحوى القصة — نفس الفترة التي تقوض بها حكم الامير فخر الدين واستولى مكانه في حكم البلاد الأمير علي علم الدين اليمني الذي حاول استئصال المعنيين وانصارهم من القيسية كما يبدوا من اغتياله للأمراء التنوخيين في قرية (عبيه) لأنهم كانوا يميلون للمعنية ؟

ومنها : ان لا يتسنى لآل الصغير ان يظهروا وان يقضوا على الشكرية إلا حين تسنى للأمير ملحم المعني — بطل واقعة أنصار — ان يثبت لحصه ابن علم الدين وان يثبت قدم المعنيين في الحكم ويعزز انصارهم على اخصامهم

ويدلنا على تسلسل هذه الحوادث وارتباطها ببعضها .. ميل اكثر المؤرخين العامليين إلى ان واقعة آل الصغير مع الشكرية كانت سنة ١٠٥٩هـ ثم اتفاق جميع رواة القصة على ان بطل الواقعة من آل الصغير كان جنيناً في بطن امه يوم تلاشى نفوذ آل الصغير وتمادى الشكريون في بسطرتاستهم وانه كان في دور المراهقة (بين سن ١٤و١٦) يوم قضى على آل شكر واستأصل حكومتهم ونفوذهم سنة ١٠٥٩هـ وعليه فإذا أسقطنا من الغلام المراهق (١٤أو١٦) من ١٠٥٩ يكون الوقت الذي تغلب فيه آل شكر هو بين سنة ١٠٤٣ و١٠٤٦ هـ وهو ما يتسق تماماً مع الزمن الذي انتقل فيه الحكم لابن علم الدين خصم المعنيين الألد ، ثم يكون الوقت الذي قضى آل الصغير على آل شكر سنة ١٠٥٩ هـ مما يتفق مع الوقت الذي تسنى فيه الحكم للأمير ملحم المعني الموتور من ابن علم الدين ومن المؤيدين لسياسته .

وعليه فهل يبعد على السياسة الاقطاعية لذلك العهد ان يكون اخصام ابن علم الدين من المعنيين في لبنان ومن احلافهم الشهابية في وادي التيم قد عززوا حقد آل الصغير على الشكريين لتفرد هؤلاء في حكم بلاد بشارة في

عهد خصمهم ؟ وهل يبعد على المعنيين والشهابيين ان يمدوهم بشيء من قوام الحربية وان يضمنوا لهم رضا الولاة الأتراك ، ليشفوا غيظهم من الشكريين أو ليقضوا على مستقبل خصمهم الألد بالقضاء على أشياعه وانصاره

وقد كان الحكام يومئذ ينتصرون لمن يحالف خصمهم ، فإن العساقيين وبني سيفان ، حكام طرابلس والشمال — عضدوا مظفر اليمني شيخ عين داره والأمراء آل علم الدين ، ومقدمي بني صواف ، والامراء الحرافشة وأمراء رأس نحاش وغيرهم من مشايعي اليمنيين تشفياً من المعنيين وحلفائهم من القيسيين (١)

التفاوت بين الموجبات

هذا وما يحتمل ان يقال في موقف آل الصغير من الشكريين في عهد الأمير ملحم المعني قد يحتمل ويقال في موقف الشكريين من آل الصغير في عهد الامير علي علم الدين لولا هذا التفاوت بين الظروف والبواعث والنزعات

فالتاريخ لا يشعرنا بأن آل الصغير كانوا موضع نقمة آل علم الدين قبل ان يتخاصموا مع المعنيين لتطغى نقمة ابن علم الدين عليهم لدى تغلبه على المعنيين ويساعد على استئصالهم ، كما يشعرنا بأن آل شكر كانوا موضع نقمة المعنيين قبل أن يصطدم هؤلاء بابن علم الدين وقبل أن يؤازره العامليون — من شكرية ومناكرة — على المعنيين في وقعة انصار (سنة ١٠٤٨هـ) كما يستفاد من أقوال المؤرخين في هذا الحادث .

والتاريخ لا يوحي لنا بأن آل الصغير استطاعوا في عهد المعنيين الأول ان يستأثروا بحكم بلاد بشارة دون الشكريين ليوغروا صدور هؤلاء حقداً

(١) دوال القطر

ومقتاً وجزعاً ويلجئوهم – عند سنوح الفرص – إلى التخلص منهم بهذه الأساليب والصور التي تمثلت بقصة علي الصغير كما استطاع آل شكر ان يفضوا من جماح آل الصغير وان يكبتوا عنجهيتهم وينفردوا بحكم البلاد حين دانت الأمور لابن علم الدين واليمنية اجمع سنة ١٠٤٣ هـ

والتاريخ لا يشعرنا بأن آل الصغير كانوا مظنة للخطر على نفوذ آل شكر بل يشعرنا بأن آل شكر كانوا أشد بأساً وأمنع جانباً وأرسخ قدماً في الرياسة من آل الصغير في عهد الأمير فخر الدين فكيف يكون حالهم من الاعتداد بسطوتهم والاطمئنان إلى واقعهم والاستخفاف بمناهضيهم من آل الصغير بعد انهيار حكم الأمير فخر الدين، وسيطرة حليفهم ابن علم الدين مكانه وتضامن آل منكر معهم في النقمة على المعنيين ومشايعة أخصامهم

وحسب هذه الاعتبارات والحيثيات والظروف التي اكتنفت سياسة الشكريين أن تميزهـــا عن سياسة آل الصغير وأن تضفي عليها من وحي الفطرسة والغرور ما يفضي بآل شكر إلى الاستهتار وعدم الاكتراث بشأن مناهضيهم من حيث تضاعف حنق آل الصغير عليهم وتنمي الشك بهم والخوف منهم إلى ان تسوّل لهم نفوسهم ماسولته بذلك الحادث الغريب والمأساة الدامية حين تغلب الأمير ملحم واتسقت الامور للمعنيين وتسنى لأخصام الشكرية ان يظهروا ما يبطنونه

أثر هذا الحادث في السياسة العامة

من طبيعة الحوادث الفظيعة أن تزعزع أمل الناس بعطف الأقوياء وبحلمهم عند المقدرة، وأن تنمي فيهم بواعث الحقد والمقت والنقمة على مرتكبيها ومدبري خططها.

ومن لوازم هذه الأحوال والأجواء المكفهرة التي تحدثها الاغتيالات والمفاجآت العنيفة أن تشعر القادة الظافرين بما يبدوا على وجوه الناس من مخض الفاجعة، وعلى أقوالهم من اصطناع الرضا، وعلى أفعالهم من تكلف الطاعة، أو تقنعهم بأن ما يرونه من الاذعان لأوامرهم أو الانقياد لحكمهم أو المحافظة على رضاهم، إنمـــا هو بدافع الخوف من بطشهم، والعجز عن مقاومتهم، أو الشك بمساعفة الأقدار ومواتاة الظروف.

وعليه فما الذي نفترضه لسياسة هؤلاء المسيطرين بعد الواقعة؟ اتراهم بعد الظفر وبلوغ الغاية وشفاء الغليل فضلوا سياسة الرفق والتسامح والتقرب إلى الناس بما تطمئن اليه قلوبهم وينتعش أملهم وينسيهم هول الفاجعة؟؟ وهذا ما لا يحتمل إجراءه في مثل تلك العهود التي حلئت فيها الرحمة عن قلوب الأقوياء ولم يسيطر بها سوى العنف والاستبداد والمجازفة، وقد لا يلتئم مع الدوافع التي حتّمت لآل الصغير أن يفتكوا بالأبرياء والضعفاء والأطفال من السادة الحسينيين؟ – كما هو المعروف من نسب آل شكر – لأن الأخذ بسياسة الرفق والتسامح لا يبرد غلـــة الموتورين والناقمين من قلول الشكرية وأنصارهم، ولا يفل من غرب الطامحين والمعتدين بقوتهم ورؤسائهم وجدارتهم بالحرية والسيادة من أبناء الشعب، بل يفسح المجال لهؤلاء وهؤلاء لأن ينقووا ماديا ومعنويا، ولأن يستغلوا الفرص المواتية ويستعملوا نفس السلاح ونفس الوسائل التي تذرع بها آل الصغير للوصول الى ما وصلوا اليه من فتك واغتيال وغلبة

أم تراهم – وقـــد غلب على أفكارهم اليأس من حب الناس ومن رضاهم واثنائهم – آثروا سياسة الضغط والارهاب بشتى وسائله ومعانيه في داخل البلاد؟؟ وذلك أمر عسير لا يستتب لهم – مع نقمة الجمهور وحقده

واشمئزازه – إلا إذا اطمأنوا لقوى السلطات العليا في الخارج وارتاحوا لرضاء الولاة والحكام المسلطين أو رضى الأقوى فالأقوى – بما كابدوا في سبيل ذلك من تقلب الولاة واختلاف الحكام واضطراب الخطط ، وفي هذا مافيه من طبع السياسة العاملية بطابعين خطرين هما (١) الضغط والارهاب في داخل البلاد (٢) والانقياد لهؤلاء الحكام والولاة بكل مايفرضه الانقياد من خضوع وعبودية واستخفاف بالواجبات الوطنية أو ما كان يقوم مقامها من الروابط الاقليمية ، والحقوق الطائفية ، والمصالح العامة .

ولعل من يحسن الاصغاء إلى مفاد النصوص ومساق الحوادث في هذه الفترات التي كان يضطرب فيها نظام الحكم ويسود الارهاق والعسف ، ويكون آل الصغير منها في حال شك أو يأس أو خوف ، أو يكونون إزاء معارضة عنيدة تمتحن بها سجايا الرجال ، وعقلية الساسة وبراهين الاقوياء .. يميل إلى القول بأن سياسة الضغط والارهاب هي التي كانت تسيطر على أفكارهم وأعمالهم ومحاولاتهم .. وقد ينمو هـذا الميل عند من يستعرض تاريخ الخصومات والمعارضات الداخلية أو يتحرى الوسائل والأعمال والأساليب التي كانوا يتوسلون بها للسيطرة على أفكار العامة وانهاك المعارضة وانتهاك المعارضين .

هل قامت للشكريين قائمة فيما بعد ؟

يقول مؤلف جبل عامل في التاريخ ص ٤٩ من كتابه « قال مروة في رسالته : جبل عامل في قرنين ، وسنة ١٠٧٠ هـ كانت وقعة عيناثا ، وقال الشهابي في حوادث سنة ١٠٧١ هـ ، وفي هذه السنة قدم علي باشا الدفتردار إلى صيدا وهو أول من تولاها من الباشاوات ، وكانت فتنة عظيمة بينه

وبين مشايخ المناولة ، ثم يعقب المؤلف (ص ٥٠) على هذا بقوله « ومن المظنون وحدة ما ذكراه واشتباه أحدهما في التوقيت ، كما أن حدوثها في عيناثا يؤذن ببقاء زعامة بيت شكر إلى هذا التاريخ »

ولعل من يطلع اطلاع المؤلف ويلاحظ ملاحظاته لا يستبعد وحدة ما ذكره الشهابي ومروة والسبيتي ، اما أن يكون وقوع الواقعة في عيناثا إيذانا ببقاء زعامة آل شكر ، فهذا ما لا يتفق ، وفحوى النصوص والحوادث ، لأن آل شكر لم يكونوا في اميالهم السياسية من اشياع القيسيين والمعنيين – على ما تقدم من إيضاح – وإنما كانوا من أشياع اليمنيين وآل علم الدين ، فلو أنه بقي للشكرية كيان سياسي إلى تاريخ (١٠٧٠ و١٠٧١ هـ) لكانت هذه الوقائع التي وقعت في هذا التاريخ تأييداً لسياستهم وبعثاً لرياستهم في عاملة ، لأن باشا صيدا هذا كان – في هذه الأوقات مع ابن الكبرلي باشة الشام معارضين أشد المعارضة لسياسة المعنيين وأشياعهم من القيسية ، ومؤيدين أبلغ التأييـد لسياسة آل علم الدين وأشياعهم من اليمنية ، كما يتضح من استقراء الحوادث (بين سنة ١٠٧٠ و١٠٧١ هـ) ومن مراجعـة قول المؤلف نفسه ص ٤٨ إذ يقول « وأعطاها – أعطى والي الشام صيدا – إلى علي باشا الدفتردار وهو أول باشا تولاها فاضطهد المعنيين والشهابيين واستعان الباشا بأولاد علم الدين واستعانوا به ، فدمروا بلاد المعنيين حرقاً ونهباً وقطعاً للأشجار »

أو مراجعة قول صاحب دواني القطوف إذ يقول ص ١٩٤ من كتابه « أن أحمد باشا الكوبرلي ابن الصدر الأعظم والي الشام سلم ولاية صيدا إلى علي باشا الدفتردار ، وسماه وزيراً فصار ولاتها منذ ذلك العهد وزراء وكان نصير اليمنية فأوقع بالمعنيين ونهب بلادهم حتى هجروهـا وهربوا

من وجهه »

ثم قول الشهابي ص ٧٣١ عن حوادث سنة ١٠٧١ هـ « وعند وصول ابن الوزير إلى الشام كاتب باشا القدس ، وقبلان باشا والي طرابلس ، وباش غزة ، وابن طربيه البدوي ، بالركوب لحرب بني قيس ، فأتى إليه الأمير علي بن علم الدين ، وولداه الأمير محمد والأمير منصور وابن الصهيوني والمقدم علي بن الشاعر ، وأكثر حزب اليمنية ، فمات في الشام المقدم علي ابن الشاعر والأمير علي بن علم الدين في الطاعون ، ثم ان أحمد باشا ابن الكبرلي زحف في العساكر من الشام إلى سعسع ، فكاتبه بنو شهاب وعرضوا عليه جانباً من المال فما قبل ذلك ، فهربوا بعيالهم إلى بيت حمادة وسار معهم نحو ستماية رجل إلى (قمز) ، في أطراف كسروان إلى الجرد ثم سار أحمد باشا بن الكبرلي إلى وادي التيم فهدم سرايات بيت شهاب في حاصبيا وراشيا وبيوت مدبريهم وقطعوا نحو خمسين ألف شجرة من توتهم في مرج عيون والبقاع ، وأعطوا حكم وادي التيم إلى ابن علم الدين ، وإلى المقدم زين الدين وابن أخيه عبد الله »

إلى أن يقول ص ٧٣٢ « وأما بيت معن فظهر منهم إهمال في إيراد المال الذي تعهدوا به ، فخرج ابن الكبرلي في العسكر إلى المرجة ثم انتقل إلى مرج عيون ، ثم إلى قب الياس ، وحضر إليه باشا غزة ، وباشا طرابلس وابن علم الدين وأولاد طربيه ، فاجتمع المعنية والشهابية وبيت حمادة في قمز ، واتفق الرأي بينهم أن يصرفوا رجالهم ، وأن يرسلوا السكمانية واللاوند إلى الأمير عساف الحياري ، وان الأمير قرقماز ، والأمير علي يتوجهون بخمسين رجلا إلى بلاد جبيل ليختفوا بها ، وان الامير أحمد المعني وأخاه يختبئان في بلاد جبيل أيضاً »

وعليه فلا يعقل أن يكون باشا صيدا مع جميع بشوات سورية مؤيدين لسياسة اليمنية وآل علم الدين في طرابلس وفي الشوف وفي وادي التيم ثم يخذلونهم ويخذلون أشياعهم القدماء من الشكريين في جبل عامل على تقدير أن يكون باقياً لهم كيان سياسي في هذا الوقت ؟ ؟

ذلك ما يشعرنا بأنه لم يكن لهم أي أثر في السياسة العاملية يومئذ ، وإلا لنسى لهم أن يظهروا ويناهضوا أخصامهم بهذه الفرص السانحة ، وأن يستعيدوا ماضيهم في الرئاسة ويشتتوا آل الصغير كما تشتت آل معن وآل شهاب وآل حمادة وجميع القيسية واستولى مكانهم آل علم الدين ومن اليهم من زعماء اليمنية .

وكذلك ليس من الرأي ان نطمئن — مع فحوى هذه النصوص والحوادث — إلى قول المؤلف ص ٥٤ « وإذا حدثنا الشهابي انه في سنة ١٠٧١ وقعت فتنة عظيمة بين علي باشا الدفتردار وبين مشايخ المتاولة ، أمكننا أن ننسب هذه الحرب إلى أحمد بن علي الصغير اذ يمكن ان يكون تغلب على الوالي في ذلك التاريخ واستقل بشطر من البلاد ، وأصبح المسيطر ، ومنع الوالي من تعيين متسلمين أتراك « وغير اتراك » ليس لنا أن نطمئن إلى هذا القول .

إلا إذا جاز أن يكون أحمد بن علي الصغير هذا أكثر جنداً وأجرأ قلباً ، وأمنع جانباً من امراء المعنيين والشهابيين ومشايخ آل حماده — وقد كان اتحادهم مع القيسية يشكل أعظم قوة حربية وسياسية في بلاد الشام — يوم انهارت قواهم وتهربوا من وجه اولئك الولاة الذين تضامنوا مع علي باشا الدفتردار وقادة اليمنية

هل جار الشكريون في حكمهم

من الشائع على أفواه الناس في عامة أن عهد الشكريين كان عهد ظلم وجور وعسف، وقد تندرت المجالس العاملية بذلك جيلا بعد جيل حتى أوشكنا لتكرار الحديث ان نصدق ما تروية الأساطير التي تؤيد مثل هذه المزاعم وليس من اليسير على المؤرخ أن يسدد مثل هذه الشائعات أو يفندها وقد مضت عليها القرون الطوال إذا لم يعتد للأمر عدته ويعي الصواب أدلته وبراهينه، بيد أن مجال البحث لاينفك واسعاً وابواب الرجاء لاتزال مفتوحة، ومهما يكن من أمر الشكرية وأمر سياستهم وحياتهم كملائكة الرحمة أو شياطين العذاب، فإنا حين نرجع إلى التاريخ العام ونستضيء بنوره ونراقب سير الأحوال في هذه الفترة التي عم بها حكم الشكريين لبلاد بشاوة لا نعدم سبيلا للواقع حيث نجد أن كل بقعة من بقاع الأرض التي شملها حكم العثمانيين كانت تشكو مما يشكوه العامليون في هذه الفترة من ظلم وعسف وجور فهل كانت هذه الشكوى العامة من جراء حكم الشكريين وعسفهم ؟ أم كانت تمت بجذورها الكبرى وعواملها الرئيسية لما أصاب المملكة العثمانية من فساد السلطان ابراهيم بين سنة ١٠٤٩ و ١٠٥٨هـ وقد كان هذا السلطان من الشذوذ في الخلاعة والحماقة والاسراف بحيث جعله في شغل شاغل عن الامة إلا بما كان فيه تحقيق شهواته وكان غريباً فيها.

ومن غرائبه انه كان يطوف العاصمة وضواحيها فإذا رأى من أعجبته وتردد وليها في إرسالها يلقى جزاءه في الحال ؟ وكان تقرر جعل النساء الرسميات أربعا ولكن في عهد السلطان ابراهيم بلغ عددهن ثمان.

وكانت واردات لواء (سنجاق) تعطى من قبل نفقة لنساء القصر

فاصبحت ايالة الشام على طولها وعرضها تخصص ريعها وجبايتها للمرأة السابعة بحسب الاصول الحديثة في العهد الابراهيمي، ولم يرض النساء ان تجبى لهن الولاة ويكلوات الألوية الاموال بل كن يعين جباة مخصوصين من قبلهن حتى أصبح القول الفصل في القصر السلطاني للجواري والسراري.

وكان على نسبة اشتداد أعصاب هذا السلطان يضعف عقله وهو لا عمل له إلا مزاولة الأفراح والنساء والغناء والخلاعة ودخول الحمام واقتناء الجواري والحلي والزهور والأموال والطرائف واصدار الأوامر بقتل الأنفس بمحض وبلا معنى حتى أصبح يرتاح لرؤية المناظر الفظيعة من القتل، وقد قتل عدة من رجاله، وفتل الصدر الاعظم مرة لأنه بعث في طلبه لتدارك عطب القصر فقال له الوزير ان هذا المطلب ليس من الامور المهمة التي يفكر فيها من يفكر في أمور السلطنة فمثل به في الحال ولم يجرأ بعدها على تولي الصدارة إلا من كان على جانب من الرياء والنفاق ليرضي السلطان ١).

وذكر مؤرخو الترك أن سلطان زاده محمد باشا الذي تولى الصدارة على عهد السلطان ابراهيم ثلاث سنين خرب خلالها في جسم الدولة ما لايقع مثله في ثلاثة قرون، ولم يبق في عهد هذا السلطان أحد لا يرتشي من الصدر الاعظم فنازلا، لأن السلطان يطلب من كل عامل عنده جعلا يليق بشأن

---

(١) ومع كل هذه الموبقات نال في المؤرخين من يقول في ترجمة السلطان ابراهيم مايقوله الحبي ص ١٣ من خلاصة الأثر «وكان زمانه افخر الأزمان وعصره احسن العصور واطاعته جميع الممالك وسكنت بيمن دولته الفتن، واعتدل به الزمن»

وظل في الشعراء ايضاً من يقول في مدحه ما يقوله الأمير منجك الدمشقي ص ١٤ من الخلاصة م ١:

ملك من الأيمان جرد صارماً ... بالحق حتى الكفر اصبح مسلما
العدل اخرس كان قبل زمانه ... إذات له الأيام أن يتكلما »

سلطانه وقد بلغت القحة بالسلطان ابراهيم إلى أن طلب من وزيره أن يسترجع ما أهـــداه أجداده من السلاطين إلى حرمي مكة والمدينة من المجوهرات ، وتفدت الحال في طلب الأموال إلى كبار التجار في الاستانة وأخذ رجال القصر ونساؤه يسلبون من الامة ما يقدرون عليه واضطر كثير من التجار إلى الاختفاء واغلاق حوانيتهم تخلصاً من مطالب جماعة السلطان .

فإذا كان على هذا النحو حال دار الملك وحال قدوة رجال الامة فيها فما الحال بالولايات البعيدة كهذا القطر — ويعني الشام — حين يكون ولاته كولاة غيره من جماعة القصر ينصب أكثرهم بشفاعة النساء والقرادين والقوادات ١)

ثم كيف يكون حال المقاطعات الصغيرة المرموقة بعين الغضب والنقمة كمقاطعات جبل عامل — يومئذ — وقد كان أهله متهمين بميولهم واتجاهاتهم نحو أعداء العثمانيين من ملوك الشيعة الصفوية وكان ولاة العثمانيين يراقبونهم بحنقين ويعاملونهم معاملة الاخصام في السياسة والاخصام في المذهب منذ أن دخلوا سورية حتى ذلك العهد .

اضطراب علمائنا في هذا العهد

وإن الباحث ليشعر — عند تاريخ الحركة العلمية في هذا العهد — ان مدارس جبل عامل قبل احتلال العثمانيين لسورية كانت عامرة بالتلامذة والاساتذة والعلماء الاعلام من الشيعة ولم يكن هناك ما يوجب خوفهم أو تسترهم كما أصبحت الحال بعد انقضاء عهد المماليك وعهد بني بشارة ، واحتلال بني

(١) خطط الشام ص ٢٦٧ — ٢٧٠ ؛ م ٢ :

عثمان ، وتنازع الرياسة العاملية بين آل منكر وآل شكر وآل الصغير فإن الحال قد اختلفت كثيراً عما كانت عليه قبل ذلك ، إذ بتنا نرى تقلص هـــذه المدارس الشيعية ونرى تشتت علمائنا وادبائنا بين مستتر في بيته وقريته أو مهاجر إلى إيران أو الحجاز أو العراق ، أو لائذ بجبال التقية كما يستفاد من تاريخ الشهيد الثـــاني وذريته إلى عهد حفيده الشيخ زين الدين المتوفى بمكة سنة ١٠٦٤ هـ . ومن حال الشيخ حسين عبد الصمد والبهائي والكركي وغيرهم ممن لجأوا لايران أو العراق أو الحجاز أو ترددوا بين هذه الاماكن .

على أن الشيء الذي يستوجب البحث والتدقيق من تاريخ علمائنا وادبائنا في هذه الفترات المحرجة ، هو أن صلتهم بايران كثرت واتسع مداها وكادت أن تنحصر — بداية ونهاية — بعهد الملوك الصفوية أخصام الملوك العثمانيين الذين بادروا للاستيلاء على سورية ومصر خوفاً من أن يسبق إليها منافسوهم من الصفوية بعد أن اجتاح هؤلاء العراق ثم تحالفوا مع ملك مصر وسورية ، قانصوه الغوري .

وهذه الظاهرة ظاهرة الهجرة من عامل إلى إيران في هذا العهد ، عهد التنافس والحرب بين العثمانيين الذين انتحلوا لسياستهم في حرب الفرس ، حماية أهل السنة ، والصفوية الذين انتحلوا في مناضلة العثمانيين حماية الشيعة — لايمكن أن تكون وليدة الصدف ليس لها أي علاقة بهذه السياسة المختلفة الأهواء والمطامع فلابد أن تكون هجرة هؤلاء العلماء الأعلام من بلادنا لباعث خاص وعوامل سياسية مختلفة الأثر بين شك وخوف وضغط من قبـــل العثمانيين وولائهم وبين أمل واطمأنان وترحيب من قبـــل الصفوية وقادتهم . كما نستشعر من فحوى تاريخهم ومن فحوى هذه الأقوال السائحة في تراجم بعضهم

كقول صاحب « الدر المنثور » في ترجمة والده الشيخ محمد زين الدين المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ « ثم رجع إلى البـــلاد – يعني عاملة – وأقام بها مدة قليلة وسافر إلى العراق خوفاوفرقاً وفراراً ممن نصبوا له العداوة وأقام بكوبلا ثم عرض له مايقتضي الخروج منها فسافر إلى مكة وبقي إلى أن اختاره الله

وقوله في مكان آخر « وطلبه سلطان ذلك الزمان عفا الله عنه مرة من العراق فأبى وطلبه من مكة المشرفة فأبى .. الخ

ثم قوله في بيان ما شغل بال والده قبل الوفاة وقال له أصحابه « ان بعد هذا يرسل اليك السلطان على وجه لا يمكنك إلا السفر إلى بلاده ، فكان يدعوا الله أن يتوفاه إن كان يعلم أن هـذا الأمر يلزمه وان وفاته خـــير له »

ثم قول المؤلف في ترجمة نفسه « لما سافر والدي إلى العراق كان عمري نحو ست سنين ووقع على بلادنا فتور عظيم (يعني اضطراب وجور وحرب) احترق لنا فيه الف كتاب »

وقوله في مورد آخر « جزى الله عنا سوء الجزاء من حرمنا من الكتب التي كانت عندنا (من أجدادي ووالدي) وقد وقع عليها الفتور غير مرة: منها قرب الف كتاب احترقت وأنا إذ ذاك ابن نحو سبع سنين او ثمان[1] حرقها اهل البغي: ولما سافرت إلى العراق كان الباقي لنا في الجل[2] ودمشق وغيرها ما يقرب من الف كتاب ، وأكثرها منه ما أخذه الناس ومنه

---

(١) وإذا عرفنا ان مولد المؤلف كان بين سنة ١٠١٣ و١٠١٤ هـ نعرف ان احراق مكتبتهم كان بين سنة ١٠٢١ و١٠٢٢ هـ وهي السنة التي نهب فيها الأمير فخر الدين المعني قرية الكوثرية ، على أرجح الظنون واقربها للواقع .

(٢) كان موطن اسرة المؤلف ، قرية جباع الحلاوة .

ما تلف من النقل والوضع تحت الأرض والباقي نحو مائة كتاب وصلت إلي بعد السعي التام »

وقوله – في بيان اللطف الالهي الذي صادفه اثناء رحلاته بين أصفهان ومكة = بلغني ما بين أصفهان والبصرة ان رجلا من بلادنا مع الحاج قال : أنا مسافر إلى مكة بقصد أذى فلان .. في مكة وإشاعة خبره انه كان ببلاد العجم وانه كان بفعل كذا ، و كذا ، فضاق صدري لذلك »

ثم قوله بعد « ووقع لي نحو ذلك في مكة ومنى من رجلين ، وكان ذلك – لو لم يدفعه الله عني – موجباً لتلف النفس بل ربما مرى الى تلف أنفس ، ونقل ذلك يحوج إلى التطويل » .

وهما قيل في عوامل هذه الهجرة العاملية ونتائجها ، فأحسب أنها أفادت الشيعة من الفرس افادات كبرى وأضرت كثيراً بالشيعة من عرب سورية فقضت عليهم في حلب وأضوتهم في دمشق وضعضعتهم في لبنان وجبل عامل

بقية النصوص

التي تنم عن تاريخنا في العهد المعني

ذكرنا فيما تقدم من بحثنا عن بني بشارة العامليين النصوص التي تشير إلى حكمهم وحروبهم (بين سنة ٧٠٠ و٩٠٩ هـ) ثم ذكرنا في بحثنا عن السياسة العاملية في عهد الشكرية والمعنية ما عثرنا عليه من النصوص التي تتصل بتاريخ العامليين في هذه الفترة ولم نتخلف بشيء من ذلك عن النشر والملاحظة إلا بما كان من هـذا الخبر (عن حادثة انصاو سنة ١٠٤٨ هـ) الذي أورده الأمير حيدر الشهابي ص ٧٢٣ من تاريخه على ما يلي :

« وفي سنة ١٠٤٨ هـ قدم السلطان مراد خان إلى مدينة حلب بعساكر جرارة قاصداً بغداد ، فخاف الامير علي بن علم الدين ، وانتقل إلى بلاد بشاره ، وكان الامير ملحم بن معن في وادي التيم ، فأرسل إلى رجال الشوف وسار بهم إلى بلاد بشاره وباغت الامير عليساً علم الدين في قرية انصار فهرب ابن علم الدين »

ثم رواه الشيخ علي سبيتي كما نشر ص ٢١ من العرفان م ٥ « صارت وقعة انصار سنة الف وثمانية وأربعين » (١)

ثم رواه الاستاذ رضا (ص ٢٨٦ من العرفان م ٢) موضحاً بقوله « فاستلحم أهل انصار واستمر القتل فيهم ولم يشف حقد الامير ملحم مقتل الف وخمسمائة من المتاولة حتى استباح القرية نهباً وسلباً »

ثم يرويه الاستاذ ظاهر (ص ٣٤٣ من العرفان م ٨) عن بعض المخطوطات العاملية بما نصه « وفي سنة ١٠٤٨ صارت وقعة أنصار مع ملحم فنهبها نهبة عظيمة وقتل فيها خلقاً كثيراً وأقام فيها نحو أربعة أيام »

* * *

ثم هذا الخبر من السبيتي عن وقعة النبطية ووادي الكفور (ص ٢١ من العرفان م ٥) وسنة الف وسبعة وسبعين كانت وقعة النبطية وانتصر المشايخ ، وسنة ١٠٧٨ كانت وقعة وادي الكفور »

ثم يرويه ويوضحه الاستاذ رضا (ص ٢٨٧ من العرفان م ٢ بقوله « وانتهز المتاولة فرصة الوهن الذي طرأ على الحكومة المعنية في زمن الأمير أحمد ، فأعلنوا استقلالهم عن لبنان وخرجوا من طاعة أمرائه فغزاهم الامير أحمد في سنة ١٠٧٧ هـ في النبطية مقر الصعبية حكامها فارتد عنها عسكره منهزماً بعد ملحمة كبرى فاستجاش عليه والي صيدا فأتاها هذا في

العام القابل غازيا ، وكان نصيبه كصاحبه المعني حيث لحق المتاولة المنهزم إلى عين المزراب قرب صيدا »

ثم يرويه الاستاذ ظاهر (ص ٦٥٧ من العرفان م ٨) بقوله « ومن الحوادث التي وقعت في النبطية ولم يذكرها المؤرخان : المطران الدبس ، والشدياق ، وجاء ذكرها في بعض المخطوطات العاملية « ان الأمير احمد المعني جاءها سنة ١٠٧٧ هـ في أربعة آلاف رجل لمقاتلة بيت ابي صعب فقاتلوه وكسروه كسرة عظيمة وقتلوا من عسكره زهاء مائتي رجل وقتل منهم خمسة رجال »

* * *

ثم هذا الخبر من الشهابي ص ٧٣٩ « وفي سنة ١٠٩٠ هـ توفي الشيخ احمد ابن علي الصغير شيخ المتاولة »

* * *

ثم هذا النص عن احد المخطوطات العاملية التي تمت بتاريخها إلى القرن الثاني عشر للهجرة ينقله الأستاذ ظاهر (ص ٢٦٣ من العرفان م ٨) على ما يلي :

« وجاء في كتاب مؤرخين عامليين من أبناء القرن الثاني عشر » قال أحدهما : وفي سنة ١٠٩٥ كانت وقعة وادي الحبيس ، بين بلاد بشاره وأهل القبلي (٢) بقيادة الشيخ علي بن الحاج أحمد ونهبت فيها بلاد بشارة وخربت ديارها .

ورواها ثاني المؤرخين كما يلي « وسنة ١٠٩٥ صارت وقعة وادي الحبيس وضربت بلاد بشاره أجمع ونهبتها القبلية مع الشيخ علي بن الشيخ أحمد : وكان حاكمها الحاج زين » (٣)

ثم هذا الخبر يرويه الاستاذ ظاهر — ص ٥٢٦ من العرفان م ٨ —
وفي سنة ١٠٩٩ هـ : وهي السنة التي تولى فيها على صيدا ، عبدون باشا
«قبض على صاحبها أي صاحب مزرعة مشرف لظلمه وقتله مشايخ القرى في
غار المزوعـــة حيث لم يطيعوه في بعض الامور ، وقبض على احمد نصار
شيخ المناكرة » كذا جاء في بعض المخطوطات ولم يرد ذكر لهذه الحادثة في
أخبار الأعيان للشدياق وتاريخ الشهابي بل جاء فيهما ذكر حادثة = أخرى
في عهد الأمير بشير الأول = متأخرة عن هذا التاريخ مدة عشرسنين» (٤)

وهي على رواية السبيتي — ص ٢١ من العرفان م ٥ - كما يلي «وسنة
الف ومايةوتسعة ركب الامير بشيرشهاب على بلاد بشاره ومسك مشرف
من المزرعـة وبنى عين الدروز قرب اجوية وقتل احسين العمر وصفاله
الحكم في بلاد بشاره »

ويلاحظ ان مفـاد هذا النص لا يدل على وقوع حرب بين العامليين
والامير بشير الأول كما تدل رواية الامير حيدر ص ٧٤٩ من طبعة مصر
و ص ٦ من طبعة بيروت التي أجلنا البحث فيها للجزء الثـــاني من هذا
الكتاب حيث نبسط القول عن السياسة العاملية في عهد الأمراء الشهابيين
في لبنان وعهد ظاهر العمر في فلسطين وعهد آل الصغير في جبل عامل :

* * *

ثم هذا الخبر يرويه الشهابي (ص ٧٤٣ طبعة مصر) على ما يلي « وفي
سنة ١١٠٤ هـ توجه الامير يونس ابن شهاب ودخل بـلاد بشاره بعسكر
عظيم ونهب وقتل ورجع إلى وادي التيم » وفي خطط الشام يجعلها في حوادث
سنة ١١٠٣ هـ

ثم يرجع التاريخ بعد رواية هذه النتف إلى ما عودنا عليه من الصمت

والاهمال ونعود نحن إلى ما كنا عليه من الشك والحيرة بشأن هذه الفترات
المتطاولة المضطربة بين حادث وحادث فلا ندري مـــاذا جرى فيها ولا
نعرف بالضبط من قدر لهم أن يحكموا البلاد أثناء ذلك ..

أهم هؤلاء المتسلمون الذين كان يفرضهم الامراء والولاة بعد كل حادثة
ينهزم بها العامليون ؟ كالمتسلم حسين الطويل الذي كان متسلما في قلعة
الشقيف طيلة حكم الامير فخر الدين المعني تقريباً وكحسين اليازجي الذي
أصبح متسلماً في تبنين وبلاد بشاره على عهد الامير علي المعني ، وكالشيخ
محمود أبي هرموش الذي أصبح متسلما لبلاد بشاره في عهد الامير حيدر
الشهابي سنة ١١١٨ هـ ؟

ام غيرهم ممن نبهوا في الاسر العامليـــة كآل شامي في بنت جبيل ،
وآل داغر في انصار ، وآل الزين في شحور وآل برّو في كفرحونه وجبل
الريحان ؟؟ فإن بعض المخطوطات والنصوص الموضحة لتاريخ العامليين في
العهد المعني تشير بجلاء إلى انه كان لبعض أبناء البيوتات الأخرى شأنهم
السياسي مع الحكام والمشايخ والاحداث الجسام في بعض الفترات التاريخية
ومن يقرأ قول الامير علي المعني أو الصفدي ص ٦٦ من تاريخه «وصار
الامير احمد ابن الامير يونس الحرفوش يراسل ويكاتب بني متوالي من
المشايخ المتعبنين فطلع إليه من شيعته وملته بهدايا اولاد داغر ، وأولاد
علي الصغير وابن منكر الحاج ناصر الدين الخ » من يقرأ هـذا القول من
الصفدي أو من الامراء المعنيين يدرك بأن أولاد داغر من قرية انصار
كانوا في عداد مشايخ العامليين ومن ساستهم ايام المعنيين ، ومن يطـالع
كذلك قول الصفدي ص ٧١ من تاريخه « فلما بلغ الامير فخر الدين هجاج
مشايخ بلاد بشاره ارسل هدم بيوت اولاد شكر في عيناثا ، والحاج علي

ابن ابي شامي في بنت جبيل، وفرحات داغر في قرية انصار ، والحاج ناصر الدين ابن منكر في قرية الزرزيرية ، وولده في قرية حومين الفوقا وضبط غلتهم ، يشعر بأن الحاج علي شامي وفرحات داغر كانا معتبرين لدى المعنيين في جملة المشايخ والقادة العامليين

وكذلك يستشعر القارىء من تلك الرواية التي تنص على ان الحاج زين – جد الاسرة المعروفة في الارساط العاملية – كان حاكما في بـــلاد بشارة سنة ١٠٩٥ هـ

تحفظ لا بد منها

كان من الاحتياط لحسن ظن القراء بتجردي ونزاهتي أن أتجاوز هذا الخبر الذي يشير إلى حكم الحاج زين ، وأن أغض النظر عن اثباته هنا لعلاقته الماسة بما تتهم به الاخـلاق وتمتعن الانانيات ، ولكن الامانة العلمية للتاريخ قضت بأن أسجله في جملة النصوص المرسلة إرسالا لا فسح المجال لغيري من الباحثين أن يمحصوا ما لم يتهيأ لمثلي تمحيصه وبيان محله من الصواب أو الخطأ .

ذلك بأن للمخطوطات القديمة من الحرمة والواجب ما يقلل من قيمة الاعتراض على مفادها – إيجابا أو سلباً – بدون مبرر علمي ومستند تاريخي يصح الاعتماد به وقول (لا) أو نعم، لا يكفي في مثل هذا الموقف لدحض المزاعم المعاكسة أو تبريرها .

لاسيما وان مفاد هذا النص له – ما يقربه إلى عالم الامكان والواقع – من وحي الظروف السياسية واضطراب الأحوال العامة ومن الاخبار التي تروى عن عهد الشيخ مشرف ، وعهد الشيخ ناصيف ، وعهد حمد البك ،

وهو فضلا عن ذلك لا يمكن أن يعتبر من الخوارق والتسجلات الخيالية بالنسبة لمنطق المؤهلات للحكم الاقطاعي في ذلك الزمن يوم كان يكفي لتحقيق امنية الطامح إلى الحكم ان يؤلف حوله عصبة من الرجال الاشداء لتشويش الامن وإحراج الحكومة إلى مهادنته بتقرير ما يليه من المقاطعات على اسمه ، اوبأن يشتري ذمم الولاة والامراء بالهدايا الكريمـــة والتقادم المغرية ، او بأن يتقرب إليهم بالزيادة على مقدار الضمانة المالية التي يدفعها غيره من الملتزمين ، أو بأن يستغل الفرص التي يكون فيها المنافسون له موضع نقمة الولاة والامراء ، وهي فرص كثيراً ما كانت تسنح ويمتد زمنها في العهد المعني الاخير، نظراً لتمادي الفوضى وعدم استقرار الأحوال العامة أو استقرار الارضاع في ايالة صيدا أو مقاطعات جبل عامل خاصة، إذ كانت موضع النزاع الاداري بين إلحاقها بمتصرفية صفد أو بإمارة لبنان أو بإيالة صيدا رأساً بدون واسطة .

ثم موضع النزاع الداخلي بين الامير المتهافتة على الرياسة والحكم يوم لم يكن يطلب من الحكام شهادة علمية ، أو ضمانة أخلاقية ، أو كفاءة نادرة أو انتخاب شعبي حر ، أو ما اشبه ذلك مما يعتد به أحرار عصرنا ويفخر به شباب هذا الجيل .

ما يلاحظه الباحثون

(١) لا يجور التاريخ في حكمه على أحد كما يجور على العالم والأديب حين ينسب آثاره العلمية والأدبية إلى غيره من الناس لاقل بادرة أو شبهة وقد يكون من هذا القبيل ما يزعمه صاحب جبل عامل في التاريخ ص٤٤ من كتابه : إذ يقول عند تعوضه لرسالة الشيخ علي السبيتي « جبل عامل

في قرنين » انه وجد في مجموعة عند عبد الخالق الفقيه من قرية حولا نسخة بخط السبيتي لرسالة (جبل عامل في قرنين) يقول في أولها ما لفظه :

« وجدت في بعض مجموعات اصحابنا ، صارت وقعة انصار من بلاد الشقيف سنة ١٠٤٨ هـ » ، ويقول في آخرها ما لفظه

« تم ما عثرنا عليه من مجموعة المرحوم المقدس استاذنا الشيخ علي مروة ، وبهذه الكلمة تنتهي الرسالة ، وعليه تكون هذه الرسالة من مؤلفات مروة لا السبيتي ونسبتها له من المشهورات التي لا أصل لها »

ولكن فات المؤلف ان مثل هذه الأقوال وهذه الاضافات في أول الرسالة وآخرها لا تصلح لأن تقوم دليلا على صحة نسبة الرسالة للشيخ علي مروة ولا على نفيها عن الشيخ علي السبيتي .. إلا إذا قوبل بين خط السبيتي الأصيل الثابت وبين خط نسخة الفقيه هذه ، وخاصة تلك العبارة التي يتشبث بها المؤلف لتصحيح زعمه وتحقيق محاولته : وإلا فهناك نسخة أخرى بخط الحاج محمد سهيل - وهو ممن أدرك السبيتي وعاصره - يقول في أولها « وقفت على مجموعة للنسابة الشيخ علي السبيتي يشير بها لبعض تواريخ مختصة بجبل عامل وبها يذكر طرفاً متعلق بما نحن بصدده » ثم يمضي في سرد الأخبار على النحو المعلوم إلى أن يقول في آخرها « هذا ما وقفت عليه فأثبته بحروفه بمجموعة الشيخ علي السبيتي »

فما يقول مؤلف جبل عامل في التاريخ بهذه المقدمة والخاتمة من خط الحاج محمد سهيل ؟ وهل يجوز أن يلتبس الأمر في خط هذه المجموعة التاريخية على حاذق في الخط من آل الصغير أدرك السبيتي وعاصره وهل كان يشق على مثله تصحيح نسبة الرسالة للشيخ علي مروة او للشيخ علي السبيتي ؟ وقد كان متهيئاً له أن يتصل بجميع علماء عاملة وادبائها ؟ أو هل يمكن أن يكون

« غرض في تحريف هذه النسبة وهو لا يعيت إلى كل من الأديبين بنسب ولا هو بحاجة إلى ان يمالئهما أو يحابي أحدهما على الآخر :

وما يقوي ظننا بتزييف نسخة عبد الخالق الفقيه امتيازها عن غيرها من النسخ - على قول المؤلف ص ١٨٣ من الكتاب - بزيادة هذه الجملة (قال الشيخ علي السبيتي) عند ذكر تاريخ الزلزلة الكبيرة : .. فعلى تقدير أن تكون هذه الرسالة التاريخية للشيخ علي السبيتي نفسه فما معنى هذه الزيادة وهذا التصريح باسمه ولقبه أثناء الحديث الذي يتحدث به ؟! وعلى تقدير ان تكون لاستاذه مروة فالأمر في استساغة هذه الزيادة وهذا التصريح اشد غرابة وأكثر نبواً عن الذوق والطبع السليم ولاسيما من أديب كبير كالسبيتي ، وهو يروي حديث استاذه وشعره ؟! في حين ان نسخة الحاج محمد سهيل ليس فيها زيادة (قال الشيخ علي) كما في نسخة الفقيه ولازيادة (قال شيخنا قدس سره) كما في العرفان ، فهي تجري في عباراتها مجرى الطبع ، وهي التي يمكن أن نعوّل عليها ونعتبرها أصيلة سالمة من فضول الحواشي ومن تلاعب النساخ ، ولعل القول الفصل في هذا كله لحفيد السبيتي ووريثه العلامة الشيخ موسى السبيتي :

(٢) المراد بأهل القبالي هم أهل صفد وعكا ونابلس وما يليها من قرى فلسطين ممن هم قبالي جبل عامل وجنوبه :

٣-٤-ومن يراجع كتاب (جبل عامل في التاريخ) يشعر بأن المؤلف أهمل الاشارة إلى هذين النصين ، ثم تمادى فأهمل الاشارة إلى جميع ما نشره العلامة الشيخ سليمان ظاهر في العرفان من ابحاث تاريخية عن جبل عامل وخاصة ما نشر متسلسلا بعنوان (أسماء قرى جبل عامل) مع ان الاحتفاظ ظاهر كان أكثر العاملين التزاماً باصول البحث ، ومسايرة الروح العلمية؟!

العادات والانظمة
في
العهود الاقطاعيـــة

قـد يكون من التيسير لفهم تاريخنا في العهود الاقطاعية فهما دقيقاً شاملا .. أن الخص للقراء بعض ما كتبه المؤرخون عن الأنظمة والعادات والصلاحيات في تلك العهود ليستشف منها الأنظمة والعادات والأخـلاق التي كانت تسيطر على حياة العامليين ولايزال أثرها مستحكما في نفوسهم

وقد يقتضينا التمحيص أن لا نفرق في ذلك – بين عهد وعهد لأن العهد الاقطاعي في أيام العثمانيين لم يكن عهد تطور وتجديد ، وإنما كان عهد اتباع وتقليد في جميع مظاهر الحكم وأساليبه ووسائله : لهذا نستطيع أن نقول بأن الأنظمة والتقاليد والعادات كانت في جميع أدواره ومناطقه واحدة لا تختلف ما كان منها في عهد المعنيين عما كان منها في عهد الشهابيين وظاهر العمر : ونستطيع أن نجزم بأن ما كان يتبع في زمن الأمير بشير الشهابي هو عين ما كان يتبع في عهد الامير فخر الدين الكبير وقد لانخطىء إذا روينا أخبار هذه العادات والأنظمة والتقاليد التي تؤثر عن عهد الأمير بشير الكبير وما قاربه واعتبرناهـا صورة صحيحة مطابقة لكل ماتقدمه من عهود او روينا ما كان من أخبارها في عهد الأمير فخر الدين المعني واعتبرناه صورة صحيحة مطابقة لكل ما جاء بعده من عهود الاقطاع حتى عصر ابراهيم باشا ، ولم نميز بين القديم منها والجديد لأن الفارق بينها لم

يكن إلا شكلياً يزول لدى التطبيق وأساليبه المتحدة في عنفها وجورهـا واستبدادها :

الايالات في سورية

من الواضح المشهور انه كان من قواعـــد الدولة العثمانية إذا فتحت البلاد أن تولي امورها الكبرى لولاتها وقضاتها والصغرى لأبناء البلاد وتلقي جلها على غاربها لا تهتم لتنظيمها اهتمامها لفتح جديد (١)

فكانت بلاد الشام في العهد العثماني تقسم إلى ثلاث إيالات ، حلب في الشمال ودمشق في الجنوب وتشمل بعض الساحل ، وطرابلس ، وتمتد على مابقي من الساحل ، وتقسم الايالة إلى الوية . وعلى رأس كل لواء سنجق دار : أي أمير السنجق وصاحبه

وفي بداية القرن الثامن عشر أصبحت بـــلاد الشام خمس باشويات الشام (١) صيدا (٢) فلسطين (٣) طرابلس (٤) حلب (٥) هذا عدا إيالة نمر وايالة عجلون : وكان يعهد اليهما في حفظ التخوم من عدوان البدو :

مجالس الشورى والقضاء

وكان لكل إيالة مجلس شورى يتألف من كبار العلماء والموظفين والاعيان ويرأسه نائب السلطنة وله الاشراف على الشؤون المالية والادارية – ولكن أعضاءه كانوا خشباً مسندة إما لجهلهم أو لخوفهم من الحاكم ، بل كان بعضهم مطية للاضرار بمواطنيهم – وأما القضاء فكان منوطاً بالقضاة الشرعيين ما عدا الدعاوى الجنائيه والجزائية فكانت من اختصاص الموظف

(١) خطط الشام م ٢ ص ٢٣٥

المسمى (قاضي باشي) وهو من قادة الجند ، ويليه في حق استماع هـذه الدعاوى (التفكجي باشي) وهو كرئيس الضابطة ١)

وهؤلاء الجماعـة كانوا رؤساء القراقولات في المدن ، وكانوا قوماً أميين لا يعرفون (الكوع من البوع) يحكمون بحسب ما تقودهم اليه أهواؤهم وأفكارهم وكمية الرشوة التي يدفعها اليهم المجرمون ٢)

أركان الحكومة في الايالة صيدا

وقبل تشكيل الولايات في تركيا باعلان الدستور والتنظيمات الجديدة كان يطلق اسم الوالي على كل من يلي أمر الحكومة في البلد بالاجمال ولو كانت البلد قرية أو كما يقول جودت باشا كان بمقام مأمور الضابطة في البلد

وصاحب الايالة يدعى وزيراً ، ونائب السلطان ، وبكلربكي (اي كافل) وكان بيده السلطة العسكرية والملكية والادارية ، والمالية ، والعدلية ، والجزائية ، لاشريك له فيها ، إلا من أحب ان يجعله تحت يده من الأتباع والحكام الصغار ، ومن ثم كان أمر حياة الافراد وموتهم متعلقاً على رضاه أو غضبه ويقدر أن يسوق الجند لقتال من تمردوا عليه وخراب ديارهم ومحو آثارهم من الايالة ٣)

.. وكانت العادة التي جرى عليها حكام ذلك العصر عندما يتولى أحدهم منصب الولاية انه أول عمل يأتيه إعدام بضعة من المحابيس وتجريم البريء كي يوقع في الشعب رهبته ويريه قساوته ، وبدلا من ان يطلق سراح المسجونين

(١) ص ٣٧ - ٣٨ - ١٤٦ من الحلقة المفقودة في تاريخ العرب للاستاذ محمد جميل بيهم
(٢) ص ٢٤ من مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان للمعلم ميخائيل مشاقه
(٣) ص ٩ - ١٠ من تاريخ ظاهر العمر للمعلم ميخائيل الصباغ

ويتظاهر بالدعة والحلم يفتش عن المجرم أو المتهم بجرم خفيف ويصدر أمره بإعدامه ،

وكان الشعب ينظر إلى الحاكم نظرة العبد إلى سيده ولا يتجاسر على رفع نظره اليه . فكانت الأهالي تحتفل بحاكمها وتتظاهر بعبوديتها له ، وتؤيد من الاطناب به قبل أن تعلم عنه شيئاً وتحرق له بخوراً وتضيء له الشموع وتزين الشوارع كما هي العادة التي لم تزل تحترم نصوصها إلى يومنا هذا ١)

وكان الوزير أتباع وحاشية كثيرة من المماليك والخدم وأولهم وأعظمهم شأناً الكتخدا ويلفظونها كيخية وهو الوكيل أو المعاون له والمساعد في أمور الدولة وينوب عنه إذا غاب بل بأمر وينهى بحضوره : وهو غير الكتخدا أو الكيخية الذي يكون وكيله وعمدته في اسلامبول وينم اليه بالاخبار التي تهمه منها وقد جعله هناك عيناً له وجاسوساً .

وكان من كبار أتباع الوزير الصراف فإنه يحضره معه من أغنياء الأرمن أو اليهود البارعين بالحسابات ويفوض اليه النظر بتحصيل وتوريد الاموال للخزينة .

ومن كبارهم كاتب الدايون التركي ويدعى رئيس الديوان ، يختاره الوزير غالباً من كتاب الأتراك البارعين بحسن الخط والانشاء بالتركي ويقلده تحرير الكتابات للباب العالي وغيره من وزراء الدولة :

ومن رجال الايالة (اليازجي) وهو كاتب العربي يختاره الوزير غالباً ممن يحسن الخط والانشاء في العربي لتحرير الأوامر والمراسلات باللغة العربية

وكان من حكام الايالة المتسلم وهو الحاكم من قبل الوزير في المدينة ذات الشأن وأصغر منه واعم الوالي واصغر منه الصوباشي : ودونه

(١) مشهد العيان صفحة ٧٥

الشاويش الذين يتولون الحكم من قبل الوزير او المتسلم في القرية أو البلدة الصغيرة ولكل من هؤلاء الحكام والاتباع عمال و كتاب واتباع تحت أيديهم

العسكر في ايالة صيدا

وكان عسكر الايالة الذي يكون تحت أمر الوزير خمس مئة من الخيالة وخمس مئة من المشاة ويسوغ له أن يزيده لأجل زيادة هيبة الوزير إلا انه تخفيفاً لثقلة معاشهم عليه كان يكتفي بنصف هذا العدد ، أي مائتين وخمسين من الفرسان ومائتين وخمسين من المشاة .

ولم تكن إيالة صيدا فيما نرى نظير إيالة الشام وباقي إيالات الدولة فيها وجاقات من أهل البـــلاد من أصحاب الزعامات : والتيمار ، أو البولية والانكشارية ، والقبوقولي وسواهم لقلة شأن هذه الايالة ولعدم ثقة الوزير بالاهالي ومن ثم كان عسكر الايالة أخلاطاً من البلاد وعناصر شتى يجتمعون إلى وجاق (مطبخ) خاص يتناولون فيه قوتهم وإليـــه تنسب أفرادهم وتوسم على زنودهم علامته أو نيشانه ، وكان لكل وجاق رئيس من أفراده يتكلم بلهجتهم وله الكلمة المطاعة فيهم وبيده زمام أمرهم لدى الوزير ، وهو موزع عليهم (الجامكية) التي هي اعطيات الوزير يقـــال له آغا الوجاق ، وبلوكباشي وشاويش : وإذ لم يكن هذا العسكر على شيء من النظام والتربية العسكرية كان تعديهم على الأهالي مستمراً وكانوا يحسبون البـلاء الأعظم على أصحاب القرى والمزارع الذين لم يكن لهم من القوة ما يدفع تعدي هؤلاء عنهم ، ولهذا كانوا بنظر الأهالي مكروهين محتقرين حتى كان يضرب المثل بسفالتهم مما لا يزال دارجاً الى اليوم : مع قولهم : فـــلان مثل عسكر الدولة (ملعم على ذنبو) أي لاذمة له ولا عهد ولا

يذكر الخبز والملح بفيه [1]

صلاحية الاقطاعيين في لبنان

وكان من مظاهر الحكم الاقطاعي في لبنان أن يتصرف الاقطاعيون في مقاطعاتهم نهياً وأمراً ويجبون الاموال المفروضة على الاعناق والعقارات والضرائب والمكوس ، فيرسلون منها إلى الحاكم ما فرضه هو عليهم ، أو ما تعاهدوا عليه ، والباقي يصرف في نفقاتهم ، وإذا رفع أحد الرعايا دعوى فإلى الاقطاعي وإذا لم ينصف المتخاصمين ترفع الدعوى إلى الحاكم الاعلى فيفاوض الاقطاعي لفصلها بما يريد ، فإذا لم تقض يسوغ أن ترفع إليه الشكوى أكثر من مرة ، فيرسل سفيراً أو مباشراً من قبله لفصلها ولا يكون الاقطاعي عتب عليه ؛ وإذا حدث خصام بين الاقطاعي والأهلين أو بين سكان مقاطعتين يكتب الحاكم اليهم بإصـــلاح ذات بينهم فإذا لم يعودوا ، أرسل مباشراً من خاصته تكون نفقاته ونفقات جواده مدة ما يبقى لفصلها من المدعى عليه ولا ينصرف من عنده إلا بأمر مولاه بعد أن يفرض له على ذلك الرجل المدعى عليه مالا يأخذه منه تغريماً : ما لم تكن الدعوى بدين فيفرض له شيئاً على المدعي أيضاً وهذا في غير الدين استحسانا وأما في الدين فخمسة من المائة المقبوضة .

والاقطاعيون يؤذن لهم أن يحكموا بالسجن والضرب ، ولكن العقاب على الكبائر لا يؤذن به إلا للحاكم العام ، وأما اجراء المواد المهمة كالقتل وقطع اليد مثلا فلا بد أن يكون بمعرفة العمال المنصوبين من قبل الحاكم

(١) تاريخ ظاهر العمر ص ١٢-٩٤ .

والعامل أن يولي في كل مقاطعة مديراً من سكانها [١]

صلاحية مشايخ جبل عامل

.. وكان من صلاحية شيخ المشايخ في جبل عامل على عهد سليمان باشا والي عكا وصيدا سنة ١٢٢١هـ « أن يتعاطى أمورهم ومصالحهم وفصل الدعاوى فيما بينهم : وأما إذا بـــدا من أحد منهم أو جرى بينهم مادة – خلاف – جسيمة فتعرض له – للباشا نفسه أو لأمير لبنـــان – وهو يتوسط فصلها مع الحكم بها ، وإذا أحد بدامنه نقيصة ووجب عليه القصاص الحكمي فيطلب منه أي من الشيخ المذكور ، وإذا فرّ هاربا فيطلب جلبه منه ولا يقبل له عذر :

وكان من شروط الدولة على مشايخ جبل عامل « أنه متى لزم الأمر الحاجة طلبهم برجال العشائر لمحاربة أحد المحلات يجب عليهم أن يحضروا بدون تردد ولا عاقة ولا طلب علائف نظير باقي العساكر ، وذلك نظير الشرط الملتزم به أمير جبل لبنان[٢]

مظاهر الاستبداد وأثره في البلاد

وفي تاريخ فلسطين أن حكومة سورية في القرن الثامن عشر كانت حكومة لامركزية أي اقطاعـات أو حكومة أمراء ومشايخ يقوم كل منهم في حكم منطقته ، فإذا اختلف أثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ ويقبـــلان

(١) لبنان ص ١١٤ والدواني ص ٢٤٨ .
(٢) اطلب البرهان م ٢٦ ص ٧٧-٧٩ نبذة من تاريخ سليمان باشا قسطاكي الحمصي

حكمه لامحالة ومن خالف عادات البلاد أو أخل بتقاليدهم يسجن في سجنهم ، وكان الشيخ أو الأمير يجبي الضرائب ويقدم المقطوع عليه للوالي ويأخذ الزيادة وإذا حدثت فتنة أو خيف من وقوعها كان يطلب الوالي المعاونة من امراء ومشايخ المنطقة فيخرجون بأنفسهم ومن وراءهم رجالهم وفرسانهم وكثيرا ما كان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الامراء والولاة فأدى هذا النظام إلى انتشار الفوضى واختـلال الامن وسبب للحكومة خسرانا كبيراً في الاموال والرجـال . واصبح الناس لكثرة المصادرات يكتمون أموالهم ويدفنونها في الأرض لتنجو من المصادرات والسرقـات ويتظاهرون بالفقر وربما مات أحدهم فجأة ولايعلم أولاده بدفينته . أما في جهات لبنان فإن الوالي أو المتسلم أو المستبد من حكام المقاطعات إذا غضب على رجل أحرق قريته كلها أو عاقبه بقطع أشجاره ولذلك كان من الدعاء على الرجـــل في لبنان (الله يقطع رزقه) أي أشجاره (أو يخرب زوقه) أي بيته والزوق البيت ١)

موقف الدولة من الفتن الداخلية

وقلما كانت تهتم الدولة للفتن إلا إذا التهب شررها وخيف منها على سلطانها وقدر أن اعدت المستعدين ورفعت ظـلامة المظلومين ، ولماذا تهتم وكل قطر نشز عليها تضربه بعسكر من أهل القطر الأقرب اليه ان لم تستطع ضربه بأبناء بلده انفسهم ، وإذا خافت من وال أو صاحب أقطاع قوة سلط عليـــه خصمه أو جاره فالناس أبداً متعادون متشاكسون والالفة

١- الخطط م ٢ ص ٢٧٧ .

مرتفعة من بين أهل البلد الواحد فكيف تأتلف العناصر ١)

ومن مساوي حكومة الاقطاع أن صغار حكامها من أهل البلاد كانوا يضطرون إلى المصانعة فتراهم أبداً مع القوي التي تدوم سعادته فإذا ولت عنه لووا وجوههم نحو من يخلفه في القوة والجبروت . وفي هذا السبيل كانوا يقتتلون وتفنى رجالهم وتخرب بيوتهم . ثم من مساوئه هؤلاء أنهم كانوا يتزاحمون في زيادة أجرة المقاطعات وضمانها للاستيلاء عليها ونزعها من أيدي منافسيهم ولو أدى ذلك إلى إرهاق الأهالي وتجريد الفلاحين من قوت يومهم ٢)

مصدر الفساد في الايالات

يقول صاحب الخطط : من أمثال الترك .. « السمكة تفسد من رأسها » وحقيقة أن فساد الولايات كان ينبعث من العاصمة أيام كان يقبض فيها على زمام الأحكام غالباً جهلاء ظلام وصموا بسلب الناس بكل حيلة وكثيراً ما تولى رئاسة النظارة في السلطنة العثمانية الدهماء والسخفاء بل الطباخون والطبالون والمزينون والبساتنة وغيرهم من المقربين من نساء القصر الملوكي والزنوج الخصيان الذين كانوا يولون ويعزلون كما يشاؤون ويشاء ضيق عقولهم .

ولا عجب في حكومة هذا شأن نصب الرئيس فيها إذا كان الوزراء والعمال على هذا النحو فلطالما ولي مشيخة الاسلام في الترك أغبياء أدنياء في منشئهم ومسلكهم ممن ليس لهم من العلم الديني إلا قشوره وشارة أهله من جبة وعمامة ، وعلى نسبة وسائط بعضهم وكثرة ما يعرف من المقربين من

١ـ الخطط ص ٢٨٣ ـ ٢٧٥ : ٢ـ دوائر القطوف صفحة ١٩٣ ـ ١٩٦

السلاطين كان ارتقاء أحدهم إلى المناصب العليا فكان الوالي الذي يحكم الشام على الغالب أشبه بالقاضي ، وهذه الطبقة لا تقرب من أهل البلاد إلا من كانوا على شاكلتها من الجهل والفساد ١)

الضرائب

لا ترى في جميع العادات والتقاليد والانظمة الاقطاعية ما حاق ضرره بالبلاد كالفوضى والتعسف في إنشاء الضرائب وتحصيلها فإن هذه الفوضى - مع تنزه ذوي الانصاف والدين من أعيان البلاد عن التزام المقاطعات وضمان الاعشار وتركها لفئة من الناس لا ترعوي لحلال أو حرام ولا يردعها قانون أو دين عن الاستبداد والجور واستباحة الأعراض والاموال والدماء في سبيل أغراضها ومطامعها الشخصية - كانت سبباً لخراب عدد من القرى والمزارع وتعطيل كمية كبيرة من الأراضي الزراعية في البلاد ثم سبباً للقضاء على الملايين الصغار وشطر الامة ، في أكثريتها الساحقة إلى شطرين

أسياد يزهون بأملاكهم الواسعة ، ويستكبرون عن العمل ويستهترون بالفلاحة وجميع المهن الحرة ويتلهون باستعباد الناس ويستثمرون جهودهم بقسوة واستملاء وجبروت ولا يهمهم من المصلحة العامة شيء مادام يعتقدون بأن مصالحهم الخاصة تختلف عن مصالح العموم

وخدم وفلاحين مستعبدين ينحطون بنفوسهم إلى مستوى نفسية العبيد إذ يضمحل فيهم الاحساس بالعزة والانفة والطموح لما تعودوه من الخضوع والتذلل والانقياد لمشيئة أسيادهم وسياط حكامهم ولما يشعرون به من القلق

١ـ الخطط م ٢ ص ٢٣٦ :

النفسي وعدم الاطمئنان لمستقبلهم ما داموا تحت رحمة أولئك الأسياد عرضة للاضطهاد والطرد والتشرد والجوع ١) فلاحين مستعبدين لا تحجز العنعنات والتقاليد الارستقراطية لمن استغنى منهم بمعجزة تجارية أو مهنية حرة أن يتطاولوا إلى مجاراة أسيادهم فيما امتازوا به عن الفلاحين من المظاهر : فلا يقبل منهم أن يلبسوا ثيابا كثيابهم ولا أن يسكنوا دوراً كدورهم ولا أن يقتنوا من الأثاث وعدد الحيل ما يشبه أثاثهم وعددهم جودة وعظمة ، بل لا يرتضى لهم أن يفكروا في شراء شيء من أرضهم ومزارعهم حين يضطرهم الاسراف في البذخ واللهو إلى بيعها او بيع شيء منها فإن من يفكر أو يحاول أن يتظاهر بشيء من هذا كله أو بعضه كان يعرض نفسه لأشأم الإهانات والعقوبات والنتائج الخطرة أو يصيبه ما أصاب آكل الكنافة بدبس على ما يرويه الاستاذ عبد الحسيب الشيخ سعيد ص ١٥٥ من مجلة الكلية البيروتية م ١٣ إذ يقول:

الكنافة بدبس

« حدثني أحد الوجهاء في معرض تأسفه على أيام الجهل التي كانت لهم أعياداً فقال : كيف لا نأسف على أيام الجهل الذي به وحده كان المرء يستطيع الوصول إلى الغنى والثروات الطائلة ؟؟ إن أحد أجدادي المدعو ... كان متسلماً ... وكان مطلق الارادة حتى انه سمع بأن (فلان جد فلان) أكل وعائلته في أحد الأيام كنافة بدبس : فطلبه اليه وما كاد المسكين يدخل باب الديوان حتى نهض له جدي على قدميه واستقبله إلى الباب .. فحار المسكين بأمره لأنه وجد شارات السخرية

(١) ص ٤٢-٥٢ من كتاب تراثنا الاجتماعي وأثرة لحليم دمار

والتهكم بادية على وجه المتسلم وارتبك فوقع إلى الأرض مستجيراً ومعتذراً بأنه لم يكن يعرف انه ..

فقال له المتسلم : ان من يأكل كنافة جديد به الجلوس في مكان المتسلم لذلك فإني تنازلت لك عن مكاني فتفضل اليه .. فأدرك المسكين خطيئته (الكبرى) فجعل يتقدم إلى المتسلم مقبلا قدميه ومعتذراً بكونه اضطر إلى أكل الكنافة لمرض طرأ على أنجاله .. وبعد التي والتيا استطاع الرجل انقاذ نفسه بثمانين ديناراً ترضية لجناب المتسلم لأنه صنع في بيته (كنافة بدبس)

وقد بقيت هذه العادة – عادة تحكم الوجهاء تحكما استبداديا – إلى عهد قريب منا ، فقد حدثنا الثقاة بأن بعض الوجهاء كانوا يصنعون كالمتسلم .. إذا بلغهم ان واحداً من آحاد الناس اشترى عقاراً فكانوا يسلبونه منه ويعيدونه بعد ذلك من (المحاسيب) وهي رحمة إلهية منهم إلى المساكين .

وان نسوة الحكام والأكابر كن إذا شاهدن امرأة تلبس فروة من جلد السمور لا يهدأ لهن في بيوتهن مقام حتى يجلب ذلك السمور اليهن لأنه لا يجوز ان يكون في البلد من يلبس مثلهن ١)

الفوضى في انشاء الضرائب وتحصيلها

أما حديث هذه الفوضى فقد يتلخص فيما نرويه عن خطط الشام و كتاب لبنان ، وتاريخ ظاهر العمر ، ومشهد العيان ، ودوافي القطوف ، ورسالة جرجس اندراوس الصوصة ، إذ تجمع هذه المصادر على ان الضرائب في العهد الاقطاعي كانت تختلف حسب مشيئة الحكام ، وان الجباية كانت

(١) الطب الكلية م ١٣ ص ١٥٦ :

على غير قاعدة مطردة فقد تجبى جباية سنتين أو ثلاث في غير أوقاتها في آن واحد ولا تراعى في الجبايات أعوام القحوط والجدب والمصائب، فإن الأمير أحمد المعني فرّق على بلاده ضريبة المسعدة (المساعدة) سنة ١٦٩٦ م مع ان البلاد كانت في محل عام والأسعار في غلاء والناس في ضيق شديد.

والأنكى من هذا انه إذا ضاقت الحال بأحد العقلاء أو ببعض الجماعات فرفع صوته بالشكوى الى المراجع العليا عدوه خارجياً وقاتلوه وحرفوا دعوته على ولاة الأمر وليتسواعلى العامة في أمره حتى يسكتوا نأمنه ويزيفوا مدعاه.

فكان من الضرائب أن يقطعوا الناس شاشات للف العمائم ويأخذوا ثمن القطعة من ثلاثة الى أربعين غرشاً وأكثر ويسمونها (الشاشية) ١) ويسمحون لهم بلبس البوابيج ويأخذون ثمن كل منها عشرين غرشاً، ويضربون على بيض (بزو) الحرير (البزرية) وقيمتها خمسة غروش على كل من يربي من شجر التوت اوقية بزر قز، وقد تكون هذه الضريبة نصف هذه القيمة: ومنها (الهميد) وهو المال المرتب من الديوان، وضرائب المطاحن فإن الامير بشير الكبير عد بزمن الدولة المصرية طواحين البلاد ورتب على دخل كل الف غرش خمسة وأربعين غرشاً، وكذلك أحدث بزمنها مال الاعانة من خمسة عشر غرش الى خمس مائة، وكانت عشر طبقات على كل مكلف حسب طاقته وسمي بطرس كرامه الحصي فأنزلها الى خمسين غرشاً، وفرضت الاعانات على سائر المقاطعات على هذه النسبة وأصاب كل مكلف في البقاع خمسة وثلاثين غرشاً وهو أقلها

(١) وهذه الضريبة وضعها الأمير يوسف شهاب تحدياً لعقال الدروز، كما يروي ابو شقرا ص ١٦٦ من تاريخ (الحركات في لبنان)

وقد تكون الضرائب لتعجيز الحاكم وخراب البلاد كما فعل الجزار بزمن الأمير حسين شهاب فإنه طلب منه ثلاث مائة غرارة قمح، وألف رأس غنم، وثلاث مائة رأس بقر، وثلاث مائة قنطار بارود والح بطلبها، وقد تكون الضرائب للتغريم كما فعل الامير بشير بسكان لبنان عند قيامهم عليه سنة ١٨٢١ فصادر أهل الجبة بدفع مائتين وخمسين الف قرش نفقة العسكر، وأهل كسروان بمائتي الف غرش، واهل القاطع بمائة الف غرش.

ومن هذا القبيل ماجرى سنة ١١٦٣ هـ حين زاد الامير ملحم شهاب في الضرائب وفرض على كل مكلف في منطقة حكمه غرشاً، فاجتمع اللبنانيون وامتنعوا عن دفع هذه الفريضة.. فتراجع الأمير لذلك عن طلبه ثم سعى بالقاء فتنة بينهم أدت إلى انقسام الاهالي وسفك الدماء: حتى استقوى عليهم وأذلهم واضطروا لأن يدفعوا ما فرضه من المال مضاعفاً

وكان طالب الحكم في لبنان يقدم لوالي صيدا ستة من جياد الخيل بعددها الفضة وخمسين الف غرش خدمة أي، —عادة— ودفع له الأمير سيد أحمد الشهابي سنة ١٧٨١ خمس مائة الف غرش زيادة عن ثلاث مائة دفعها أخوه الامير يوسف، فتولى الحكم ثم زاد الأمير يوسف المال فتعهد بدفع الف الف غرش، فأنعم عليه بخلعة الولاية، وصحبه بعسكر لطرد أخيه فضايق السكان وزاد الضرائب عليهم لتحصيل تلك الزيادة، فعجز عن تحصيل ما ضربه عليهم وبقي مما تعهد به مائة وخمسين الف غرش

وسنة ١٢٠٥ هـ دفع الامير يوسف شهاب للجزار مائة وخمسين كيساً من كل شهر فولاه حكم لبنان وعزل الأمير بشير، فصار هذا إلى عكا ودفع للجزار مائتين وخمسين كيسا عن كل شهر فأعيد إلى الحكم وأكثر الضرائب

وصادر كل من مالأعمه الأمير يوسف وكان ما كان من عسف واضطراب وثورة ١)

وعلى رواية المعلوف دفع كل من الاميرين للجزار خمسة آلاف كيس عن كل سنة ٢)

في سنة ١٧٨٣ كانت مرجعيون تابعة لايالة صيدا ، ووادي التيم تابعة لايالة دمشق فكان حاكم حاصبيا يؤدي كل سنة إلى والي صيدا عن مرجعيون ستة آلاف غرش وكان حاكم حاصبيا يحصل نفقاته ونفقات أبناء عمه وأعيان بلاده كلها من محاصيلها التي تبلغ خمسين الف غرش ٣)

---

(١) اطلب حوادث سنة ١١٦٣ من تاريخ الشهابي طبع مصر

(٢) دواني القطوف ص ٢٢٦ :

(٣) وهنا ينبغي للقارىء أن يلاحظ هذا التفاوت الكبير بين قيمة القرش في تلك العهود الاقطاعية وبين قيمته اليوم : فإن قيمة القرش في ذلك العهد كانت تساوي ما قيمته اليوم ثلاثة عشر غرش ونصف على نسبة سعر الليرة العثمانية ١٠٠ غرش : هذا على ما حققه العلامة رضا رهو ممن يُطمأن لمعرفتهم وصادق رأيهم بمثل ذلك :

وأما صاحب دواني القطرف فإنه يقول ص ٢٦٤ منه «أما النقود فكانت المعاملة إلى أوائل القرن التاسع عشر ، بالمحبوب ، والسكوين ، والباوة ، والغرش والكيس منها : وشاع الذهب البندقي الذي كان وزنه درهماً وخمس قمحات وعياره ٢٣ قيراطاً وقيمته خمس غروش والمحبوب القديم الذي بلغت قيمته نحو أربعة غروش ، ثم ضرب الذهب الجهادي، والرباعي البندقي ثم عقبها العادلي ، والغازي ثم البشلك ، والزهراوي، والقمري ، وذلك في خلافة السلطان محمود ، وفي خلافة السلطان عبدالمجيد ضربت الليرة المجيدية ، والريال المجيدي ، وقطعها : وقد كثرت انواع النقود في القرن التاسع عشر ، وفي زمن الجزار كانت خمس مائة الف غرش تساوي بمعاملتنا الحاضرة خمسين الف ليرة ، والف غرش نحو اربع مائة ريال »

فاذا أضفنا إلى هذا : تدني اسعار المنتوجات الوطنية بنسبة ٩٥ بالمائة عما هي عليه اليوم يتضح لنا مدى الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين العهدين :

قال السائح الألماني المستر (زيتس) أثناء مروره بسورية سنة ١٨٠٥ وكانت الوظائف تباع بالمزاد ويرسو المبيع على الزائد الأعلى الذي يدفع أكثر من سواه. وكلما فتا قلب المتسلم وفسدت اخلاقه كانت زيادته أعظم : ولكن البلاد كانت من سنة إلى سنة تزيد فقراً وتعساً وتقفر من السكان ١)

عائدات ايالة صيدا

وكان دخل وزير ايالة صيدا من أصناف الضرائب ما لايكاد يحصى إلا على هذا النحو :

١- مال التزام جبل لبنان وجبل عامل وبلاد صفد، من المشايخ والأمراء

٢- مال التزام الجمارك في المدن البحرية صيدا وصور وعكا على الوارد والصادر وأهم الصادرات يومئذ القطن والسمسم

٣- مال الأعناق ، وكان يسميه العرب في صدر الاسلام مال الجوالي وهو يؤخذ من أهل الذمة من النصارى واليهود

٤- مال الباج وهو رسم خفارة الطريق من الغرباء والتجار

٥- مال المغارم العمومية الذي يتقاضاها من جميع أهل الايالة ، والخصوصية التي يفرضها أو يأخذها من بعض الافراد على سبيل الجزاء أو على سبيل الاعانة

٦- دخل بيت مال المسلمين وأهم ما فيه مخلفات من لاوارث له من أهل البلاد والجند والحجاج وأبناء السبيل

٧- مال العوائد أو الهدايا من الاتباع المأمورين ومن الأغنياء والامراء والمشايخ وقناصل الافرنج وتجارهم الذين كانوا في الايالة بصفة مستأمنين

١- الكليم ١٠ ص ١٢٩ :

فإنه كان يتقاضى ذلك منهم كحق واجب عليهم ورفض دفعه أو قطع هذه العوائد صعب ويعد اهانة أو حط من كرامة الوزير

الاحوال في عهد آل الصغير

قال المعلم ميخائيل مشاقة حفيد ابراهيم مشاقة كاتب الشيخ ناصيف النصار ومتسلم أعماله في صور (١) مانصه

« اما المشايخ فدرجات متفاوتة فمنهم الحاكم الكبير والصغير ، وفي الطبقة الاولى بين مشايخ لبنان من حكموا في ناحية الجنوب : بيت علي الصغير فامتدت حكومتهم من النهر الليطاني ومن بلاد بشاره إلى حدود الكرمل ، ومن الكرمل وناحيـــة صفد مع مدينة عكا كانت تحت سلطة مشايخ الزيادنة ، ومن نهر الليطاني من ناحية صيدا فاقليم الشوير (الشومر) — وبـــلاد الشقيف كانت بيد مشايخ الصعبة — الصعبية — الشيعيين او المتاوله (٢) : ومن خارج صيدا بميل يبتدىء إقليم التفاح — والأصح اقليم الخروب — وهو آخر حدود لبنان الجنوبية وتحكمه آل شهاب من صيدا لحدود ولاية طرابلس شمالا :

---

(١) تاريخ ظاهر العمر ص ١٤٢ :

(٢) ان مشايخ الصعبية لم يتعد حكمهم اقليم الشقيف إلا في الفترة التي غزى بهـا الامير ملحم شهاب بلاد بشارة وانضم اليه الشيخ سليمان الصعبي واعتقل مشايخ آل الصغير او الشيخ نصار النصار ، وسلم البلاد للشيخ سليمان الصعبي ، وهي فترة قصيرة تعد بالأشهر. بل الايام، وأما اقليم الشومر فكان مع الجانب الأكبر من اقليم التفاح في يد مشايخ المناكره ولم يزل بيدهم إلى ان اصبح ملكا خاصاً مشتركا بين آل الصغير وآل صعب وآل منكر سنة ١٢٢٠ هـ على ما نثر من تاريخ المعلم ابراهيم العورا ص ٧٧ — ٧٩ من العرفان م ٢٦ :

فالمشايخ الذين تقدم لنا الكلام عنهم كان يتولى أمرهم شيخ منهم توليه عليهم الدولة بعد أن تفرض عليه الجباية وتطلق له التصرف بأحوال الشعب وراحته وكانت شريعة شيخنا هذا إرادته :

وكان هذا الزعيم أوشيخ المشايخ يقيم له معاونين ووكلاء ويطلق عليهم اسم مشايخ تعزيزاً لهم وكان يفرض عليهم مالا محدوداً ويعدهم ان لايتعرض لأعمالهم فيمرحون ويطلقون لمطامعهم الاشعبية الاعنة في مصّ حياة الشعب من عروقه بـلا شفقة ولا حنان وكانوا يستعبدون ويأتون المنكرات في كثير من أعمالهم الجائرة : وكانت الدولة علة وجود هـذا الاعتساف في أعمال رجالها (الامناء) حيث كانت تطلق للوالي حقوق التصرف بولايته بعد أن تنـــال منه الرسم المعين وكان هذا يولي شيخ المشايخ وهذا يولي مشايخ ومعاونين على سلب مال الرعية بما تتوصل اليه يدهم ويقدرون عليه :

وكان الشعب لا يرد لهم طلبا لجهله القانون ولذلك كان كفيلا قويا لاملاء بطون مشايخه وهوى زعيمها : وهذا مكلف بإشباع بطن الوالي ومن الوالي يرسل ما بقي إلى الخزينه الملتهبة . ومن سوء طالع الشعب لا الخزينة ولا بطون المشايخ والوالي تعرف الامتلاء فكانت البلصات متتابعة والنهب قائم على قدم وساق :

كان شيخ القرية ينظر إلى الشعب نظر السيد ويسلبه راحته فضلا عن ماله أين شاء وكيف شاء كما تقدم وكأن الشعب تعود الطاعـة وألف الجباية فنام إلى الذل ، وحسب لشيخه مزية عليه ومقدرة له لا مناص ولا مهرب له من جور حاكمه فكان كالنعجة تساق إلى الذبح بلا معارضة أو أقل مدافعة عن حياتها ولم يكن إدراكه يخوله معرفة انه ماخلق ليكون

عبداً عتيقاً لحاكمه ١)

وقال المعلم ميخائيل الصباغ « وكانت جميع البلاد في ظلم شديد من الولاة والحكام فإن والي صيدا — من آل العظم — لم يكن يقف عند مال الميري وعوائده بل عدا ظلمه إلى نهب الفلاحين حتى كل من سمع انه مستور الحال يرسل اليه ويحبسه ويطلب منه ما هو فوق طاقته

وكان احمد الجزار شاملا بظلمه بلاد صفد مثل أبو سنان وطرشيحا، وصفد، والقاسمية ودير حنا، وسحماتا، وجدين، وهي قلعته التي يسكن فيها وابن ماضي شيخ مشايخ جبل نابلس كان يوقد نار الظلم في نواحي الناصرة وقراها، والمرج وحيفا، والطنطورة، وسانور، وهي القلعة التي يقيم فيها

والشيخ ناصيف النصار كبير مشايخ المتاولة مثقل بالجور والظلم على بلاد بشاره

فالميري على جميع هذه البلاد عموماً معروف إن الحاكم يأخذ من الفلاح الربع من حاصلها، غير ان هؤلاء الحكام لجورهم وعدم وجود من يمنعهم كانوا بعد ان يأخذوا من الفلاح الربع يرسلون أيضاً إلى البيادر وينهبون غلاتها، ثم إذا وصل الحاكم إلى بلد ما ونزل عليها يأخذ بقر اهلها لينبحها ويطعمها لمن معه، فكان الناس لذلك ومن عدم الأمن في ضيق لا يطاق ٢) وما زال لقطاع الطرق والحرامية في ذلك العهد صداه الخالد في هذه الاغنية القديمة التي يرددها اللبنانيون في بعض القرى :

(١) اطلب منيد العيان بحوادث سورية ولبنان ص ٣٠-٣١ طبع مصر
(٢) الاريخ ظاهر العمر ص ٢٤-٢٥

ارقصي يا مليحة	ارقصي ولا تبالي
بدف الخشخش	بنقل الجمال
زوجك يا مليحه	راح عالشام وخلاك
زوجك يا مليحه	بو زيد الهلالي ١)

عائدات الاقطاعيين في جبل عامل

أما دخل مشايخ المقاطعات في جبل عامل فكان يتألف من موارد شتى

١- من جنى الاملاك الخاصة

٢- مما يجونه من التزام المقاطعات وجمع أموال الحكومة والضمان اضافا مضاعفة من الأهالي

٣- من ضمان الأسواق الاسبوعية والباج

٤- من المغارم العمومية التي يتقاضونها من جميع أبناء المقاطعة، والخصوصية التي كانت تفرض على بعض الأفراد أو تؤخذ منهم على سبيل الجزاء أو الاعانة أو ما أشبه ذلك من المطالب التكيفية

الضرائب التقليدية

وهناك ضرائب تقليدية غير مباشرة كان الاقطاعيون يتقاضونها باسم علاوة، أو عادة أو شوفة خاطر، أو عيدية، أو هدية وتقدمة

الضريبة باسم عادة

فقد كانت العادة في القرية التي يسيطر عليها الزعيم الاقطاعي تفرض

(١) مجلة الكلية م ١٠ ص ١٩ :

على كل مواطن يتزوج لأول مرة ان يدفع للزعيم (باسم عادة) وسمي يتراوح مقداره بين ما يساوي ١٠ مجيديات و ١٥ مجيديا أو أكثر من ذلك او اقل حسب حالة المواطن ومحله بنظر الزعيم

الضريبة باسم حلاوة

وكانت التقاليد ايضاً تفرض على كل من يتوسل بزعيم اقطاعي لاسترجاع منهوباته ان يدفع (باسم حلاوة) ضريبة لرجال الزعيم او للزعيم نفسه وهذه الضريبة تعلو قيمتها وتنخفض على حسب قيمة المنهوبات أو على حسب غرض الزعيم من استرجاعها

وموضع الغرابة في هذه الضريبة ان غالب هذه المنهوبات التي كانت تسترد بواسطة الزعيم الاقطاعي لم تكن تنهب بدون رأيه ومعرفته وسابق تصميمه وربما اتخذت وسيلة لتأديب من تحدثهم أنفسهم بمعاوضة الزعيم او بالطموح إلى التحرر والانعتاق من رق العادات والتقاليد التي تحدد واجبهم نحوه في كل مناسبة وتضغط على ارادتهم في كل آن

اما الضريبة باسم (شوفة خاطر) فكانت دواعيها كثيرة ومناسباتها عديدة لا يمكن حصرها او تحديدها بوجه خاص او مثل معين .

الضريبة باسم عيدية

وكانت التقاليد ولم تزل توجب على اهل القرية او القرى التي يسيطر عليها الزعيم الاقطاعي ان تجمع له في فترة العيد ضريبة كبيرة من الحبوب والذبائح تختلف كمية وقيمة باختلاف حالة البلدة الاقتصادية ومكانتها بين القرى ثم تقدم في طليعة الموكب البلدي (باسم عيدية)

الضريبة باسم هدية

وكانت العادة ولم تزل تفرض على كل قرية من القرى التي يسيطر عليها نفوذ الزعيم ان تجمع له — في الاحتفالات الشعبية التي تقام بداره للتهنئة او التعزية او لاستقبال حاكم كبير او ما إلى ذلك من دواعي الاجتماعات الكبرى — ضريبة وافرة من الحبوب والذبائح وما إلى ذلك حسب حالة البلدة ومكانتها ثم تقدمها في طليعة الموكب البلدي (باسم هدية وتقدمة)

وهذه العادات المتبعة من قبل الأهالي يقضي الواقع بأن نعتبرها — كتسخير الاهالي في الأشغال العمومية والخصوصية — ضرائب غير مباشرة لأن أهل القرى لا يتحفزون لها بباعث الحب والثقة أو بباعث التبرك وطلب الدعاء ولا يقومون بأعبائها امتثالا لواجب انساني او مقابلة لعادات مثلها سبقت اليهم من نحو الزعيم في مناسبات أفراحهم واحزانهم فإنا لم نر في تاريخ الزعماء شيئاً من هذا بالنسبة لأهل القرى والمناطق الموالية لهم ولا رأيناهم يبادلونهم بواحدة من هذه العادات الخصبة الخيرة وما دامت هذه العادات الخصبة الخيرة لا تحترم إلا من جانب واحد ولا يعمل بها إلا من قبل الضعفاء فهي بحكم الأتاوات والضرائب لا تعبر عن حب واحترام وإنما تنشأ عن خوف من نقمة الأقوياء أو عن احتياط لدفع مضراتهم وغوائلهم

المراتب الرسمية

كانت الاسر اللبنانية — فيما مضى — تنقسم إلى طبقات وعشائر تختلف معاملاتها باختلاف مراتبها ولهذا لا نرى بداً من سرد تلك الطبقات بحسب نشأتها وترتيبها ، فكان أولها الامراء وهم أعلى مرتبة من غيرهم وكان الحكم بيدهم والاعتبار الأول لهم ، وثانيها المقدمون وهم بعد الأمراء ، وبعدهم

المشايخ وهي الطبقة الثالثة من الطبقات اللبنانية .

ذلك فضلا عما هنالك من طبقات الأعيان ممن كان بعضهم يدانى هذه الطبقات في الوجاهة والمنزلة ولكن الاعتبار كان بما رتب رسمياً عند الحكام والأمراء والاقطاعيين، فكانت كل أسرة حريصة على مبادئها وأنسابها واصهارها وانسبائها حتى انهم كثيراً ما حصروا الزواج واحتكروه احتكار السلع وامتنعوا عن تزويج من ليس من طبقتهم — في اعتبارهم — وذلك مرعي عند جميع طوائف لبنان على السواء ، فالأمراء منهم لا يتزوجون إلا من طبقتهم وهكذا من يليهم من المقدمين ، فالمشايخ ١) وكانوا يعدون من أسباب السقوط أن يسف ابن اسرة من أسر الامراء او المقدمين او المشايخ فيصهر إلى غير أهل طبقته ٢) وكانت المراتب تحفظ حسب الاصول فلا تغيرها أيدي الفقر أو الغنى أو الرفعة أو الانحطاط

السمية والعهدة

وكان باقي اهالي لبنان يتميزون على اختلاف طبقاتهم بالسمية والعهدة ، وهي الانتماء إلى أمير اومقدم أو شيخ . من اصحاب الأقطاع أو من ذوي الكلمة النافذة ، فترى المنتمي يتفانى في ارضاء صاحب العهدة والسمية ، وذاك يحرص عليه فيحفظه ممن يعتدي عليه ويفرض عليه مالا ، ويوازره بعنايته ويخلع عليه في الدواعي الخاصة ، وإذا غضب صاحب العهدة والسمية على احد من الأهالي لمخالفته له فلا يرى هذا سبيلا للتخلص منه إلا بأن يلتجىء إلى زعيم آخر يتجاسر على مقاومته ، وإذا استفز الامير الشيخ . واستفز هذا اهل عهدته وحالفهم تراهم اطوع له من بنانه . وكانوا إذا وقع خلاف بين رئيسي مقاطعتين وجب على رجال كل فئة ان تتجند على نفقة نفسها

(١) لبنان ص ١٤٣ (٢) الخطط ج٦ ص ٣٠١

طريقتهم في تعيين الحكام

كانت طريقة اللبنانيين في تعيين حكامهم ورؤسائهم ، بأن يجتمع اعيان البلاد من الامراء والمقدمين والمشايخ والمناصب وينتخبون مكان الحاكم المتوفى — أو المعزول من قبل الولاة أو الممقوت من قبل الجمهور — حاكماً ما لهم من الامراء ثم يقدمونه إلى والي الايالة فيثبته او يرفضه ، فإذا ثبته خلع عليه الخلعة السلطانية (وهي غالباً من فرو السمور والجوخ الموشي) وإذا رفض انتخابه أعاده لهم لينتخبوا غيره إذا كان لهذا الغير اعتراض مشروع ، أو كان عنده زيادة على المال المفروض على لبنان أو الشوف نحسب ، أو كان للوالي غرض خاص من تعيينه ، كل هذا مما يشعرنا بأن انتخابهم للحاكم إنما كان شكلياً لا أثر له على إرادة والي الايالة فيما يحققه من تولية أو عزله .. وإلا فلا يعقل أن ينتخب اللبنانيون حاكماً لهم بعد وفاة الامير أحمد المعني سنة ١٦٩٣ م من غير المعنيين — كالأمير بشير الشهابي ، والأمير حيدر — مع وجود الأمير حسين المعني وأولاده على قيد الحياة يتمتعون بأفضل المميزات الشخصية والثقافية والبيتية لذلك العهد ، وهم خلف الأمير فخر الدين الكبير ، لايعقل هذا لو لم تكن الكلمة الاولى — في مثل هذا الانتخاب — للدولة العثمانية ولولاتها في الشام وصيدا او لضغط القناصل والمساعي الاجنبية التي يلمس القارىء طرفاً منها في هاتين الوثيقتين من أوراق آل الخازن ١) المنشورة في جريدة الشعب اللبنانية

(١) الوثيقة الأولى في كتاب من القس يوسف السمعاني للشيخ نوفل الخازن وهو كما يلي :

« الى الشيخ نوفل الخازن المكرم أدامه الله تعالى آمين

اولا مزيد كثرة الاشواق الى مشاهدتكم بكل خير ثم نعلم حضر تكم

سنة ١٩٥٢ بعنوان (التأسيس الشهابيين)

بأن أخوكم الشيخ كسروان المكرم قد توجه نحو بلاد فرنسا بعد اننا اخرجناله مكاتيب من سيدنا البابا الى ذاك السلطان ربنا يسهل امره ويسمعنا عنه اخبار طيبة ، ومن جهة دعوى حضرة الأمير . في حين وصول اخيكم جددنا المكاتيب من المجمع الى (الكراندوكا) والى تاريخه ما جانا سوى ان الخصم متعلل علل باطلة لأجل تطويل الدعوى وقوله ان حضرة الأمير حيدر ما هو مؤكد انه تبقى وحده من ذاك النسل ، فكتبنا شهادة الرهبان الذين في رومية وبعثناها الى فيورنسا ولكنه عمال يتعلل في صحة هذه الشهادة وغيرها لازم ان تجعلوا البادري منصور وغيره من الرهبان الافرنج الذين في صيدا والذين في بلاد الدروز (يعني الشوف) ان يعملوا شهادة في لسان الفرنساوي ، وليسلموها في قنسلاتو قنصل صيدا ؛ ومضمونها كما هو واضح في هذا المكتوب تمرضوه على البادري منصور والبادري امبروسيوتي ، هذه الشهادة تسجل عند قنصل صيدا ، واعملوا لها نسختين ثلاثة وارسلوها للجميع والدعاء» في ١٥ ايلول سنة ١٦٩١ اخيكم القس يوسف سمعاني

(الثانية) «شهادة الأعيان»

« نحن الموقعين اسمائنا ادناه نعترف بما يأتي ان الأمير فخر الدين من عائلة معن دوق الدروز وفينيقية قد كان له اخ يدعى بولس واصياً وان الامير المذكور فخر الدين كان له اولاده المذكورين الطبيعيين الشرعيين اعني حسين ومنصور وحيدر وبلاغ وانه قبض عليه وسيق مع اثنين من اولاده إلى الاستانة حيث قتلوا جميعهم في سنة ١٦٣٣ ثم نؤكد ان يونس اخ دموي للأمير فخر الدين وكان له ابن يدعى ملحم الذي مات كما ذكر مع فخر الدين واولاده فتخلفه بالميراث بالاملاك والمال وكان له ولدان الواحد يدعى احمد والآخر قرقماز ولما توفي ملحم قبل المذكورين سنة ١٦٥٦ وقرقماز سنة ١٦٦١ تبقى احمد وحده واوث كما ذكر اعلاه ثم نقر ايضاً ان

ثم ان هذا الحاكم المنتخب من الاقطاعيين هو الذي كان ينتخب بدوره الاقطاعيين في لبنان ويعينهم حسب ما يراه مناسباً ، وهو الذي يوزع الضرائب والاعانات والأموال المفروضة على الأعناق والعقارات ، وهو الذي يجند الجنود ويجبي الأموال وينصرف كما يشاء بزيادة الضرائب او تخفيضها أو توزيعها .

امتيازات الاقطاعيين

كان للأمراء والمقدمين والمشايخ امتيازات يختلفه منها ان لا يقتل أحدهم ولا يسجن ولا يضرب ولكن يصادر بالمال أو بإتلاف العقار أو النفي ، وإذا دخل المذنب على الحاكم قابله على عادته بالتحية والسلام ولا يهينه ، وإذا كتب اليه كتاب الغضب لم يغير شيئاً من القابه وكراماته كما انه لا يثبت عبارات الولاء ويضع ختمه في أعلى وجه الصحيفة ، فإذا كان كتاب رضى وضع ختمه على ظاهرها وتلك عادته مع الرعية أيضاً

اصطلاحاتهم في المكاتبة

وكانت لهم عادات راسخة في مخاطباتهم وكتاباتهم وافراحهم واحزانهم امست عندهم بمثابة القواعد العامة ، فكان الحاكم يكتب إلى كل طبقة من أصحاب الرتب المار ذكرها «والأخ العزيز» وكل من كتب اليه هذه العبارة حار شيخاً ، والامراء يكتب اليهم حسب طبقاتهم وهي هكذا الشهابيون

هذا الامير احمد كان له ابن يدعى ملحم الذي مات قبل ابيه سنة ١٦٩٣ وبنت متزوجة من الامير موسى من عائلة شهاب التي منها ولد ابن اسمه حيدر والذي تخلف الامير دوق الدروز ، ثم نقر ايضاً ان احمد المذكور لما توفي في سنة ١٦٩٣ وكان حيدر ابن ابنته قاصر السن — اثني عشر سنه عمره »

واللمعيون ، والارسلانيون والمقدمون ، اما المشايخ فمنهم من يكتب اليهم كالامراء وهم الحماديون فانهم بمنزلة اللمعيين ، ثم تأتي طبقاتهم على هـذا الترتيب وهو الجنبلاطيون ، والعماديون ، والنكديون والتلحوقيون والملكيون وبني العبد الخ

والورق يكتب فيه على نصف طبق (طلحية) إلى الامراء الشهابيين واللمعيين والمشايخ الحماديين ، والبـاقون يكتب اليهم في ربع طبق فقط ويوقع (يمضي) في كتب الامراء الشهابيين فوق اسمه كلمة (أخ) وفي كتب غيرهم عبارة « محب مخلص » ثم يكتبون إلى باقي العشائر بألقاب متفاوتة مثل (حضرة عزيزنا) أو عزيزنا فقط أو أعز المحبين) لكن حضرة عزيزنا لاتكون إلا في ربع طبق من الورق واعز المحبين تكون في ثمن طبق (وعزيزنا) تكون فيهما جميعاً بحسب منزلة الشخص المكتوب اليه

وما كان الامير بشير يكتب الى غير الشيخ بشير جنبلاط والشيخ ناصيف نكد والشيخ حمود نكد من المشايخ ، في نصف طبق الا الى بني حمادة الجبليين لأنهم كانوا قديما يحكمون تلك البلاد من يد وزراء السلطنة العلية ، ولم يذكر كنية شيخ مـا من الاقطاعيين الا الشيخ بشير جنبلاط لأنه كان على جانب عظيم في البلاد . واما كتابتهم الى رؤساء الدين من كل طائفة ففيها تكريم زائد بكبر الورق واعطاء الالقاب والخضوع

واما الكتاب الى الحاكم الكبير فكان الجميع يدعونه (سيداً) ولكن الامير الشهابي يدعو نفسه ولداً له او ابن عمـه حسب عمره ، واللمعي يدعو نفسه «محباً داعياً» والباقون يدعون انفسهم « عبيداً» ولا يذكر له اسم ولا لقب ولا كنية بل يدعى بالامير لا غير ١)

(١) الدوالي ص ٢٤٩-٢٥٠ : لبنان ص ١٤٤-١٤٦

عاداتهم في المقابلة

ثم كانت لهم عادات في السلام والجلوس والخطاب تشأم عليها حكامهم الكبار ، فكان اذا دخل على الحاكم احد المناصب الشهابيين نهض إليه عند دخوله ونزل على بساطه واقفاً حتى يصل إليه فيسلم عليه مقبلا كتفه ، وان كان من غير الشهابيين لم ينهض حتى يبدأ بالتحية فإن كان من اللمعيين قبل عضده او من الارسلانيين فزنده ، وإن كان مقدما او شيخاً فعرف راحته مما بلي الابهام ، واما من دونهم من الرعايا فمنهم من ينهض له ولكن عندما يهوي على يده ليقبلها فمنهم من يقبل رسغها ومنهم من يقبل الاصابع ، ومنهم من لا ينهض له ولا يمكنه من تقبيل يـده ومنهم من لا يأذن له بالدخول عليه ، وإذا أقام في داره احد المناصب اياماً فإن كان من الشهابيين ينهض له عند دخوله في كل يوم ابتداء فإن خرج ثم عاد لا ينهض له ، وإن كان مقدما او شيخا فلا ينهض له إلا عند الوداع ما لم يكن قد تولى القضاء فإن القاضي عنده في رتبة الأمير بخلاف رئيس الشرطة فإنه في رتبة العامة حتى إذا كان من المشايخ لم يعامله في المقابلة والكتابة على عادته قبل ذلك

وكانوا يتنافسون في ارضاء الحاكم والوصول إلى مجلسه وتقبيل يده وثوبه وكان من يُكتب له هذا الشرف يتناقل خبره اهل بيته خلفاً عن سلف ويعدونه في مفاخرهم وهنـاك من كانوا يبتعدون – بتزلفهم إلى الحكام – عن مواطن العزة والكرامة والنبل وقد تأصل فيهم هـذا الداء حتى العصر الاخير ١)

وأما مقابلة الرؤساء الدينيين فكانت تجري بكل خضوع واحترام مع

(١) الخطط م ٦ ص ٢٩٩-٣٠١

لتم أعمالهم وانجاز أوامرهم وطلباتهم برضى واطاعة للتبرك حيناً ولاستغلال مكانتهم الدينية والشعبية في أكثر الاحيان (١)

ادب الضيافة عند العموم

كان من أهم معاملات الأهالي بعضهم لبعض آدابهم في المجالس فانهم يصدرون بها كبراءهم في السن وفي الرتبة ويتأدبون أمامهم ويسلم الداخل على الجالسين والماشي على من يمر به والراكب على الماشي ، وبما كان يرضي شيوخهم من التحيات قول العامة لهم « صبحكم بالخير » وقد يكون قولهم «نهاركم سعيد» مغضباً لهم ، ويقدمون لزوارهم القهوة والتبغ مفضلين الرجال على النساء ، ولا يقاطع أحدهم حديث الآخر حتى يستأذنه ، ويترحبون كثيراً بزوارهم ويحتفون بهم ولا يكدرونهم بشيء بل مهما كان المضيف حزيناً لا يظهر شيئاً أمام ضيفه وكذلك لايذكرون ماتأنف منه النفوس ولاسيما عند الأكل ونحوه

ما يلبسون

كان من مزايا الامير اللبنانية التهادي والمفارضة في الأفراح والأحزان والنوائب مع البساطة وطيبة القلب ورقة العواطف ، وكانوا يتبادلون الدعوات في بعض الشؤون والمراسيم والزيارات ، وتعرف الدعوة عندهم باسم (العزيمة) يدعون اليها من يشاؤون من الأنسباء والاصحاب فيكثر هرجهم وتبادلهم الأحاديث المختلفة وأهمها التفاخر بذكر قدماتهم والتباهي بنجاح أحزابهم وكثيراً ما يتناشدون المعنى (الزجل) ويترنمون بالأناشيد

(١) دوالي القطوف ص ٢٠١ ولبنان ص ١٤٦

الوطنية والحماسية واهمها الحدو (الحداء) (والتحورب) والمواويل والعتابا والميجانا

وموائدهم قديماً كانت بسيطة ليست إلا شيئاً يمد على الارض كجلد ونحوه ويسمونه السفرة وقد يكون طبلية وهي مائدة مستديرة واطئة شبه الطبل توضع عليها الأواني الخزفية والنحاسية ويجلس حولها المدعوون بحسب مراتبهم في السن والمكانة

وقد لا يجلس أهل البيت معهم بل يخدمونهم بأيديهم ويقدمون لهم ما ما يبعد عن متناول ايديهم من مآكل ومشارب ، وهم ادباء في مآدبهم حافظون لحقوق غيرهم ولكنهم أحياناً كثير والاحاف بالدعوة إلى الطعام حتى انهم لا يقبلون عذراً لمن لم يشاركهم في الطعام ، وقد يحسبون ذلك انتقاصاً من قدرهم

وحبهم للقرى معروف ولاسيما في لبنان الجنوبي حيث تسيطر عادات العرب ، ومن امثالهم (اضرب بالسيف تتأمر واطعم خبز تتمشيخ) ويقولون (مالحنا) اي كل ملحنا وقد يقولون (جابرنا) اي اجبر قلوبنا بقبول دعوتنا الحارة إلى تناول الطعام معنا او في محلنا ، إلى غير ذلك من العبائر المحرجة وقد كانوا في الجنوب وجبل عامل يعدون في القرى الكبيرة او المطروقة من الغرباء — كالنبطية ومشغرة — مضيفاً ومنزولا خاصاً للضيوف يقوم بنفقاته أهل القرية ويفردون له قسماً من اراضي القرية املاكها ينفق ريعه على ذلك المضيف وكان اصحاب المروءة من الأتقياء يوقفون جانباً من املاكهم للمضيف ، وكان لهذا المضيف ولأوقافه ادارة خاصة لها وكلاؤها وخدمها الموظفين للعمل والخدمة وربما استغنى بعض الوكلاء عن أحسن إدارة هذه الاملاك وأحسن تدبير المنزول وأمن حاجة الضيوف إلى الأكل

والمنامة وعليق الخيل والدواب — من وراء وظيفته واستغلاله لصداقة الضيوف وعطف أرباب الوجاهة والمال منهم كما كان واقع الحال مع جد بعض الاسر النابهة في مشغرة حين استدعي لادارة املاك المنزول ومراقبة نفقاته وتأمين حاجة الاضياف ذلك على مايروي العارفون بتاريخ مشغرة :

من عاداتهم في النوائب

وكانوا إذا اصيب أحدهم بنكبة أو نائبة كخسارة امواله أو فقد أحد اعضائه كالعين واليد والرجل وما شاكل ذلك اجتمعوا في بيته يسلونه بقص الحوادث التي جرت للناس أعظم مما جرى له فيهونون عليه مصابه وقد يسعون له بالتعويض المالي مثل جمع اعانة ونحوها لمساعدته واعالة اسرته والسعي له بعمل يوافق إذا كان مشوهاً فكثيراً ما يسلمونه اولادهم اذا كان قارئاً وكاتباً وحاسباً فيدرسهم ، وقد تكون المساعدة من الامير او الاقطاعي الذي ينتمي هو اليه بدراهم ونحوها ، ومن أساليبهم في تعزية المنكوبين بفقد المال قولهم « اللي بيتعوض ما هو خسارة » و « بالمال ولا بالرجال » و « واللي ماله مايروح ماله » ويقولون للمنكوبين بالتشويه « نشكر الله اللي ما هو أعظم » و « أشد الاوجاع الحاضرة » و « لا تكبر مصيبتك بتصغر »

من عاداتهم في الامراض

وكانوا يعتقدون أن الطب تجربة واختبار فلذلك قالوا « اسأل مجرب ولا تسأل حكيم » وكثيراً ما كانوا يعالجون بوصفات العجائز والشيوخ بالضمادات والفصد والكي وتناول بعض العقاقير الطبية والحقن وأمثالها ،

أو ينذرون للمعابد وقبور الأولياء زيتاً وشموعاً وبخوراً أو ينقلون بعض العقاقير النابتة في جدرانها فيفضلونها على غيرها ، وقد يتركون بعض الأمراض بدون علاج كالفالج مثلا ويقولون « فالج لا تعالج » وإن اضطروا إلى مشاورة طبيب جاؤوا بأحد الدجالين من الوطنيين او المغاربة الذين يطوفون القرى بالعقاقير أو بكتابة الحجب والتعاويذ ، أو بالفصد والكي والحقن وقد يكون الأطباء من الشيوخ أو الكهنة فيكون ضررهم أقل ، والطب كان على طريقة ابن سينا

وأما عيادة المريض عندهم فواجبة ولاسيما الدخول إلى غرفته والضجة فيها والتدخين ، ومن أغرب معالجاتهم الكي بالرأس لبعض البثور التي تظهر في الوجنة ، والتمسيد أو الدغدغة لوجع المعدة وإحراق صوفة كلب ووضعها على جرح من عقره كلب ، واستخراج السم من لدغة عقرب أو أفعى بحجر السم في خواتمهم أو باستشارة الحاوي وهو الذي يربط الحية ويشفي من لدغتها ، وشفاء المصدور بتجريعه لبن أتان (حمارة) وإنقاذ المذعور (المرعوب) بتجريعه بول الانسان أو بالتقسيم عليه والدعاء أو ما أشبه ذلك ، وإبراء الوثاب وهو حالة عصبية ، بالقبض على عرق بين الكتفين وإبطال الحازوق (الفواق) بإغضاب المصاب بما كأن يقال له (شو سرقت) بما يوغر صدره ، ورد العين (الإصابة بها) بالرقية والتبخر بأثر العاش (الصائب) الذي يعرف بسكب رصاصة في صحن ماء بيد الراقي أو الراقية والتأمل في الصورة التي ظهرت وتطبيقها عليه ، ومعالجة (بثرة العين) بأن يشحذ المصاب بها من سبع نساء اسمهن مريم ولذلك سموها الشحاذ ويطعم ماشحذه لكلب أسود ، وذبحة الأولاد أو تذبيبهم بأن يمر أحد الرعاة سكينه على عنقه ثلاثا ، والتهاب اللوزتين بتمسيد من خنق خلداً بيده ، والحزازة

«القوباء» في الجلد بإمرار قلم كاتب ابن كاتب على حواشيها بحبره في أيام معلومة ، وانهم عند إدناف المريض يتطيرون من نعيب البوم ويخافون عليه من الموت ، وكذلك إذا كسر ماعون في البيت وإذا عوى كلب عواءً مقلوبا أو صاحت دجاجة كالديك » .

مظاهر الادب العاملي في العهد المعنى

(مخطوط)

في سبيل البحث عن كتاب خطي قديم كان المرحوم والدي استرده من العلامة الكبير السيد محسن الأمين قلبت جميع ما لدينا من الكتب الخطية فلم اقف له على خبر حتى إذا أعياني البحث وخذلني التعب جلست افكر فيما عسى أن يكون أصاب هذا الكتاب الأثري النفيس بما يشتمل عليه من نصوص علمية وأدبية لها أثرها في تقويم الفكر العاملي لذلك العهد، فنسبني طول التفكير إلى ان المرحوم والدي حين أطلعني على ذلك الكتاب أطلعني على كتاب آخر أجل منه خطاً واكبر حجماً وأقدم تاريخاً يشتمل على بعض ما اشتمل عليه الأول من آثار العامليين القدماء ، وتذكرت فيما تذكرت بأني قد سألته بعد ذلك عن الفرق بين ما حواه الأول وما يحويه الثاني .. فقال إن ما في الاول من الشعر والتراجم موجود في الثاني وأما باقي النثر فيختلفان فيه موضوعاً وتركيباً وكماً : فتجدد نشاطي لهذه الذكريات وانبعث رجائي فاستأنفت البحث والتنقيب في جميع انحاء المكتبة ولم أترك فيها رفاً إلا قلبته ولا ملفاً إلا فككته حتى إذا أوشك اليأس أن يقعدني بعد استقصاء جميع الكتب المجلدة وكدت انهي البحث بين الاوراق والكتب المفككة عثرت على صرة مربعة الاركان مشدودة من أربع جهاتها بخيوط غليظة وبجانب هذه الصرة جلد كتاب عتيق قد تأكلت جوانبه وتشققت من تقلب

الايدي عليه ، ونقر العث قلبه فيما نقر ، وانحنت أطرافه على بعضها حتى صار أشبه بالعرجون القديم من القمر في آخر منازله ولياليه .

فبادرت إلى حل العقدة وفك الوثاق ونشر ما التف وانطوى ، فإذا بأوصاف الكتاب الذي صورتها الذاكرة تتراءى لعيني فيما تشققت عنه هذه الصرة وإذا بالشعر والآثار العاملية المطلوبة لي تبدو لأول مرة قلبت فيها صفحات هذا المتحف المغمور في زوايا النسيان .

(نوع الورق)

لا يحتاج الناظر فيه إلى التدقيق ليعدد مميزاته الشكلية فإنه لأول نظرة يرى ورقه لا يختلف عما كان يسمى — بالتومي — من الورق الابيض الرقيق الناعم الملمس المائل بلونه إلى شيء من السمرة ، ولكن ما طرأ عليه من وكف الشتاء — الدلف — ومن تعرض أطرافه لنور الشمس أو الدخان جعل لونها يميل إلى اللون القرفي أو البني وترك بعض الصفحات مبقعاً .

وكذلك إهماله في رفوف البيوت القديمة من ايران أو العراق أو جبل عاملة مهد العث والأرضة سبيلا إلى تخريم صفحاته وحواشيه بخطوط مستديرة آناً وملتوية آناً ومستطيلة مع السطور أحياناً ، ولكنها دقيقة لم تؤثر على حرو الألفاظ وعلى قراءتها إلا نادراً .

(نوع الخط)

وأما خطه فنموذج للخط الفارسي الجميل المتوسط في دقته ثم في وضوحه أيضاً لأن اصطلاحات الناسخ في رسم بعض الحروف مغاير لاصطلاح العصر الحاضر في كتابتها كرسمه للهاء منفصلة مع الالف كما يرسم عـــدد (٤)

وكتابته لحرف الميم قبل اللام في أول الكلمة كما تكتب بعدها في وسط الكلمة ، وللفظة «لايخلو»: لايخ . ولفظة «وكذلك»: وكك و«الظاهر»: والظ : أضف إلى مثل هذا نسيانه للنقط ثم الحروف في بعض الأحيان كل هذا مما يجعل قراءتها لأول مرة صعبة عسيرة بدون تمرين على مصطلحات الناسخ ، ويلحق جـــذا إهماله — كغيره من القدماء — لترقيم الصفحات واكتفائه عن ذلك بكتابة الكلمة الاولى من الورقة الثانية بذيل الورقة الاولى ليستدل بها على ما يليها

وقد يكون من محاسن خطه ومميزاته ان يكتب العناوين الكبرى والفواصل الرئيسية بحبر أحمر أثناء السطور وبخط عريض أحمر على هامش الصفحات مما يزيد في جمالها الفني ويسهل على القارىء اختيار الموضوع والانتقال من بحث إلى بحث كالوترك لها هالة كبيرة من البياض بين السطور أو في أول الصفحة

طريقة الناسخ في ترتيب السطور والصفحات

على أن الشيء الذي يصطدم به ذوق القارىء الحديث هو عدم التفرقة بين الشعر والنثر في الترتيب فحيث ينتهي الناسخ من الشعر إلى النثر أو من النثر إلى الشعر يبتدىء بالكتابة سواءاً في اول السطر أو في آخره وبدون ان يترك فراغاً بين المقاطع الشعرية أو يرتبها على النحو المعتاد ، فالتفرقة بين الشعر والنثر موكولة هنـــا إلى ذوق القارىء وحذقه وانتباهه والا اضطربت الحال وجدّ السامع الأريب ما يضحكه أو يشوشه

ولعل السر في هـــذا الحبك والمزج والمحافظة على تساوي أطراف الصفحات في خطوط مستقيمة هو كون النساخ في الأعم الأغلب من

الفرس او من المقلدين للفرس في هذا النمط من الكتابة ، وقد يكون العامل الأول اقتصاديا إذ ان الخطاطين المحافظين كانوا وما يزالون في العراق وفارس يتقاضون الأجر على حسب الصفحات والسطور طولا وعرضاً وكيفاً وكما فراعاة لمصلحتهم أو لميزانية صاحب الكتاب – إذا كان معسراً – تجنبوا ترك الفراغ بين السطور والصفحات إلى هذا الحد البعيد المباين لما اصطلح عليه الجيل المعاصر من تجميل السطور والصفحات بترك شيء من الفراغ بين المقاطع الشعرية وتكليل الفصول الكبرى بهالة من البياض في مبتداها وفي نهايتها .

بقية المميزات

أما بقية المميزات الشكلية فيمكن تحديدها على النحو التالي

فطول الكتاب بدون الجلد	٢٤ سنتمتر
وعرضه كذلك »	١٣ »
وطول المكتوب من الصفحة	١٦ »
وطول السطر منها	٧ » ونصف
وعدد سطورها	٢٣ سطراً
وعدد الكلمات من كل سطرين	١١و١٢ كلمة
وعدد صفحات الجزء الأول منه	٢٩٩ صفحة
وعدد صفحات الجزء الثاني	٢٥٧ »
وعدد الملحق به من كتاب الافصاح	١١٦
وعدد المجموع	٦٧٢

محتويات الجزء الاول

إنك حين تتوغل في درس هذا الجزء وتستقصيه بحثاً واطلاعا تتبين لك مميزاته وما يشتمل عليه من مسائل مختلفة واحاديث متفاوتة وطوائف متنوعة ليس لها ترتيب أوتبويب أوترقيم وإنما سجلت على حسب استطراق الذهن اليها أوعرضها عليه أو تأثرها وهي تكاد تنحصر فيما اختلف به نظر العلماء ودق فهمه وتفسيره من مشكلات الحديث وعلم الفقه والاصول ، أوعلم الكلام والتصوف والاخلاق أو علم التفسير والتجويد والقراءات أوعلم النحو والصرف ومفردات اللغة ، وهناك فصل كبير لما التبست معانية وبعدت مقاصده او تعددت وجهته من عبائر الصحيفة السجادية اجتهد المؤلف في تفسيرها وتوجيهها وتقريبها إلى الأفهام والعقول النيرة وفصل آخر للمنتخبات الأدبية من قطع شعرية أو جمل نثرية طوّبت على حكمة او عبرة أوتوجيه اخلاقي أو اجتماعي او ديني أو وجداني يسمو اليه شعور المعتدلين من الفقهاء والادباء والعاشقين والمتصوفين تصوفاً دينياً لاشذوذ فيه يوجب سخط المؤلف وتفنيده كما سخط في ردوده على نظريات الغزالي حين استطرق لكتبه المختلفة فرضاً وانجاهاً كالمنقذ من الضلال ، وسر العالمين .

طريقته في البحث

وطريقته في ذلك ان يذكر الحديث أو المسألة أو العبارة بروايتها المختلفة ويذكر أقوال العلماء واصحاب النظر فيها ، ثم يعلق على ذلك كله بعد أن يفسر ما التبس من معاني الالفاظ اللغوية ، فيقرب بين الروايات المختلفة والآراء المتفاوتة أو يرجح أحدها او يستقل برأيه وتفسيره ووجهة

نظره وبورد أدلته وملاحظاته بأسلوب يدل على مدى علمه وبعد نظره واعتدال ذوقه وصفاء منطقه وعذوبة ألفاظه وفصاحة لهجته فصاحة لايقاس بها ما نقرأه لعلماء عصره ومؤلفيه . ولعل اسلوبه في النثر العلمي ابرع واصفى من اسلوبه في النثر الفني واقرب إلى الطبع .

وهو اكثر ما يستفيض وتظهر قوته ودقة نظره وتبحره في المسائل الفقهية كمشكلات شرح اللمعة او المسائل الكلامية كمشكلة الجبر والتفويض والقضاء والقدر والبداء ، كما يبدو لمتصفح الكتاب وعسانا توفق إلى نشر نموذج من هذه الابحاث كتفسيره لحديث (المعروف كاسمه) : وحديث اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، ومسألة إدخال الدنيا في البيضة .

اما مظاهر الضعف في رأي المؤلف وحكمه فقد تتجلى بهذه المسائل التي تفرض على الباحث فيها ان يكون متضلعا من فلسفة العلوم الطبيعية فإن المؤلف يبدو هنا عليل الرأي مضطرب الخطى يعتمد على فطنته وخياله في اشياء لا يغني فيها الافتراض ولا الفطنة شيئا عن العلم بالنواميس الطبيعية والمقررات العلمية .

نموذج من نثره العلمي

وقبل أن تنهي الكلام عن هذا الجزء نقدم للقارىء الكريم نموذجا من نثره العلمي أو من كلام المؤلف في الرد على الصوفية :

« انه لما صرت سيرة الصوفية إلى الامامية كان في اول الأمر من يفرق بين القشر واللباب والذهب والتراب فكان من يميل إلى طرف من مقالهم يختار منه اللباب ويترك القشور ، اذ كان اللبـــاب حسناً منقذاً

بكلام الأنبياء والاوصياء ومن يحذو حذوهم من العلماء الاتقياء ، فإن الصوفية كانوا يدخلون مثل ذلك في كتبهم ومؤلفاتهم ليحسن الظن بهم ، ثم يتدرجون بعد ذلك الى تأويله بما يوافق مطالبهم ويناسب مآربهم ، وكان من يختار ويتخب شيئاً من ذلك يجعله من جملة الوسائل الى تطهير النفس وتزكيتها وابعادها عن الرذائل ، ومع ذلك فالمطلب الأسنى عنده والحلة الحسنى لديه سلوك طريق الشرع وانفـــاذ العمر فيه ، كما يراه من عرف حال اجدادنا وغيرهم من علماء الامامية ، ثم تلاشى الأمر ووصل إلى ارتكاب ما سلكوه والاعتماد على ما قالوه ولو بسماع بعضه من غير تمييز وفرق الى ان وصل الأمر إلى التنفر من الشرع واهله ودخل تحت هذا الاسم ، وهو الصوفية : من يسمى به وينسب اليه فحسب : فاقتصر المدعي على ذلك واكتفى المريد به ، فصار الملحوظ محض الاسم في الغالب ، والا فلامشاحة في التسمية اذا كان المسمى مبنياً على اساس صحيح ثابت لم يتطرق اليه هذا الغش ولم تترتب عليه هذه المفاسد التي ترتبت على لفظ التصوف ومعناه ، إذ التبست الحال فيهما على غير المميز امرهما : بل على المميز ايضاً ، إذا لم يعمل بعقله وتمييزه ، ومحك الفرق والتمييز هو الميل إلى جانب الشرع وأهله ، أو التنفر منه ومن اهله ، وعلامة التنفر منه التنفر من اهله ، وربما اظهروا التنفر من اهله متعللين بتقصير يدعونه فيهم ، وهذه خدعة ابليس لان اظهار التنفر من الشرع ليس لهم فيه مصلحة ولا حيلة فابطنوه واخروه إلى وقت يمكنهم اظهاره وتعللوا بالقدح في اهله ، وإلا فلو كان هناك تقصير من حاملي الشرع لا يلزم منه القدح في الشريعة وعدم متابعتها

محتويات الجزء الثاني

وهو لا يمتاز عن القسم الأول إلا بتوسعه في النقل والاختيار للطرائف العلمية والأدبية الدقيقة الرائعة ، فإن المختار والمنقول من ذلك يستغرق معظم هذا القسم ، فهو ينقل :

١ – نبذة مختارة ومختصرة من كتاب الأضداد اللغوية الصغاني ، ابتدأ فيها بقوله : المأتم للنساء المجتمعات على الحزن وعلى الفرح ، الأزر القوة والضعف ، وختمها على هذا النحو بما أوله هاء كقوله : هوى ، إذا صعد وإذا نزل :

٢ – ومنظومة ابن مالك ، في الافعال التي جاءت لامانها بالواو ، وبالياء وعدد أبياتها سبعون بيتاً ابتدأها بقوله :

قل إن نسبت عزوه وعزبته وكنوت أحمد كنية وكنيته

وختمها بقوله :

عيني همت تهمو وتهمي دمعها وحموته المأكول مثل حميته

٣ – ونبذة من كتاب لباب الأدب : ومر الأدب للثعالبي : ذكر فيها طرفاً من سنن العرب التي لم يشملها قياس النحويين ولا قواعد الصرفيين كقوله ، من سنن العرب : أن تقول رأيت زيداً وعمراً وسلمت عليه أي عليهما : قال الله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، تقدير الكلام ولاينفقونهما ، ومن سنن العرب إذا ذكرت شيئين اثنين أن تجريهما مجرى الجمع نحو الحسنين عليهم السلام ، وكما قال عز ذكره إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ولم يقل قلباهما ، والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما ولم يقل يديهما إقامة الواحد مقام الجمع ومن سنن العرب

اشتقاق نعت الشيء من اسمه كقولهم : يوم أيوم ، وليل أليل ، وكف كنين ، وروض أريض ، وأسد أسيد ، وصلب صليب ، ومن سنن العرب الخ

٤ – ثم تفسير بعض الأبيات الغامضة المعقدة من الشعر تفسيراً يدل على طول باعه في الأدب ودقة ملاحظاته ثم يذكر بعض مقامات بديع الزمان ونبذة طويلة من أخبار الواردات على معاوية .

٥ – ثم منظومة ابن سينا المشهورة – بمجربات ابن سينا – ويبلغ عدد أبياتها هنا ١٤٠ بيتاً ابتدأها بقوله :

أبدأ باسم الله في نظم حسن أذكر ما جربت في طول الزمن
ما هو بالطبع وبالخواص لكل عام ولكل خاص

ثم ختمها بالصلاة على النبي وآله وصحبه : ما جاد قطر وأجاد دهر

٦ – ثم تحفة الدهر : في المناظرة بين الغنى والفقر ؛ وهي مناظرة أدبية لوالد المؤلف تشغل ١٧ صفحة من الكتاب ، ولعلها تمثل النمط العالي للنثر الفني في عصر المؤلف وبيئته

٧ – ثم فصول انشائية مختارة من كتاب نسيم الصبا منها فصل في وصف أقسام العام وفصل في وصف الفراق وفصل في وصف السماء والنجوم وفصل في وصف الشمس والقمر ، وفصل في وصف السحاب والمطر ، وفصل في وصف الليل والنهار ، وقد ختم هذه الفصول المختارة بهذا التعليق إذ قال : إن هذا الكتاب كنت كتبته كله في أيام الشباب ثم ذهب فيما ذهب من الكتب وكان جدي الحسن أبو منصور قد انتخب هذه الفصول منه ، وهي عندي بخطه الشريف والترتيب مختلف ، وكتب في أولها : هذه فصول انيقة اشتمل على فقر في البلاغة عريقة انتخبتها من الكتاب المسمى بنسيم الصبا للفاضل البارع الأديب الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب ،

وقدمت أمامها شيئاً من كلامه في الديباجة مما تمس اليه الحاجة ..

بغية المريد

٨ – ثم قسم من : كتاب بغية المريد ، من الكشف عن أحوال الشيخ زين الدين الشهيد لتلميذه وملازمـــه الشيخ محمد بن علي بن حسن العودي الجزيني ، وهو كتاب يشتمل على مقدمة وخاتمة وعشرة فصول ، لم يكن منه بيد المؤلف سوى خطبة الكتاب مع المقدمـة والفصول الثلاثة الأولى فنقلها كلها في ٤٦ صفحة كبيرة وعقب عليها بهذه الكلمة :

هذا آخر ما وجدته من التاريخ المذكور ، ونرجو من الله تعالى الظفر بالتتمة فإن الساقط منه كثير بمقتضى الفصول المتقدمة

وقد رأيت العلامة الكبير السيد محسن الأمـين أخرج كتابا صغيراً في تاريخ الشهيد الثاني هو – في جوهره – لا يزيد عما في هذا (المخطوط) من تاريخ ابن العودي ومن مرائي الشهيد الثـاني ولو أن السيد – رحمه الله – حين أثبت خطبة كتاب ابن العودي اثبت ما يليها من بيان فصوله ومحتوياته لعرف القراء اي قيمة تاريخية وادبية وسياسية لما تقدم من هذا التاريخ وبخاصة الفصل السادس والسابع والثامن والتاسع منـــه : إذ يقول ابن العودي : والفصل السادس في محاسن الرسائل البليغة والانشاءات الفصيحة التي برزت منه إلى الغير ومن الغير إليه والسابع في ذكر القصائد التي مدح بها في الزمان ومن مدحه من أهل هذا الشان – والثامن في ذكر ما عرض له من الأخاويف وما نزل به من الأراجيف وما يتبع ذلك من التستر وإخفاء نفسه في النازلات من الاعداء واهل السعايات وما وقع خلال ذلك بيننا وبينه من المراسلات والتاسع في مقتله وخاتمة اجله ومن سعى في تعجيل

الحتف إليه واين وقع وكيف اتفق وما يتبع ذلك من الكتابات المشتملة على الشفاعات من أعيان علماء أهل الشام وفضلاء الاسلام :

ثم لو ان السيد رحمه الله حافظ على وضع ما نشره من تاريخ ابن العودي ولم يتصرف فيه بحذف أو تقديم أو تأخير او إضافة قسم من اقوال المؤلف إلى غيره من المؤلفين الذين قالوا قوله أو رووا ما قد رواه بلفظه او بمعناه لو انه التزم بذلك ، ثم أضاف إلى هذا التاريخ ما قد اضافه من ملاحظات واستدراكات وعناوين وسمى الكتاب باسم (تعليقـــات على تاريخ ابن العودي) او ابقاه على اسمه الأول (بغية المريد) لكان ذلك أجدر بمثله وأدنى للعمل بما رواه عن صاحب المعالم حين قال في اعيان الشيعة م ٢١ ص ٣٩٦ ومن مؤلفاته

التحرير الطاوسي في الرجال

وذلك ان ابن طاوس قد حرر كتاب الاختيار وهذب اخباره متناً وسنداً ووزعها في كتاب (حل الاشكال) على التراجم ، فلما ظفر صاحب المعالم بكتاب حل الاشكال ورآه مشرفاً على التلف انتزع منه ما حرره ابن طاوس ووزعه في ابواب من كتاب الاختيار خاصة وسماه « التحرير الطاوسي » فالتحرير الطاوسي عبارة عن جميع ما حرره ابن طاوس وهذبه من كتاب الكشي خاصة دون ما عداه ، وإيداعه في كتاب واحد سمي بهذا الاسم ، وقد اضاف إليه المترجم في المتن والحواشي فوائده كثيرة : وقال كان اكثر مواضعه قد اصابه تلف فتعبت في تحريره تعباً عظيما .

تراجم النابهين من أسرة المؤلف

٩ – ثم يستطرد إلى ترجمة الشيخ حسن صاحب المعالم بن الشهيد الثاني

وهو الجد الادنى للمؤلف — مع الاشارة إلى تاريخ ولادته سنة ٩٥٩ وتاريخ وفاته سنة ١٠١١ هـ : ثم إلى اسماء مؤلفاته ورسائله مع ذكر شيء من آثاره الأدبية ، كقوله في الحنين إلى مواطن احبابه :

طول اغترابي بفرط الشوق اضناني ... والبين في غمرات الوجد القاني
يا بارقاً من نواحي الحي عارضني ... إليك عني فقد هيجت أشجاني
فما رأيتك في الآفاق معترضاً ... إلا وذكرتني أهلي وأوطاني
وما سمعت شجي الورقاء ناثحة ... في الأيك الا وشبت منه نيراني
ويا بليلا مررت من قربهم سحراً ... في طيها نشر ذاك الرند والبان
أحييت ميتاً بارض الشام مهجة ... وفي العراق له تخبيل جثماني
وكم حييت وكم قدمت من شجن ... ماذاك أول احبابي ولا الثاني
هل يسكن الوجد مادام الشتات وهل ... تصفو المشاوب لي إلا بلبنان
في ربع انسي الذي حل الشباب به ... تمائمي وبه صحبي وخلاني
كم قد عهدت بهاتيك المعاهد من ... اخوان صدق لعمري اي اخوان
وكم تقضت لنا بالحي آونة ... على المسرة في كرم وبستان
يا حيرة الحي قلبي بعد بعدكم ... في حيرة بين أوصاب وأشجان
يمضي الزمان عليه وهو ملتزم ... بحبكم لم يدنسه بسلوان
باق على العهد راع الذمام فما ... يسوم عهدكم يوماً بنسيان

وقوله في الغزل على طريقة الفقهاء :

اختلف الاصحاب في محنتي ... وما الذي أوجب لي البلوى
فقيل طول النأي والبعد عن ... نيل المنى من وصل من أهوى
وقيل لا بل صدغه لم يزل ... بالسحر يرمي القلب بالأسوا
وقيل سهما لحظه إذ رنا ... لم يخطئا من جسدي عضوا

وقيل ضعف الطرف والخصر اذ ... عليه قلب الصب لا يقوى
وقيل بل كلّ له مدخل ... فيها، وعندي انه الأقوى؟!

الشيخ محمد بن صاحب المعالم

١٠ — ثم إلى ترجمة الشيخ محمد بن صاحب المعالم — والد المؤلف — مع الاشارة ايضا إلى تاريخ ولادته سنة ٩٨٠ وتاريخ وفاته سنة ١٠٣٠ هـ ، وإلى اسماء مؤلفاته ورسائله مع ذكر شيء من آثاره الأدبية كقوله في مدح بعض امراء الشيعة — الامير موسى الحرفوش حاكم بعلبك — وكان شاعراً مجيداً وقد مدح المترجم بقصيدة فأجاب عليها بما يلي وهو غض الشباب

جادت بسكب الحيا من ماؤها السحب ... فاستبشرت بالحيا الارضون والحقب
والأرض حاكت لها الأنواء هاطلة ... أثواب وشي حكتها الانجم الشهب
والطير غنت على الافنان من طرب ... فاهتز من لحنها الافنان والقضب
والجو هبت به ريح الصبا فغدا ... بعطرها تهتك الاستار والحجب
وأكؤس البشر دارت وهي صافية ... على الورى فاحتساها العجم والعرب
والعيش قد حفه صفو فعاد له ... نضاره وانقضت للطالب الارب
وراية العدل في الآفاق قد نشرت ... والجور أحشاؤه قد مسها الوصب
وعسكر الهم ولّى وهو منهزم ... وموطن الغم منه دائر خرب
والدهر ذو ألسن في المدح ناطقة ... لكامل زانه الافضال والحسب
الوارث المجد والافضال عن سلف ... له كما في البرايا يورث النسب
مولى أباد العدى لما ألم بهم ... كأنه مذ نشا في حتفهم سبب
لم تر بالسحر آيات له شهدت ... بأنه الآن في فلك العلى قطب
وقد حكاه لدى الهيجاء قسورة ... لكن اظفاره المدية القضب

بالجود والعدل قد احيى الانام كما ... يحيي النبات إذا ما عمت السحب
فالشاة والذئب في مرعاهما اصطحبا ... كما به اصطحب الإحسان والادب
ضرباته علة في الحتف كاملة ... إذا اتت ما تكن البيض والسلب
إن كان موسى له الطاعون معجزة ... فهلك اعداه من سطواته العجب
ولم يشاور سوى نفس مؤيدة ... في امره إن بدا في نفسه الطلب
مولى به الحق امسى وهو مبتهج ... لما غدا منه دمع الشرك منسكب
به سمت بعلبك الشام وافتخرت ... إذ لم تحز مثله مصر ولا حلب
لو لم يكن ذكره في النطق ما حسنت ... حال الندى في الورى لم يكمل الذهب
كذاك لو لم يكن في بذله ذهب ... .
مولى له البشر دأب والسرور فلا ... ابانها الشكر والأشعار والخطب
لو رام حاسده يخفي مكارمه ... إذ حظ فكري بذاك العجز والتعب
وما عسى ان يفي مثلي بمدحته ... وعيشه واسع في دهره خصب
لا زال في سائر الأزمان محتفظاً ... وما تداولت الاقلام والكتب
ما هب في سائر الاقطار ريح صبا

الشيخ زين الدين الثاني

١١ – ثم ينتقل إلى ترجمة الشيخ زين الدين الثاني – وهو الاخ الأكبر للمؤلف – مع الاشارة لتاريخ ولادته سنة ١٠٠٩هـ وتاريخ وفاته سنة ١٠٦٤هـ وإلى ما صادفه في حياته العلمية مع ذكر شيء من آثاره النثرية والشعرية كقوله في النسيب

كم ذا اداري الجوى والسقم يبديه ... وأحبس الدمع والاشواق تجريه
شابت ذوائب آمالي وما نجحت ... وليل هجرك ما شابت نواصيه

رفقاً بقلب المعنى في هواك فما ... ابقيت بالهجر منه ما يعانيه
وكيف يقوى على الهجران ذو كبد ... جرت لطول التنائي من اماقيه
يا من نأى وله في كل جارحة ... مني مقام إذا ما شط يدنيه
لقد تمادى الجوى فينا ورق لنا ... قامي قلوب العدا مما تقاسيه
فهل لنا اليوم بعد اليأس من فرج ... أو راجع من لذيذ العيش صافيه

وقوله في رثاء ابن أخيه (مؤلف الكتاب) وكان يحبه حباً شديداً لذكائه وفطنته وصغر سنه وكامل أوصافه :

بقلبي وروحي ظاعن جل فقده ... صغيراً وان الرزء فيه كبير
هلال دهاه الخسف قبل كماله ... وغصن طواه الحتف وهو نضير
فليت زماني حين جارت صروفه ... علي بغير الحطب فيه تجور
ثوى مذ ثوى صفو الحياة وطيبها ... فما لها حتى النشور نشور
ولو أنه يفدى بروحي فديته ... وما ضنتها ان الفداء حقير
لئن غاب عن عيني بديع جماله ... فقلبي لديه حيث كان أسير
على العيش والأيام من بعده العفا ... فكيف بلذ العيش وهو مرير
يعز علينا أن يكون له الثرى ... وطاء وأن تعلو عليه صخور
وان تصبح الأوطان منه خلية ... وتضرب من دوني عليه ستور
وأن يتوارى في التراب ولم يكن ... له من دموعي الهاطلات طهور
سأبكيه ما حنت اليه جوانحي ... وكاد لذكراه الفؤاد يطير
فكل البكا إلا عليه سفاهة ... وكل الأسى إلا عليه لزور

ترجمة المؤلف

١٢ – ثم يأخذ بعد في ترجمة حياته – أي حياة المؤلف نفسه المولود

سنة ١٠١٤ هـ — وفي تسجيل ما صادفه في غربته وتصوير ما لابسه في حياته مع الاشارة إلى جهوده العلمية وذكر شيء من آثاره الأدبية والشعرية وقد قدمها بهذه الكلمة التي تدل على مدى احترامه لنفسه ولأدبه إذ قال: ولقد كنت في أوائل عمري أتعاطى نظم الشعر، وكنت كلما نظمت شيئاً من قصيدة وغيرها تطلب نفسي ما يكون أعلى طبقة من ذلك النظم وكنت لذلك لا أثبت ما أنظمه: وقد بقي في خاطري بعض أبيات: منها ما يحضرني الآن: أثبته ليكون تذكرة لما أرجب نظمه من حالات. فمنه هذه الأبيات من قصيدة رثيت بها ولدي محمد الأول

عرفت الليالي غثها وسمينها ... فسيان عندي سهلها وحزونها
فلا برؤه يرجى جريح سهامها ... ولا داؤه يلفى دواءً طعينها
إذا وهبت يد السرور شمالها ... على غلط غالتـــه عمداً يمينها
قوافل أحزان فؤادي مناخها ... وأنهار أشجان عيوني عيونها
تقر عيون الشامتين فلم يكن ... لنفسي شيء فوق ما بي يسرها

ولما رحلنا من دمشق إلى العراق كتبت رسالة من جملتها هذه الأبيات

باق على الود وإن شطت الدا ... ر به او بعد العهد
صبٌ لقاكم منتهى قصده أنى وقد أتلفه البعد
سميره أشجانه والبكا ودأبه النحنان والوجد
يرجو من الله اجتماعاً بكم وهو المنى والسؤل والقصد

ثم يستأنف سيرته الأولى من عرض المسائل والاحاديث المشكلة ولا يمضي في ذلك قليلا حتى يقف وينتهي الجزء الثاني من الكتاب دون أن يختمه بكلمة أو بآية تشعرنا بانتهائه أو ببقاء شيء منه لم يستطع أن ينقله أو ينبه في هذه النسخة:

نسخة المؤلف

مما لا شك فيه ان هذه النسخة التي بين أيدينا ليست نسخة المؤلف وان تكن كتبت واستنسخت في عصره على ما يبدو من تاريخ نهاية الجزء الأول من الكتاب إذ يقول الناسخ: هذه صورة خطه — أي خط المؤلف — زاد الله في حفظه.

«تم الجزء الأول من كتاب — الدر المنثور في المأثور وغير المأثور — وأسأل من كرم الله وجوده التوفيق لإكماله، بقلم مؤلفه أقل العباد علي بن محمد بن الحسن بن زين الدين العاملي وذلك في عاشر شهر صفر من شهور سنة ١٠٧٣ ثلاث وسبعون بعد الالف انتهى كلامه اعلا الله مقامه»

فقول الناسخ: هذه صورة خطه زاد الله في حفظه، يدل دلالة واضحة على كونه نقل هذه النسخة عن نسخة المؤلف، وعلى انه استنسخها في حياته وكذلك يبدو من تاريخ نهاية الناسخ من كتاب — الافصاح للمفيد — الملحق بالجزء الثاني والمنسوخ مع الجزءين بخط الناسخ إذ يقول الناسخ نفسه «تم كتاب الافصاح في الإمامة» بقلم العبد الفقير إلى عفو الله علي بن عبد الغالب بن عنابة الله بن علي الفيروزبادي، وذلك في ضحى يوم الجمعة من شهر شوال من شهور سنة ١٠٨٥ خمس وثمانين بعد الالف من الهجرة المشرفة على هاجرها ألف ألف التحية! كذا!

فكتابة هذا الملحق بالجزءين بخط الناسخ نفسه يستشعر منها أن الجزء الثاني منقول عن نسخة المؤلف وفي عصره أو ما يقرب من عصره على فرض أن يكون قد توفي قبل نهاية الناسخ من عمله الأخير سنة ١٠٨٥ فإن المؤلف يذكر في ترجمة حياته انه دفن ولده الشيخ حسين سنة ١٠٧٨ هـ

مكان تأليفه

إنّ من يقرأ حديث المؤلف عن حياة ولده الفاضل الشيخ حسين المولود سنة ١٠٥٦ هـ وعن موته ودفنه في المشهد المقدس سنة ١٠٧٨ وعن تأله ووفاته ، له وذكر ما بقي عليه من الديون باسم بعض النقود والأعداد الفلوسية (هزار)

أو يقرأ قوله في ترجمة جده الشيخ حسن صاحب المعالم : وله ديوان شعر في بلادنا بخطه ، سمعت أنه باق عند أولاد الشيخ نجيب الدين بجلد ومجموع

ثم يطالع قوله في الصفحة السابعة من ترجمة نفسه ، وهذا الحقير قضى أكثر أوقاته في الغربة مكدر العيش محزون القلب ولم يحصل له على شيء سوى الندم ، وكنت مع هذا مشغولا بالمطالعة والبحث والتدريس ولم يكن عندي ما أحتاج اليه من الكتب فاستنسخت مما أحتاج إليه ما يزيد عن سبعين كتابا ، واتفقت لي بوهة من الزمان .. كتبت فيها حاشية على شرح اللمعة في مجلدين ، وجمعت هذا الكتاب الذي أكتب فيه الآن ، وكتبت الخ ..

فمن هذه الأقوال وامثالها يتبين ان المؤلف جمع كتابه هذا وألفه كله أو أكثره بعيدا عن وطنه وأهل بلاده ، وأغلب الظن أن محل إقامته وجهة كان بأصبهان كما يستشعر من تعدد رحلاته بينها وبين مكة المكرمة ومن عناية البيت المالك هنالك به .

قيمة الكتاب العلمية

إنك حين تعلم أن المؤلف ولد سنة ١٠١٤ وأن انتهاءه من تأليف الجزء الأول كان سنة ١٠٧٣ هـ تعلم أنه قد أنجز هذا العمل وهو على غاية من

النضوج الفكري والثقافي ، وأنه نتيجة لجهاد طويل في تحرير الحقائق العلمية واختيار الروائع الأدبية وتسجيل الآراء والأحاسيس والملاحظات في شتى الميادين الفكرية لذلك العصر بهذا البيان الناصع والعبارة الصافية واللغة المهذبة الفصيحة .

وإنك حين تتصور ما كان يموج به عصر المؤلف من الفتن ودواعي الرجعية والخمول العلمي والادبي حتى طغت فيه اللهجة الأمية على أقلام النابهين من علماء وشعراء ومؤرخين

تتأكد أن ما انطوى عليه هذا الكتاب هو أقصى ما كان يطمح اليه النابهون من انتاج علمي وادبي — في ذلك العصر عصر الجمود والاميه والتنكر للعلم والحق وحرية الفكر .

وانك حين تقدر ما كان يسيطر على المؤلف في غربته من قلق واضطراب لمصير أهله وأبناء وطنه — عامة — في عهد الحكام المعنيين الذين تنكروا للشيعة في لبنان وجبل عامل تأثراً بنزوات حزبية اوطائفية أو تزلفاً للملوك بني عثمان وارضاءً لنقمتهم على الشيعة يومئذ وعلى ملوكهم وحلفائهم في مصر وسورية

تعرف إذ ذاك أي فكر نافذ وأي إرادة جبارة تغلب فيها .. على هذه المشاغل فاسترسل في عمله يسجل مايراه ويسوالية فكره وطبعه وإحساسه من هذه الأبحاث والملاحظات والطرائف المختارة ، ويقدمها خير شاهد على استقلال الفكر ومرونة الطبع وسعة الافق العلمي والأدبي درساً وبحثاً واختباراً .

التحريف
آفة الوثائق التاريخية

قرأت في العرفـــان (م ٣٩ ص ٧٥٨) كلمة حول التاريخ العاملي بتوقيع الفاضل الشيخ عبد المحسن الظاهر ، فلم ادر – على حسن الظن بنية الكاتب – أهي دفاع عما قاله وارتآه صاحب (جبل عامل في التاريخ) أم هي دفاع عن حقيقة التاريخ وواقعه انى كان ومن أين اتى ؟؟

فاذا كانت هذه الكلمة دفاعا عما قاله وارتآه صاحب جبـل عامل في التاريخ ، فليس من الانصاف والحكمة ان ابادر في الجواب عليها قبل ان تنتهي ، إذ بلغني ان ما نشر منها بداية للرد لا نهاية :

اما إذا كانت دفاعاً عن حقيقة التـاريخ وواقعه انى كان ومن أين اتى .. فما اولى كاتبها بان يمحص هذه الحقيقة ويدافع عنها فيما تحدث به ونشره من وثائق قبل ان يدافع عنها في كلام غيره .

وما يقول – وقد على الشك – في قيمة الوثيقة التاريخية وفي صورتها (التي نشرها ص ٥١٢ من العرفـان م ٣٩) حينما قرأت نص المكتوب على هامشها هذا « طلب منا المشايخ المذكورين اعلاه بأن نجدد لهم الدفتر الذي بيدهم من المرحوم سليمان باشا طـاب ثراه الذي تاريخه ٢١ جا سنة ٢٢٠ ح وقد جددناه لهم بتاريخه واجرينا لهم ذلك في ١٥ د سنة ١٢٣٧ : الامضاء أمين الحاج ، محمد يوسف والي الشام وصيدا وطرابلس » ؟؟

فإن جميع الذين اوخوا حوادث سنة ١٢٣٧ يؤكدون للملأ ان والي

الشام في هذه السنة كان اسمه درويش باشا ، وهو غير والي صيدا يومئذ ، فان هذا كان اسمه عبد الله باشا ، وكان بينه وبين درويش باشا والي الشام حرب عوان سنة ١٢٣٧ وكان العامليون – بقيادة الشيخ فارس الناصيف – يحاربون مع عبد الله باشا ، فمن اين جاء الناشر إذن بهذا التاريخ والتوقيع الغريب الذي يخالف التاريخ من كل وجه ؟ فلا والي الشام ولا والي صيدا وعكا يومئذ كان يلقب ويسمى « امين الحاج محمد يوسف والي الشام وصيدا وطرابلس » ، ولا كان العامليون يرجعون لوال غير عبد الله باشا ، وكانت صورة توقيعه على ما يلي (امير الحاج السيد عبد الله والي الشام وصيدا وطرابلس ومتصرف الوية غزة ، ويافا ، ونابلس ، وسنجاق القدس سالا ١)

وإذا تحقق التلاعب بهذه الحاشية فمن يضمن لنا سلامة الوثيقة نفسها من تلاعب المحدثين والناقلين وكيف يجوز لنا بعد هـــذا ان نعتبر ما يرويه ناشروها من خبر النصوص والوثائق التاريخية او نطمئن إلى فحواه ؟؟

* * *

وكذلك احب ان اتأكد من صحة ما روي عنه (ص ٥٧٨ من العرفان م ٣٩) من انه رأى على دار الشيخ مشرف ابن علي الصغير ما يلي :

« قسما بما حاطت أباطح مكة ... ومنى وآيات الكتاب المنزل
لم ابتغـــا طمع الخلود وانما ... هي زينة الدنيا لاهل المنزل

أشاد هذا البناء واعلاه واحسن النظر لو كان بناه الشيخ الكبير الملقب بالصغير شيخ مشرف بن نصار دامت سيادته سنة ١١٠٨ ولما لم ير الشيخ عبد المحسن تاريخا لها ذيل البيتين بقوله :

فلذاك قلت مؤرخاً بنيانه ... يا ليتنا عن بابه لم نرحل

(١) خطط الشام م ٣ ص ٣٦

فان مبعث الشك في هـذه الرواية ، انني قرأت ص ٢٨٤ من تاريخ بيروت لصالح بن يحيى التنوخي من ادباء القرن التاسع للهجرة ، المطبوع في بيروت سنة ١٩٠٢م ما نصه « نظن في ايامه — ايام شرف الدين موسى التنوخي — بنيت سراية اعبيه سنة ٨٧٠هـ (١٤١٦ م) واليك ما كتب على بابها :

قسما بما ضمت أباطح مكة ... ومنى وآيات الكتاب المنزل
ما شدتها طمع الخلود وإنما ... هي زينة الدنيا لأهل المنزل

ثم سألت بعد ذلك من يعرفون مزرعة مشرف وأطلالهـا — معرفة اطلاع ومشاهدة — عن قصة التاريخ والبيتين المتقدمين ، فأكدوا لي في الجواب أنهم لم يروا شيئاً من ذلك ولا شاهدوا في أطلال المزرعة والدار من فخامة البناء وزخرفته ما يصحح خبر البيتين الذين كنت أحسبهما من مظاهر الأدب العاملي في عصر مشرف ؟ !

* * *

ثم عدت — بعد انكار الشيخ عبدالمحسن لرؤية ماروى عن دار مشرف — إلى البحث مع أخي العلامة الشيخ ابراهيم سليمان المجاور بقرية البياض لمزرعة مشرف عما يعلمه من ذلك ، فأكد لي برسالته المطولة أن البلاطة التي كانت على باب الشيخ مشرف لاتزال محفوظة عندهم وانها من الرخام وان ما كتب عليها من الشعر والنثر لايزال بين الخطوط واضح الحروف ، وهو من خط جدهم الشيخ سليمان بن علي بن محمد بن سليمان الذي كان يسكن مزرعة مشرف يوم ذاك ، ثم ذكر لي مانصه « وتثبيتاً للأمر أعدت النظر على البلاطة فرأيت أنه قد كتب عليها .. ما هذا لفظه :

بسم الله الرحمن الرحيم

قسما بما حاطت أباطح مكة ... ومنى وآيات الكتاب المنزل
لم ابنها طمع الخلود وإنما ... هي زينة الدنيا لأهل المنزل

لقد أشاد هذا البناء واعلاه وأحسن النظر لو كافأ بناءه الشيخ الكبير الملقب بصغير ١) الشيخ مشرف بن نصار دامت سيادته ، وذلك في ثمان ومائة والف ٢) .. » انتهى

(١) (٢) هنا كلمتان غير واضحتين . . . . .

ثم السلام عليكم في البدء والختام : الأقل

.. ابراهيم سليمان

* * *

ومع ذلك فإن من يقرأ هذا النص بحرفيته بعد أن يقرأ ما رواه الشيخ عبد المحسن العرفان عما شاهده على دار مشرف يرى أن التفاوت واضح بين ما نقله العلامة سليمان وبين ما رواه الشيخ عبد المحسن ، ثم يشعر بأن هذا الأخير قد تصرف بما رواه تصرفاً يتنافى مع الاصول العلمية ومع اصطلاح المؤرخين في نقل الوثائق : إذ قال أولا انه رأى — ما قد رواه — على دار مشرف ، مع انه لم ير ذلك وإنما حدثه عنه المرحوم الشيخ حسين البياضي — كما يبدو من تصريحه الأخير ص ٣٣٢ من العرفان م ٤٠ — ثم انه حذف بادرائه من الوثيقة لفظة (لقد) من جملة (لقد أشاد) وبدل لفظة (بصغير) بلفظة (بالصغير) ولم يشر إلى الكلمة المطموسة بعدها كما أشار العلامة سليمان وبدل لفظة (الشيخ) بلفظة (شيخ) ، ثم بدل جملة (وذلك في ثمان ومائة والف) بقوله (سنة ١١٠٨) ولم يشر الى الكلمة المطموسة بعد لفظة الألف »

ولا إلى نهاية ما نقش على البلاطة كما أشار العلامة سليمان أيضاً بل تجاهل ونفى بعد ذكر (سنة ١١٠٨) هذا التاريخ وذيّل البيتين بقوله :

فلذاك قلت مؤرخاً بنيانه ... باليقنا عن بابه لم نرحـــل

وكذلك تصرف الشيخ عبد المحسن بمـــا رواه حين أعاد الرواية مرة ثانية (في العرفان م٤٠) وقال ، ان البيت الذي فيه التاريخ حروفه مطموسة لطول العهد وعدم المحافظة عليها ، مع انـه في الرواية الأولى لم يشر لأثر هـذا البيت المطموس ، ومع ان البلاطة التي حفر عليها الشعر والنثر من الرخام ، والمدة بين الوقت الذي حفرت به والوقت الذي عثر عليها في انقاض الدار ، لا تتجاوز ٢٤٣ سنة :

ومع ان رواية العلامة سليمان (الجامعة للشروط العلمية ولأمانة النقل) .. لاتشعرنا بوجود هذا البيت ولا تشير لأثره المطموس ، وإنما تشير إلى أن هناك كلمتين غير واضحتين في مكانين مختلفين من الوثيقة ، الأولى بعد كلمة الملقب بصغير .. والثانية في نهاية الكتابة والنقش .. وهذا الاضطراب والتصرف المريب في نقل الوثائق وما يتصل بها من حواش تاريخية .. يذهب بقيمتها العلمية ويزلزل كل ما يترتب عليها من أحكام واستنباطات لأن التصرف والتلاعب بنقل الوثائق وما يتصل بها من الحواشي التاريخية .. يزعزع الثقة بأمانة الناقل وبصدقه وبكل مايزعمه ويفترضه من حوادث وصور ومميزات ، وخاصة عندما يكون الراوي والناقل لها من ذوي العلاقة بها — كالشيخ عبد المحسن الظاهر ومن لايجوز لنا — بحسب الأصول العلمية — ان نطبق إلى مزاعم أمثالهم وروايتهم إلا بعد الاستقراء التام واستعراض ما يقوله جميع ذوي العلاقة ، بذلك المروي ، على اختلاف ميولهم ووجهة

نظرهم من القضايا المروية : ولاسيما من يكونون منها في الطرف الثاني (١) لأن ذوي العلاقة قلما يلتزمون الحياد العلمي في الوقائع التي تمس ماضي قومهم وعشيرتهم : وكثيراً ما يلجأون إلى صبغ الوقائع التاريخية بألوان تلائم غرورهم القومي والقبلي : فيتصرفون ويتفننون لاظهارها بالمظهر الذي يساعد على اعـــلاء شان قومهم وقبيلتهم من جهة وستر معايبهم من جهة أخرى ، وذلك باهمال ذكر بعض الوقائع مع التوسع في سرد بعضها الآخر وبترك بعض الوقائع بين الظلال لكي لا تلفت الانظار مع صبغ بعضها الآخر بألوان زاهية لكي تخطف الأبصار ، فهم لذلك يستطيعون أن يصوروا القضايا التاريخية بأشكال مختلفة عن طريق اصطفـــاء الوقائع وجمعها ومزجها وعرضها بأشكال شتى :

(١) اطلب ص ٤١–٤٢ من كتاب :اراء واحاديث في التاريخ والاجتماع ، للعلامة ساطع الحصري

المكابرة آفة العلم والتاريخ

قرأت أكثر من مرة ما نشر بتوقيع الفاضل الشيخ عبد المحسن الظاهر من تعقيب على أبحاثي التاريخية التي نشرت متسلسلة بالعرفان (م٣٩) وكلما تأملت أسلوب الكاتب في تفنيد حججي وآرائي على وهج العواطف القبلية جنحت إلى القطع بأن مثل هـذا الاسلوب لا يجوز مناقشته أو التعرض له بقول (لا) أو نعم . ذلك بأن صاحبه لم يتقيد بأصول البحث وقواعده ولا بمنطق العلم وموجباته ، ومن يكن هذا شأنه في المناظرة والجدل كيف نحاول إقناعه وزحزحته عما تأثر به من معتقدات العشيرة أو سحر وجدانه من قصص ونوادر بالغ فيها خيال الرواة تكبيراً وتصغيراً وتحريفاً حتى اصطبغت بصبغة الأساطير .

ولكن إسراف المهوشين في التجني وتماديهم في مكابرة الحقائق طول هذه المدة التي تحرجت فيها من الجواب، حفزني لاعادة النظر في كل ما نشره حضرة المنتقد . وسوغ لي أن أقدم للقراء أمثلة واضحة من أسلوبه في الجدل والاحتجاج وسوق البراهين العليلة .

- ١ -

فمن هذه الأمثلة اني ذهبت، ص٣٥٣ من العرفان م٣٩ ، بأدلتي العلمية إلى أن « أولاد علي » مشايخ الكوثرية الذين نهبهم الأمير فخر الدين المعني سنة ١٠٢٢ هـ هم من آل منكر لا من آل الصغير ، وإلى أن حديث الصفدي عنهم لا يدل على ان المراد من « أولاد علي » هم أولاد علي الصغير بل يدل على العكس من ذلك .

فجاء في حضرة المنتقد يقول «هذا خلاف الواقع لأنه من البديهي المعلوم الذي لا ينازع فيه بأن لفظة أولاد علي لا يفهم منها إلا آل الصغير ، ومن حينما وضعت عليهم أصبحت علماً لهم لا يشاركهم فيها أحد مطلقاً سواء اضفت إليها الصغير أم لم تضفه ١)

ولو صح هذا المنطق من المنتقد لاستغنى الصفدي عن لفظة « الصغير » حين تعرض لذكر أولاد علي صغير مراراً في غير هذا المقام ، ولاستغنى غيره من المؤرخين — عند تعرضهم لآل الصغير — عن ذكر هذه اللفظة لو كان وجودها وعدمها سواء من حيث الدلالة على الأسرة المعلومة . ولو صح هذا المنطق ، لأطمأن له صاحب جبل عامل في التاريخ — الذي يدافع عنه حضرة المنتقد — ولم يتلبك — حين أراد أن ينسب حادثة الكوثرية إلى آل الصغير — ولم ينحرف عن نقل عبارة الصفدي بنصها إلى تلخيصها وزيادة لفظة « الصغير » على جملة « اولاد علي » كما زادها الشهابي الذي تمسك صاحب جبل عامل في التاريخ بعبارته ونقلها بنصها ولم يلخصها كما لخص عبارة الصفدي مع أن حضرته يقول صفحة ٢٥ من كتابه « انه لا يعرف يوماً لفخر الدين المعني في الكوثرية غير اليوم الآنف وحديث الصفدي عنه أوثق الاحاديث لأنه معاصر له ولعله كان يكتب الحوادث في وقتها وقد كان يوقتها باليوم والشهر والسنة »

كما انه قال ص ٣١ منه « والعادة تقضي بصحة رواية الصفدي لأنه معاصر للقوم ومتخصص في تدوين ما يجري لهم »

---

(١) العرفان م ٣٩ ص ٨٨٣

-٢-

ومنها اني ذهبت في الاستدلال – على ان مشايخ الكوثرية حين نهبها الامير فخر الدين المعني سنة ١٠٢٢ هـ هم من آل منكر لا من آل الصغير إلى أن قرية الكوثرية هذه لم يسكنها آل الصغير إلا في مدة متأخرة عن ذلك الزمن ١)

فرد علي – تبريراً لاعتبار هؤلاء المشايخ من آل الصغير لا من آل منكر – بأن بعض شيوخ آل الصغير انتقلوا إلى قرية الكوثرية بعد حادثتهم مع آل شكر، وهي من الحوادث المعروفة بنسبتها إلى سنة ١٠٥٩هـ

فانتقال آل الصغير بعد سنة ١٠٥٩هـ إلى الكوثرية هو دليل قاطع بنظر المنتقد على ان آل الصغير كانوا في الكوثرية سنة ١٠٢٢ هـ ! وانهم هم الذين عناهم الصفدي حين قال ص١٦ من تاريخ الأمير فخر الدين «فجاء إليه أناس واشتكوا من أولاد علي مشايخ الكوثرية بأن جماعتهم شلحوا أناساً وشرعوا يخربون في البلاد ويشوشون على الرعية»

على أنني حين حاولت أن انفي كون مشايخ الكوثرية هؤلاء من أولاد الصغير لم أحاول أن انفي عنهم مفخرة من المفاخر وإنما رفعت عنهم بهذا النفي مسؤولية ما قام به أولئك المشايخ من محاولات حمقاء أساءت إلى العامليين وضاعفت نقمة الحكام المعنيين عليهم .

-٣-

ومنها أنني استدللت بما صوره المؤرخون – ونص عليه الصفدي ٢) من انهزام قوى المعنيين العسكرية شر هزيمة أمام قوة الشكريين – على مدى

(١) العرفان م ٣٩ ص ٣٥٣
(٢) تاريخ الصفدي ص٣٩-٤٠

قوة آل شكر وعلى انهم كانوا يومئذ أشد بأساً وأمنع جانباً من غيرهم في عاملة ١) موضحا بهذا الاستدلال لما جاء ص ٢٥ من كتاب جبل عامل في التاريخ من قول المؤلف نفسه «ربما نستفيد من اجتماعهم – والضمير عائد إلى جمهور العامليين – في بلاد بشارة . انها كانت خارجة عن سلطة المعنيين وانهم من أجل ذلك اختاروا الاجتماع بها» ومن قوله «وربما نستفيد منه – والضمير هنا عائد إلى حديث الصفدي – إن هذا الشطر الخارج عن سلطة المعنيين كان محكوماً لبيت شكر فقط»

ومن قوله «ص ٢٧» – تعليقاً على حديث الصفدي عن حملة المعنيين على آل شكر – «وهذا الحديث يكشف لنا عن أن الشكريين هم حكام بلاد بشارة في ذلك التاريخ دون غيرهم ويدلنا على مبلغهم من النجدة المنتهية والبسالة المشبوبة والتيقظ الواعي»

ومع ذلك ظل حضرة المنتقد الواثق بما يقوله صاحب الكتاب يطالبني بالدليل على هذه الشدة والبأس ٢) ويفترض الافتراضات الشاذة لتكذيبها ثم يذهب في مغالطته إلى أن عدم زيارة آل شكر للأمير أحمد الحرفوش في مشغرة وعدم تلبيتهم لدعوته .. دليل على انحطاط مقامهم وضعف قوتهم بالنسبة لمقام الذين زاروا الأمير من أولاد علي صغير ، وأولاد دافر ، ومنكر ؟ كأن استقلال آل شكر بالارادة وحرية الرأي واختلاف ظروفهم واعتباراتهم الموجبة لاهمال مثل هذه الزيارة ولعدم الارتباط والتقيد بما يتقيد به غيرهم .. كأن ذلك ليس له هذه الأهمية وهذا الأثر بنظر مؤرخ القرن العشرين ؟

(١) العرفان م ٣٩ ص ٣٥٦
(٢) العرفان م ٣٩ ص ١١٣٠

-٢-

ومنها اني ذهبت في الاستدلال – على ان مشايخ الكوثرية حين نهبها الامير فخر الدين المعني سنة ١٠٢٢ هـ هم من آل منكر لا من آل الصفير إلى أن قرية الكوثرية هذه لم يسكنها آل الصفير إلا في مدة متأخرة عن ذلك الزمن ١)

فرد علي – تبريراً لاعتبار هؤلاء المشايخ من آل الصفير لا من آل منكر – بأن بعض شيوخ آل الصفير انتقلوا إلى قرية الكوثرية بعد حادثتهم مع آل شكر، وهي من الحوادث المعروفة بنسبتها إلى سنة ١٠٥٩هـ فانتقال آل الصفير بعد سنة ١٠٥٩هـ إلى الكوثرية هو دليل قاطع بنظر المنتقد على ان آل الصفير كانوا في الكوثرية سنة ١٠٢٢ هـ ! وانهم هم الذين عناهم الصفدي حين قال ص١٦ من تاريخ الأمير فخر الدين «فجاء إليه أناس واشتكوا من أولاد علي مشايخ الكوثرية بأن جماعتهم شلحوا أناساً وشرعوا يخربون في البلاد ويشوشون على الرعية»

على أنني حين حاولت أن انفي كون مشايخ الكوثرية هؤلاء من أولاد الصفير لم أحاول أن انفي عنهم مفخرة من المفاخر وإنما رفعت عنهم بهذا النفي مسؤولية ما قام به أولئك المشايخ من محاولات حمقاء أساءت إلى العامليين وضاعفت نقمة الحكام المعنيين عليهم .

-٣-

ومنها أنني استدللت بما صوره المؤرخون – ونص عليه الصفدي ٢) من انهزام قوى المعنيين العسكرية شر هزيمة أمام قوة الشكريين – على مدى

(١) العرفان م ٣٩ ص ٣٥٣
(٢) تاريخ الصفدي ص٣٩–٤٠

قوة آل شكر وعلى انهم كانوا يومئذ أشد بأساً وأمنع جانباً من غيرهم في عاملة ١) موضحا بهذا الاستدلال لما جاء ص ٢٥ من كتاب جبل عامل في التاريخ من قول المؤلف نفسه «ربما نستفيد من اجتماعهم – والضمير عائد إلى جمهور العامليين – في بلاد بشارة . انها كانت خارجة عن سلطة المعنيين وانهم من أجل ذلك اختاروا الاجتماع بها» ومن قوله «وربما نستفيد منه – والضمير هنا عائد إلى حديث الصفدي – إن هذا الشطر الخارج عن سلطة المعنيين كان محكوماً لبيت شكر فقط»

ومن قوله «ص ٢٧» – تعليقاً على حديث الصفدي عن حملة المعنيين على آل شكر – «وهذا الحديث يكشف لنا عن أن الشكريين هم حكام بلاد بشارة في ذلك التاريخ دون غيرهم ويدلنا على مبلغهم من النجدة الملتهبة والبسالة المشبوبة والتيقظ الواعي»

ومع ذلك ظل حضرة المنتقد الواثق بما يقوله صاحب الكتاب يطالبني بالدليل على هذه الشدة والبأس ٢) ويفترض الافتراضات الشاذة لتكذيبها ثم يذهب في مغالطته إلى أن عدم زيارة آل شكر للأمير أحمد الحرفوش في مشغرة وعدم تلبيتهم لدعوته .. دليل على انحطاط مقامهم وضعف قوتهم بالنسبة لمقام الذين زاروا الأمير من أولاد علي صغير ، وأولاد داغر ، ومنكر ؟ كأن استقلال آل شكر بالارادة وحرية الرأي واختلاف ظروفهم واعتباراتهم الموجبة لاهمال مثل هذه الزيارة ولعدم الارتباط والتقيد بما يتقيد به غيرهم .. كأن ذلك ليس له هذه الأهمية وهذا الأثر بنظر مؤرخ القرن العشرين ؟

(١) العرفان م ٣٩ ص ٣٥٦
(٢) العرفان م ٣٩ ص ١١٣٠

-٤-

ومنها أني تخلصت بما يرويه آل الصغير مع الحاج محمد سهيل من مظاهر تغلب آل شكر على آل الصغير ومن انضواء هؤلاء وتسترهم خوفاً على حياتهم وشكا بمقدرتهم على الثأر زهاء ١٥ عاماً ثم تسللهم بعد ذلك وتكتمهم لاغتيال قادة الشكرية – وهم نيام مطمأنين إلى صفو الليالي وبعد الاخطار عن ديارهم – تخلصت بذلك وأمثاله إلى القول بأن جميع الروايات حتى رواية آل الصغير أنفسهم عن أسلوب انتقامهم وسبب فتكهم (١) تدل دلالة صريحة على أن الشكريين كانوا أشد بأساً وأوسع نفوذاً .

فعقب حضرة المنتقد على ذلك بقوله ص ٩٩ من العرفان م ٤٠ « هذا قول لم يستند إلى دليل ولم يقم عليه برهان ويظهر عليه شعار الحيف والتحيز بلا كافة ولا مشقة لمن أراد الامعان والتدقيق وما ندري من أين عثر على تلك الرواية لآل الصغير حتى جاز له أن يقول مثل هذا القول »

ثم رجع بعد ذلك يقول « ان التاريخ ليحدثنا عن مكانة آل شكر قبل وقعة علي الصغير معهم وآل الصغير يعترفون لهم بذلك ! ولكن بعد الوقيعة لم يحدثنا التاريخ بشيء عن نفوذهم وشدة بأسهم كما يقول الكاتب »

تأمل هذا القول من حضرة المنتقد، وحدثني أي (فهلوي) من المؤرخين زعم له « أن آل شكر كانوا – بعد موتهم أشد بأساً واوسع نفوذاً من آل الصغير ؟! وهل كان هذا الافتراض إلا من أغراق المنتقد في البحث ؟ والتمحيص والتزام المنطق والأدلة العقلية ؟

-٥-

ومنها أني عند ماعقبت على رواية شبيب باشا الأسعد – القائلة بأن عشيرتهم

(١) راجع ما تقدم ص ٩٩ – ١٠١ من هذا الكتاب

دخلت جبل عامل في عهد صلاح الدين الأيوبي وتغلبت بقوة السلاح والحرب على حاكم البلاد وعسكره ثم ظلت حاكمة إلى أن مات والد علي الصغير ولم يبق من يقوم مقامه من أبناء العشيرة ، أي إلى القرن الحادي عشر للهجرة – بقولي « فكيف نتصور أن عشيرة تسود البلاد بعددها وعديدها زهاء اربعة قرون وعندما يموت رئيسها لا يبقى منها أحد يقوم مقامه سوى هذا الجنين علي الصغير »

أجابني حضرة المنتقد « أليس من المعقول الممكن إذا مات سيد عشيرة أو قتل وكان له أقارب كثيرة أن لا يوجد أحد من عشيرته يقوم مقامه ويغني غناه » ثم احتج لذلك بمقتل الشيخ ناصيف النصار وعدم قيام أحد من عشيرته مقامه في الحكم . على كثرة أبناء عشيرته يوم قتل .. احتج بذلك ولم يميز بين الحاكم الذي يموت حتف انفه بمعزل عن الحرب ونقمة السلطان ولا يبقى حي من العشيرة التي حكمت البلاد بعددها وعديدها زهاء أربعة قرون يرثه سوى جنين كما يستفاد من سياق رواية الأسعد وغيرها مما يستعرض قصة علي صغير مع الشكرية ، وبين الحاكم الذي يقتل بسيف السلطان وفي فترة تحاول فيها الدولة أن تقضي على جميع الحكام المتمردين على إرادتها وان تقتص من جميع الرؤساء الجائرين على أهالي البلاد كما كانت الحال يوم قتل الشيخ ناصيف وتشردت بقية الأسر العاملية المسيطرة ، على ما يبدو من أقوال المؤرخين التي تشعرنا بما نستشعره من قول المعلم ميخائيل مشاقة « وعولت الدولة العثمانية على الجزار في إخضاع الشام وضمه تحت جناحها على طريقة الغدر والخداع وإلقاء الفتن والحروب الأهلية بين امراء البلاد والمشايخ الذين كانوا يحكمون الرعية بالجور والعسف ويسومونهم الذل أنواعاً والظلم أشكالا وشريعة الرجل منهم ارادته السخيفة ، والحاكم يشتق

ويقتل ويشوه أخلاق الشعب وكأن الحال قيضت لهم رجلا كالجزار ينتقم منهم، وكان هؤلاء العتاة لاهين بالمنازعات العائلية والحروب الأهلية يكرهون العدل ويعشقون الظلم لا يرحمون ضعيفاً ولا قريباً ولم تكن معاملة الجزار الأمير يوسف أقسى من معاملة هذا الأمير لاخوانه وأنسبائه وان ما لحقه من الجزار هو بما يستحقه ، وقس على الأمير بقية المشايخ والامراء الذين كانوا يستبيحون أموال الرعية واعراضها في سبيل أهوائهم(١)

-٦-

وحسبنا بعرض هذا المقدار من المغالطات المطردة فيما نشره حضرة المنتقد، دليلا على غيرها في باقي ردوده المتعنتة ، وقد يكون من لغو الكلام وفضوله أن أتتبعها عداً وألمّ بها نقداً وتفنيداً مادام حضرته يتجاهل حقيقة ما أقوله ثم لا يتورع من التحريف والعبث بألفاظي وعبائري ومقاصدي حين يضيق بها ولا يرى مخرجاً له إلا بتأويلها أو تبديلها كما بدل عبارة الاستفهام الانكاري من قولي « ألأن آل الصغير كانوا من السطوة والقوة بحيث يخشى المعنيون بأسهم وخطرهم » بعبارة التأكيد والاثبات حين نقل هذه العبارة على النحو التالي « إلا أن آل الصغير كانوا ٢) الخ » لينقض بذلك مقصدي وغايتي منها ..

ثم لاشيء سوى أني أتمنى على هواة التاريخ بعض ما تمناه فقيد الأدب العربي الاستاذ أمين الريحاني حين قال (٣)

« اقرأوا التاريخ منزهين عن الاغراض مجردين عن الاهواء اقرأوا

(١) راجع خطط الشام ص٢٣ م٣ ومشهد العيان ص ٦٣

(٢) أطلب العرفان م٤٠ ص٩٩ (٣) النكبات ص«و» ثم ص«١٠٩»

التاريخ لتدركوا اللب فيه فتنسوا إذ ذاك قريضه وقوافيه ، اوتشعروا بأنه إذا كان في التاريخ فائدة ما ، فهي في هذه الدروس التي يلقيها علينا هي في الامثولة التي تعلمنا انه يجب ان نتعظ بأخطاء الماضي ، هي في الامثولة التي تعلمنا أن من الاثم أن نورث أبناءنا ما ورثناه من مساوىء الماضي ، هي في الامثولة التي تعلمنا أنه لايجوز أن نظل مخدرين إلى الأبد بأوهام التاريخ : ولا يجوز أن نسمم عقل الامة إلى الأبد بسمومه ، بل يجب أن نعرف الحقيقة منه كلها فنستنير بها إذا كانت خيراً وننبذها ونتقي امثالها إذا كانت شراً »

انتهى

كتاب مع التاريخ العاملي في عهد المعنيين وآل الشكر

وسيليه

كتاب مع التاريخ العاملي في عهد الشهابيين وآل الصغير

تنبيه

ان ما نشر ص١٢٩ بعنوان «بقية النصوص التي تنم عن تاريخنا في العهد المعني» هو فصل مستقل بذاته والحاقه اودمجه بما تقدم من البحث عن مظاهر السياسة في عهد آل شكر كان خطأ مطبعيا يوجب التنبيه :

أما بقية الاخطاء المطبعية من تقديم أو تأخير، وتغيير أو تبديل وزيادة أو نقص في الحروف والكلمات والنقط والجمل والارقام فلم ننبه إلى شيء منها اعتماداً على فطنة القارىء وتقديراً لذوقه الأدبي .

المراجع العاملية

١ – جبل عامل في قرنين للشيخ علي اسبيتي العرفان م«٥»

٢ – جبل عامل في قرن للشيخ حيدر رضا الركيني : العرفان بين م ٢٧/٢٨/٢٩

٣ – مخطوطة الحاج محمد سهيل

٤ – حسن العواقب : لزينب فواز

٥ – سوق المعادن : للشيخ محمد علي عز الدين (مخطوط)

٦ – الدر المنثور في المأثور وغير المأثور (مخطوط) للشيخ علي زين الدين من علماء القرن الحادي عشر للهجرة

٧ – أمل الآمل في علماء جبل عامل ، للحر العاملي

٨ – بعض مجلدات (اعيان الشيعة) للعلامة الامين

٩ – تاريخ صيدا : للاستاذ صاحب العرفان

١٠ – مقدمة ديوان شبيب باشا الاسعد

١١ – نفثة مصدور في اعمال اهل البطل والزور لشبيب باشا الاسعد

١٢ – مذكرات الاستاذ الشيخ احمد رضا المنشورة في العرفان بين م ٣٢/٣٦

١٣ – الشيعة أو المتاولة في جبل عامل للاستاذ رضا العرفان م (٢)

١٤ – بنو عاملة في التاريخ للاستاذ رضا العرفان م ٣١

١٥ – اسماء قرى جبل عامل للاستاذ الشيخ سليمان ظاهر العرفان م٨

١٦ – معجم قرى جبل عامل للاستاذ ظاهر العرفان بين م ٢٠ و م ٢٩

١٧ – جبل عامل وقلعة الشقيف للاستاذ ظاهر العرفان م ٦

المراجع العامة

١ – تاريخ صالح بن يحي لعهد التنوخيين في بيروت وغرب لبنان

٢ – تاريخ الأمير فخر الدين المعني للشيخ محمد خالد الصفدي : طبع بيروت سنة ١٩٣٦

٣ – تاريخ الأزمنة للبطريرك اسطفان الدويهي طبع بيروت سنة ١٩٥٠

٤ – خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر الهجري

٥ – تاريخ الأمير حيدر احمد شهاب نسخة الشيخ ناصيف اليازجي (معاصر المؤلف) كما نشرها الاستاذ نعوم مغبغب سنة ١٩٠٤

٦ – ثم تاريخ الأمير حيدر احمد لعهد الشهابيين في لبنان نسخة الآباء اليسوعيين كما نشرها الاستاذ أسد رستم والاستاذ فؤاد افرام البستاني سنة ١٩٣٣ ممزوجة بتاريخ نهضة فرنسا بعهد نابليون :

٧ – آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع للاستاذ ساطع الحصري :

٨ – تاريخ ظاهر العمر للمعلم ميخائيل نقولا الصباغ

٩ – مشهد العيان للمعلم ميخائيل مشاقه

١٠ – الاقطاعية في مصر وسورية ولبنان ، لبولياك .

١١ – الحلقة المفقودة في تاريخ العرب للاستاذ محمد جميل بيهم

١٢ – خطط الشام للاستاذ محمد كرد علي

١٣ – لبنان للجنة من المؤلفين في العهد التركي

١٤ – ولاية بيروت في العهد التركي

١٥ – مذكرات جمال باشا

١٦ – دواني القطوف للاستاذ عيسى اسكندر المعلوف

١٧ – نبذة من تاريخ ظاهر العمر للأستاذ جرجي يني المقتطف م ٢٨

١٨ – نبذة من تاريخ ولاية سليمان باشا للمعلم ابراهيم العورا

١٩ – بعض مجلدات مجلة (الكلية) البيروتية

٢٠ – بعض مجلدات مجلة (المشرق) البيروتية